حسن فهمي

يا عيني عليك!

دار الشروق

يا عيني عليك!

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف ٧٥٤٣١٤ برقيا : شروق القاهرة
بيروت : ص.ب. ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقيا : داشروق

الطبعة الاولى
١٣٩٩ - ١٩٧٩

الغلاف بريشة الفنان مصطفى حسين ٠

مِنْ هُنَا تَبدأ قِراءَة هَذا الكِتاب

يُحكى أن ناسكاً كان يعيش في صومعة على جبل . يتاخم مدينة يسكن فيها شقيق له فاضل تقي . مهنته صنع أحذية النساء . وكان من عادة هذا الناسك زيارة أخيه بين الحين والحين . وكان كلما زار أخاه يحضر له كمية من اللبن يكون قد حلبها من عنزة له يقتنيها بجوار صومعته في الجبل .

وكان لصفاء سريرته وطهره وعفافه وفضيلته أن وهبه الله سبحانه وتعالى .. كرامة .. وهي أنه إذا وضع اللبن في كيس من القماش .. لا ينفذ اللبن السائل من القماش ويبقى سائلاً في الكيس .

وذات يوم . كان يزور أخاه كعادته ... فلم يجده في دكانه . فجلس ينتظره . وكان عندما يصل يعلق الكيس المليء باللبن بمسمار في الجدار ، ... فعلقه ... وجلس يعد تسبيحاته على مسبحته .

وبعد برهة من الزمن ، حضرت سيدة بارعة الجمال ، لها حذاء في الدكان .. ورجت الناسك أن يناولها الحذاء ويساعدها على وضعه في قدميها ... وما كاد أن يتلمس ساقيها وهو يساعدها على لبس الحذاء حتى سمع صوتاً جعله ينظر إلى كيس اللبن فوجد اللبن يتسرب منه ويتساقط على الأرض .. علم عندئذ أن كرامته زالت .. فارتعب وراح يبكي مولولاً .. وعندما حضر أخوه وعلم بما حدث قال : آه .. أخي لا بد أنك تدنست .. ولم يشفع لك طول تعبدك ولا نُسكك . وظني أن الشيطان أغراك .. فطاوعته .. وراودتك نفسك عن أمر .. أفسد عليك سريرتك ولوث طهرك وتقواك فوقعت في الشرك .. فاستغفر ربك إنه كان تواباً .. فرد عليه الناسك والدموع ملء مآقيه .. أنت أفضل مني لأنك مارست الحياة وتدربت على مقاومة مغرياتها .. فرد عليه أخوه قائلاً : إن الفضيلة سلوك . والخطيئة انحراف .. وليست الفضيلة أن نتباعد عن ممارسة الحياة بل الفضيلة هي إيجابية الإنسان بأن يخوض تجاربها ويتمسك أثناء ذلك بأهداب التقوى ومقوماتها .. ومكافحة إغراءاتها . والاعتراف بالخطيئة فضيلة .. وخصوصاً إذا كانت التوبة الهدف والاستغفار الوسيلة .. والله غفور رحيم ...

أقر أنا الموقع أدناه بأني :

مارست الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وارتفاعاً في ميادين العلم والمعرفة .. ولكن لم يكن من قدري أن أمارسها في جانبها المظلم .. إلى أن وجدت نفسي في وادٍ من أودية الشيطان .. فكانت التجربة .. ولكل جواد كبوة .. ولكل عالم هفوة ... والاعتراف بالخطأ فضيلة ... والاستغفار الوسيلة .

ها أنا ذا أخوض هذه التجربة ثانية عن طريق حكايتها .. بأسلوبي الخاص ... عامداً متعمداً ألا أخفي من مشاعري شيئاً .. وأن أجعل للخيال فيها نصيباً مع كثير من التغزل والمزاح . لأنهما أجمل فواكه .

المقر بما فيه

تعقيب

المـــزاح ..

إن الذين فقّهوا الإسلام . كما ينبغي .. لا يعتبرونه ديناً بالمعنى الشائع بين الناس لكلمة « دين » وإنما يرونه حضارة كاملة تتناول الدين بروح الدنيا والدين .. ولعلّ من أصدق ما يقال إن الإسلام ينكر المزاح حين يكون حقاً .. إذ المزاح له جانبين .

... جانب يعرض المازح لما يخف به مرونة في موازين الكمال ... وجانب آخر ينفي عن الحياة الإنسانية مرارة الجد . ويمهد بين يديها سبيل التخفيف عن أثقال الحياة حتى يستطيع الإنسان الجاد الجاهد أن يداوم نشاطه بغير ملل أو ساعة ... وهذا هو جانب الحق في المزاح .

ومن هذا الجانب الكريم نظر إمام أهل الحديث سفيان الثوري . وقد قال له أحد جلسائه : إن المزاح هجنة ... فابتدره سفيان ـ رضي الله عنه ـ يقول له : بل إنه سنة . لقول رسول الله ﷺ « إني أمزح ولا أقول إلا الحق » .

ثم مضى الإمام يقول : وقد جاء في الخبر أن رسول الله ﷺ . قال ذات يوم لسيدة من نساء الأنصار في المدينة « إلحقي زوجك فإن في عينه بياضاً » فما سمعت الزوجة بذلك الخبر حتى أصابها الرعب فانطلقت إلى زوجها تستجلي خبره .. فلما رآها سألها ما شأنها ؟ فأخبرته الخبر .. وأن في عينيه بياضاً .. فتبسم وقال لها : « نعم إن في عيني بياضا لا سوء فيه » وما هو إلا مزاح حق من رسول الله ﷺ .. وكل إنسان في عينه بياض .

ولعل الذين يؤثرون أن يزدادوا يقيناً بأن هذا المزاح الذي لا ينتقص المروءة لا بد منه للحياة في بعض الأحيان حتى يتخفف به الناس من أثقال الجد حيث يكون الإفراط فيه داعية إلى خمود الهمة والنشاط .

والفضل في هذا المقال للشيخ الباقوري ـ رضي الله عنه .

اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ...



المقدّمة

اعامِل الحياة وَلا تعامِلني

من أنا ؟

أكتب هذا أعاود فيه ذكريات مضت .. في عمري الذي قدر لي أن أتعامل فيه مع الدنيا معاملة جعلتها لي طيعة ، فسعدت ، وكوفئت بالحصول على كل رغباتي المتواضعة .. فشكرت الله فأزادني .. عرفت الفرق بين الثراء المادي والغنى ، ففضلت الاستغناء عن الاستثراء ووضعت لمنافع المعيشة مقاييس غير المقاييس العادية ، وفضلت أن أخوض ميادين المعرفة ، وتلذذت بالكفاح في سبيل الحصول عليها ... وكذلك فضلت العطاء عن الأخذ ، وفكرت كثيراً من البداية في معنى السعادة .. وعرفت ، وتيقنت أنها الحرية حرية الفكر ، وانطلاقه ، قبل حرية الجسد وأنها سيطرة الفكر على الجسد .

بدنك حصانك ان صنته صانك :

في تصوري .. أن الفكر يركب الجسد .. كالفارس والفرس ... إما أن يركب الفرس أو الفرس يركبه .. إما يحكم الفرس او الفرس يحكمه ... والفارس الحكيم هو من يحب فرسه ، ويعنى بها ، ويروضها ويطوعها ويحميها ، وينمي قدراتها .. ولا يسيئها باجابة رغباتها ، ويدربها ويسمو بها ... والواقع أن لجسد الإنسان عليه حقاً . ماذا يكون حال الفارس ، اذا رفضت فرسه حمله عند حاجته لذلك ؟ .. ماذا يكون حال الفارس اذا سمنت الفرس وترهلت أثر كسل ورفاهية ..

الانسان فكر قبل كل شيء :

الفكر قدرة هائلة .. ومعركة الحياة الحقيقية قائمة بين الفكر والجسد ، فاذا تحكم العقل والحكمة ، وسيطر الفكر السوي ، أصبحت الحياة متعة ، وصارت السعادة في متناول اليد ... ورغبات الجسد تولد الحسد والبغضاء ، والكراهية والإثرة وحب التملك وغير ذلك من الرذائل .. ورغبات الفكر السوي تولد محبة للحقيقة والمعرفة . وحب المعرفة ... هو الفلسفة (نقلت كلمة فلسفة عن الإغريقية ... «فيلسوفي») ـ فيل بمعنى محبة وسوفي بمعنى المعرفة والفيلسوف هو المفكر الذي يبحث وينقب بفكره في أعماق الحياة ومقوماتها والغرض منها . وهو محب للمعرفة .

أنا عمري وعمري أنا :

عمري هو وجودي في الحياة . وحدة العمر اليوم ، واليوم ساعات . أربع وعشرون ساعة . دعني أفكر ... كم نصيبي الحقيقي منها ؟ نصيبي الذي في يدي الذي أملكه ، الذي أعيشه وأتصرف فيه كيفما أشاء ...... نصيبي الذي فيه حريتي .. التي هي في الواقع ينبوع سعادتي ...

الحياة ثلث العمر فقط :

تستلزم صحة الجسد ومتطلباته الضرورية ، وقتاً يقدر لها من اليوم ثلثه ،أي ثماني ساعات (ساعات النوم وما يقضى من وقت في الضروريات الأخرى) .

وعلى كل إنسان أن يسعى ويعمل ، ليتمكن من كسب ما يكفي لإيجاد مأوى ، وغيره من مأكل وملبس .. وغير ذلك من مستلزمات الوجود الجسدي ويقدر ما يلزم لذلك في المتوسط والمعتاد . بثماني ساعات .. أي ثلث ثان من اليوم .. ويسعى الإنسان لتقليلها ما أمكن وهكذا يتبقى الثلث الأخير . وهذا ما أملكه هو عمري .. فاذا اغتصب مني أو ضيع أو فقدته .. لا يتبقى من عمري شيء .. وذلك لأنني في هذا الثلث الأخير أمارس بحريتي التي هي معنى حياة كل انسان له إنسانيته في الوجود ، أمارس فيه ما أحب وأشتهي أعامل الدنيا وتعاملني طبقاً لرغباتي ، وحسبما يستوحيه فكري ومعرفتي وقدراتي دون قيد أو شرط خارج نفسي .

الحياة حركة ودأب وأداء :

الغريب في الحياة ، أنها دأب وحركة عمل لا ينقطع ، ولا يمكن لكائن حي أن يمر عليه زمن دون عمل بجسده أو بفكره ، والركود والموت سواء . هكذا حكمت الطبيعة على الحياة .. فالعضو الذي لا يعمل لا بد له أن يضمر وينتهي . ولهذا لا يتيسر لإنسان أن يركد فيما تبقى له من اليوم ... بل هو مجبر ومضطر بطبيعة الحياة ، للقيام بأداء ما ... يمارسه بحريته .. فيكون مما يحب ويشتهي القيام به مهما كان نوعه . فإن كان عبداً لشهوات جسده انكب على الشهوات ينتهبها ويتغلغل في مغارز الشرور والأذى ، وإن كان فكره وعقله مسيطران عليه قام بأعمال مرشّدة ذات نفع وفائدة لنفسه وللمجتمع .

اليوم يومان والعمر عمران :

إذا عشق الإنسان عملاً وأداه بأمانة وشغف ، أتقنه وطوره ، فإذا كان هذا العمل من الأعمال التي لها منفعة للناس ... يزيد الطلب عليها فترتفع قيمتها .. سواء أكانت هذه القيمة أدبية أو معنوية أو مادية ، فاذا تهيأ الانسان واستعد لكسب معاشه في الميدان الذي يحبه بشرط لياقته لهذا العمل ... قضى الثلث الثاني من يومه في عمل يحبه فيمتلكه ، ويصبح هذا الثلث من اليوم من عمره يمارس فيه ما يحبه ويهواه .. وهكذا تصبح الثماني ساعات الثانية والثماني ساعات الثالثة أي ثلثا اليوم عمراً يقضيه حسبما يهوى ويعيش عمره فيها .. وهكذا تصبح حياته كلها مثمرة ، يومه يومان ، وشهره شهران ، وسنته سنتان ، وعمره عمران ... !

أوقات الفراغ :

الواقع أن هدف البشر على اختلاف أنواعهم ، هو زيادة الرفاهية ، لتوفير الساعات التي يملكها الإنسان .. التي يعمل بها بحريته المطلقة .. ويقضيها كما يشتهي . ويطلق عليها خطأ ... (أوقات الفراغ) وأسميها أنا .. أوقات الحرية أوقات العمل الجميل المحبب إلى نفسي ... ويسميها بعضهم أوقات الرياضة الجسدية .. الفكرية .. وقت ممارسة الهوايات ... فيا حبذا لو كانت الهوايات التي نحبها هي الأعمال التي نكتسب منها معاشنا . – الفرق بين الحرية والعبودية بأنواعها هو أن نملك حياتنا نتصرف فيها كيفما نشاء أو لا نملكها . هذا في الواقع هو أن نكون أو لا نكون .

ماهية السعادة :

سر السعادة في رأيي .. هو أن يمارس الانسان حياته فيما يحب ويهوى فان أعد الإنسان نفسه في المجتمع ، بحيث تكون وظيفته فيه أداء أعمال يحبها فيقضي ساعات الكسب في هناء . وكثيراً ما ينبغ ويتفوق من يسعده الحظ في هذا فتمتلئ حياته باللذة الفكرية ، والتفوق فيزيد البشرية بفنه ، ويثري الحياة بالابتكار والخلق والمتعة . وهذا لعمري .. ما حققته في حياتي .. فإني أعشق عملي ... أمارس الحياة كما أرغب وأحب وأشتهي. هذا سر حيويتي ونشاطي وسعادتي وصحتي .. سر عظيم أهديه للقارئ يسعد به نفسه وأولاده ووطنه .... .. (الله يديك الصحة .. باسم الله ما شاء الله ربنا يديم عليك الصحة) ... هذا ما أسمعه دائماً ، كلما قابلني أحد معارفي أو أصدقائي الذين يعرفون سنّي ، ويلاحظون نشاطي وسرعة حركتي .. وهم بذلك يعبرون عن غبطتهم

بصحتي البادية أو تصرفاتي الشابة .. التي لا تتناسب مع عمري .. فلا يسعني الا أن أبين سروري ، وأعدد ما عندي من قدرات جسدية وذهنية .. (يا أخي والنبي ما تحسدش نفسك) ... فأجيب ضاحكاً .. وأما بنعمة ربك فحدث ... (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

السر العظيم :

كثيراً ما يسألني الناس .. عن سر احتفاظي بسمة الشباب .. الواقع ان الراحة الذهنية والقناعة هي الأساس .. والنشاط يولد النشاط ، والخمول يعطل أجهزة الذهن ، وأجهزة الجسد .. والعضو الذي لا يعمل يضمر .. وهكذا ما يحدث للأجهزة الحيوية في الإنسان ، سواء أكانت عضوية كالعضلات أو ذهنية كالذاكرة والنشاط الفكري فالتفاؤل والحب والابتسام يولدان النشاط وهدوء البال ... الطمع والإثرة والكراهية تفرز السموم في الجسد ، وتقصف العمر .. وتقود الإنسان الى وادي الظلام . اضحك تضحك لك الدنيا ..

وما سبق ، يوضح كيف أن ما وصلت اليه من هذا الأمر ، الذي أغبط عليه ، وصلت اليه بمنطق سليم وبصدر رحب وتجنب التعصب الأعمى وباستغلال حياتي كلها فيما يمليه علي فكري ، الذي رشدته بالمعرفة والتجربة والتسامح والحب ... وما يمليه علي عرفاني بجميل وطني علي ... كما أنني زهدت عن توافه الأمور التي يتنازع عليها قليلو الحكمة . وسوية الفكر وحمدت الله قانعاً لا أبغي المزيد .. وهذا من رضى المولى .

نحن نملك الحياة فلنطوعها

توفيق من الله :

منذ بداية حياتي العملية ، كنت أتخير الأعمال التي أعشق أداءها دون النظر الى نتائجها المادية ، وكان يخيل لي أن العمل الذي أعشقه يستحق أن أدفع مقابل أدائه بدلاً من أن أقتضي عنه أجراً ... لهذا كان عملي متقناً دائماً .. وكنت لا أشعر بأداء أعمالي هذه بمرور الزمن أو التعب .. وعندما كنت آوي الى فراشي يحل علي النوم بخدر جميل . أحلم فيه بهواياتي ولست أدري كيف ولماذا كنت سعيد الحظ موفقاً دائماً في اختياري لأعمالي . ولعل ذلك كان لصدق قصدي وأمانتي في إجابة رغبات أعماقي دون أن تغريني الماديات والتطلعات البشرية والرغبات الجسدية . وقنعت بحق . وتحققت من عدم جدوى وزيف أشياء كثيرة ، يتهافت عليها الناس ، فتشغلهم عن الجمال الذي يملأ الطبيعة والدنيا وعن معنى الحياة الحقيقية .

العوينات الوردية :

قضيت عمري منذ أيام الدراسة ، أقدس أوقات هواياتي وأوقات رياضاتي ، وأحترمها أكثر من احترامي لأي أوقات أخرى . فكنت أحرص عليها حرصاً شديداً . فتعلمت فيها الكثير . مارست فيها الحياة كما أشتهي وأهوى .. وكان والدي رحمه الله عوناً لي في ذلك ، فلم يضطرني في حياتي أو يدفعني لعمل لا أرغب فيه أو لا أحبه .. بل نمى في هواياتي ، وشجعني على طلب المعرفة ، وتزوق ما في الدنيا من جمال ، فألبسني عوينات ذهبية وردية .. رأيت الدنيا خلالها زهوراً وجمالاً وعفة ، وعلمني كيف أطلق لخيالي العنان . وتمثلت بقول الشاعر :

كم تشتكي وتقـول إنك معـــدم　　　والأرض ملكك والسما الأنجـــم
ولك الحقـول وزهرهـــا وأريجها　　　ونسيمهـــا والبلبـــل المترنـــــم

رحلتي خلال عمري :

تدرجت من تلميذ الى طالب بالجامعة ، الى مهندس الى مدرس الى أستاذ في

الجامعة ، .. وحاولت ألا أضيع ساعة من ساعات عمري .. فكنت أناوب العمل الجسدي بالفكر وبالرياضة ، وبالقراءة وبالرسم ، وبالتأمل والمناجاة ، وبالكتابة .. ثم بمعايشة الناس على اختلاف أنواعهم ، وهكذا كان هذا التنوع والتناوب سبيلاً لاستمراري دون هوادة في ممارسة الحياة في ثلثي النهار اللذين ملكتهما ..

خططت حياتي بمنطق سليم .. ونظمت أسرتي ، بحيث أكون قد أنهيت مسئولياتي الأسرية ، والتزاماتي نحو أفرادها .. عند بلوغي سن الستين ..

ولما بلغت الخمسين من عمري .. بدا لي شبح مخيف .. هو حرماني من العمل عندما أبلغ الستين ، كما هو متبع في بلادنا .. وتصورت نفسي منضماً الى جمع الشيوخ الذين يقضون وقتهم جلوساً في المقاهي ، ينتظرون القدر المحتوم . فلا يمهلهم عزرائيل ويعاملهم بالحسنى أو بالسيئة كما يتراءى له .. فكأنهم ينتحرون .

الانتحار جريمة يرتكبها العاجز أو المجنون :

لا ينتحر الا الكافر بنعمة الله .. آليت على نفسي أن أتجنب سلوك هذا الطريق الممقوت ، وأعددت العدة لاستقبال هذه الفترة من العمر بعد الستين ، التي .. يسيئون اليها بتسميتها سني المعاش ... أي سن البطالة والركود ، والإحسان على الغلابة الموجودين في هذه الفترة ينتظرون الموت .. فانشأت لي استديو أو مرسماً أو مكتباً في شقة صغيرة « محندقة » أي « مدملجة » في عمارة بشارع قصر النيل بالقاهرة بالقرب من مسكني في عمارة اللواء .

الركن السعيد :

كنت طوال حياتي أتمنى أن يكون لي مكاناً خاصاً أنفرد فيه بنفسي أمارس فيه هواياتي المفضلة ... وهي ابتكارات جديدة في عالم الفن ومستلزمات المعيشة .. أستعين فيها بما خبرته وعرفته في ميدان الهندسة والعلوم والفنون .. لا لغرض سوى اشباع رغبتي في الخلق والابتكار .

في الصبيانية براءة وجمال :

الواقع أن هواية الخلق والابتكار وصنع الألعاب والأجهزة الغريبة ، يتعشقها كل صبي ، ولعل أنه لا يزال في بقية من الصبيانية ونزواتها .. (سمعت أن كثيراً من المفكرين والفلاسفة يرتدون إلى صبيانيتهم ، وينطلقون يفعلون فعال الصبية البريئة .. بين وقت

وآخر) . وأنا أعجب بتطلعات الصبية وبساطتها وبراءتها ولعبها وشقاوتها .. وهكذا كنت أرتد لماضي الصبياني ، عندما أكون منفرداً بنفسي . في ركني السعيد ، وأقضي فيه كل ما يمكنني استخلاصه من وقت ، وعشت السنوات العشر التي ما بعد الخمسين من عمري في غمرة من المتعة الفتية ، وصبرت أترقب بفارغ الصبر انفكاك عقالي عندما أبلغ الستين ..

وبلغتها واستقبلتها بسرور وغبطة .. لأني كنت قد انتهيت من إعداد ما يلزم لبداية أسعد وأهنأ وأملأ وأطيب وأثمن فترة من فترات العمر ، حيث الحرية المطلقة .. حرية الفكر دون التقيد ببرنامج يفرض علي ، حرية العمل في أي وقت أشاء وبالأسلوب والكيفية التي أبغيها .. وتلك لعمري هي حرية العطاء لا حرية الاقتناء .... .

جـــزاء سنمار

وصلني الخطاب التالي وأنا على عتبة هذه الجنة التي أعددتها :

جامعة القاهرة

الاسم ... حسن حسين فهمي
الوظيفة ... أستاذ بكلية الهندسة
المذكور أعلاه بلغ السن القانونية في يوم .... ١٠ أبريل ...... الخ .
وتقرر فصله من الخدمة وقرر له معاش قدره .... الخ .

التوقيع ....   التوقيع ....

وكان مكتوباً على ورق رديء غير مشذب الحواف . مغلق بدبوس مثني بإهمال معوج . قذر المظهر . غير مغلف في مظروف . ومرسل بالبريد . لم أقرأه أولاً ظناً مني أنه مرسل من مكان غير ذي أهمية . وموضوعه تافه كتفاهة مظهره .. فأحجمت عن قراءته لمظهره البذيء ... وبعد أيام عندما نزعت عنه الدبوس وقرأت ما جاء فيه كدت أصعق .

ما الفرق بين هذا الخطاب . وخطاب يوجه الى منحرف تقرر رفته لجريمة أتاها ؟ هل بلوغ السن القانونية جريمة ؟ لماذا أرسل الخطاب إلي ؟ وإذا كان ما جاء فيه ضرورياً ألا يكفي وضعه وهو بهذه الصيغة في ملف الخدمة في الأرشيف ... وكفى . وما أهمية اخطاري بما يشبه الانذار بالسجن أو الوفاة ؟ أهي رغبة في الاساءة .. أو ماذا ؟

لا نجني من الشوك العنب :

أخذت أفكر في هذا الأمر .. وعرفت لماذا ينحرف الموظف الذي ينتظر أن تهدر كرامته في أي وقت .. وطبيعي لا نجني من الشوك العنب . فاني لو كنت قد قمت بخدمة كائن من كان . وربيت أولاده . وثقفتهم . ووضعتهم على القمة .. أيكون

هذا جزائي .. توجهت فوراً لوزير التعليم العالي في ذاك الوقت ، أريته هذا الخطاب ، فكانت إجابته لي .... (ما تزعلش يا حسن بيه .. احنا نقدر نمد لك الخدمة ..) .

عذر أقبح من ذنب :

وهنا ثرت ثورة عارمة (.. وقلت له إنني جئت محاولاً أن أحميه وأحمي غيره من موظفي الدولة .. فاذا كانت معاملة الاساتذة الذين يربون جيل المستقبل بهذه الصورة فماذا يكون مآل غيرهم ، من عامة موظفي الدولة ... وما أنا الا من السابقين ، وانتم من اللاحقين ... لا يا سيدي .. ما الذي يمكنك أن تفعله لرد الإساءة التي لحقتني ... هل ستأمر بسحب هذا الخطاب ؟.. ان هذا الأمر قد انتهى بالنسبة لي ، ولا يمكنك أو يمكن لغيرك رد هذه الإساءة .. انما حضرت إليك لتعمل ما يمكنك عمله ، حتى لا تتكرر هذه الإساءة مع غيري من الذين سيحالون على مقعد انتظار النهاية المحتومة ... يا سيادة الوزير .. ولم أحضر لأستجدي حضرتك .. اشفاقاً على من سيرتكبون جريمة بلوغ السن القانونية بعدي) وانصرفت غاضباً ..

ولكنني تذكرت أن هذا العمل ليس من فعل الوزير .. بل هو من الروتين البالي الذي لا يجرؤ أن يغيره أحد . أو يحاول تعديله .. وأن من سبقوني وغالبوا الحياة وارتكبوا جريمة الاستمرار فيها بعد ميعاد موقوت .. لا بد أن أسقط في أيديهم فانطلقوا يلعنون وفقدوا الأمل في أن يعرف أحد بجميلهم .. فانزووا ..

ولكنني رأيت من واجبي أن أثور .. وثرت ثورات عارمة في الجرائد والإذاعة والتلفزيون والجامعة ولكن هيهات .. لم تحرك الدولة ساكناً ، واكتفت بمنحي وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى .. ذلك الوسام الذي لم أطلبه لنفسي يوماً ، أو أرغب فيه ، ولا يمكن أن يكون تعويضاً قيماً عن السنوات الطوال التي قضيتها في تربية أجيال من المهندسين ، هم عماد المدينة الحديثة في البلاد الآن ... وكنت أفضل أن يوجه لي ولأخواني شكر وامتنان ، لما قدمنا به من خدمات عوضاً عن هذا الوسام .. ولم أستطع أن أوضح للمسئولين أن أسباب ثورتي وشكواي لم تكن إلا دفاعاً صادقاً عن الذين سيبلغون يوماً ما سناً يحكم عليهم فيها بالعجز وانتظار زيارة ملاك الموت أي ما تسميه الدولة سن المعاش .

وكنت أنبه دائماً إلى هذا الأمر حتى لا يساء من بعدي إلى من يحالون على المعاش ، والعجيب المأسوي .. أنه لا يزال كثيرون من الذين يشغلون كراسي المراكز المرموقة

ذات الهيلمان والسطوة . غافلين عما ينتظرهم .. فيسحب الكرسي من تحتهم فيسقطون على الأرض الواطئة ، فتنكسر عصاعيص ظهورهم . أو يطردون شر طردة فيموتون من الكمد والحسرة والبطالة .

في بيتنا نغم وحب وألفة :

حبنا يشمل كل شيء حتى الحيوانات . أعيش مع زوجتي « خديجة » وابنتي « فريدة » وزوجها « علي » . وهكذا نقتسم فيما بيننا تكاليف الحياة ومشاكل اجتياز مفاوزها .. نتمتع حقيقة بمعيشة بسيطة هنية رغدة .. يغبطنا أهلنا وأصدقاؤنا ومعارفنا على طريقتنا في معاملة الحياة ... والزهد عن المظاهر .. وعن المغالاة في قضاء حاجاتنا .

.. نحب الحيوانات حباً جماً ، « لفريدة » كلب .. أو كليب صغير الجسد من نوع خاص لا يكبر . من نوع الكانيشن أي « البودل » بالانجليزية اسمه « اسنووي » أي أبيض الثلج ، ولزوجتي التي يسميها الناس جميعاً « مامي » أي « أمي » كلب أصغر حجماً من صنف مولد جديد ، من النوع « البودل » أيضاً رمادي اللون .. وهو كاللعبة تماماً ، ويسمى نوعه « كلب لعبة » أو « توي دوج » (بضم التاء وسكون الياء في توي) . لا يزيد حجمه أبداً عن هرة .. ولهذا الكليب قصة .. أهداه معجب لفريدة في لندن ، وذلك في أثناء جولة من جولات الفرقة . وهذا الكلب مؤصل له شهادة مسجلة ، فيها تنسيب إلى الطبقة السابعة من الجدود ... وهو من الأنواع المستولدة علمياً . كما أنه عضو في نادي الكلاب الأصيلة في انجلترا .. التي ترعاه ملكة بريطانيا . واسمه مسجل أيضاً .. « ولنجتون سيلفر بوبن » ونسميه بالعربية « بكرة فضة » . وهو جميل جداً وفي منتهى الذكاء . وعلمنا أن ثمنه ثلثمائة جنيه استرليني .. يكاد من ذكائه أن يفهم كل ما يقال .. بطبيعة الحال لم نشتره . بل كان كما ذكرت هدية ... ولا أدري كيف أن إنساناً يدفع هذا الثمن في كلب . وعهدنا بمثل هذه الحيوانات ، كالهرات ، والكلاب عندنا بلا ثمن .. بل يكفي أن تلج البيت وتسكن فيه ، وتصبح تبعاً لأهل هذا البيت ... ولا يشتري الناس من الحيوانات الا ما يؤكل أو يمتطى ! ! (الا اللي عندهم فلوس كتير) . ولم يخلُ بيتنا قط من حيوانات أليفة على اختلاف أنواعها . وكذلك الطيور ، فلقد عاش في بيتنا عدد لا بأس به من القطط ، ومن الكلاب عدد آخر ، غير السلاحف والأرانب الأليفة والفئران البيضاء ، والعصافير والحمام .. وهكذا فإننا لا نحس أن المنزل بيت أو مسكن ، إلا إذا عاشت معنا حيوانات أليفة جميلة نبادلها وتبادلنا الحب والألفة .

منزلنا بيت :

نحن عشريون (بكسر العين وفتح الشين وكسر الراء) .. أي نحب عشرة الناس . البيت لا يخلو أبدا من الموسيقى والتصوير والكتب . وهو كذلك ناد اكثر منه بيت مليء بالضحك والابتسام . الحديث فيه دائما ممتع . يتناول العلوم والفنون والآداب والانسانيات . لا مكان فيه للمجادلة . النقاش فيه بنّاء بتسامح بسد الطريق على الجدل والمهاترة . مكتظ بالكتب والموسوعات والفكاهيات .. ويطلق عليه أصدقاؤنا ومعارفنا اسم « البيت » وهو منتدى الحب والمعرفة ، وهو مفتوح لكل أصدقائنا في أي وقت ، يدخلونه دون احتراز وكثيراً ما هبط علينا أصدقاؤنا في ساعات متأخرة من الليل .. وحدث مراراً أن أفقت من نومي لقضاء حاجة في ساعات أواخر الليل لأجد أصدقاءنا في ندوة مع أحد أفراد العائلة في المستشرف أو في المكتب ... وهذه حياة اعتدناها . ونعشقها وتسعدنا . ولعلها لا توافق أو ترضي الكثيرين .. ولكن عندنا الحياة تفاعل وتعايش مع الناس في حرية ونرفض ما لا يتلاءم مع منطقنا في الحياة ، ما دمنا لا نؤثر في ذلك على أحد بغير ما يرغب أو يحب .

استديو السحر والمتعة

السباحة في سماء الخيال :

كما كنت قد أعددت العدة لاستقبال فترة العمر التي انطلق فيها من قيد الوظيفة ولو أنني كنت أحبها . انطلق حتى لا أتقيد بميعاد أو ببرنامج ، أو غير ذلك من المستلزمات ـ الوظيفية . فهيأت استديو أو مِفَن (بكسر الميم وفتح الفاء) .. (دعني أصفه بطريقتي الخاصة) .

إذا دخلت باب العمارة ١٣ شارع قصر النيل ادع خيالي يصور لي أنني دخلت مطار القاهرة ، وعندما أدخل المصعد ، أتصور أنني دخلت الطائرة ، وإذا وقف المصعد في الدور الثالث اتخيل أن الطائرة وصلت .. في أي مكان أتخيله أيضاً .. لندن .. باريس .. الدار البيضاء .. كلكتا .. أسوان .. دمشق .. الإسكندرية .. وأنني سأدخل بيتاً لي هناك ، فاذا فتحت الباب بمفتاحي .. ودخلت في شقتي ..أضاءت الأنوار أوتوماتياً وانطلق صوت موسيقي ، وهب على أريج عطر .. وتبدأ الغجائب واحدة تلو الأخرى .. التي استعملت في صنعها وابتكارها آخر صيحات في الألكترونيات والميكانيكيات .. وغيرها .. وهذه الأشياء والابتكارات عبارة عن أجهزة تركيبات أوتوماتية ، تحل مشاكل الفراغات – والمساحات والفتحات التي بالشقة . وكذلك مشاكل المعيشة والخدمة والصيانة وصلاحية المكان للأداءات المختلفة .

صممت هذا المكان وما فيه بالرغم من صغر مساحته التي لا تزيد على ثمانين متراً مربعاً ليحتوي كل احتياجات هواية التصوير الفوتوغرافي ومعمله .. والتصوير بالزيت والألوان – واحتياجات كهربية وألكترونية وميكانيكية للأجهزة .. ومكتب دراسة ومطبخ ومعمل كيمياء ومكان للأكل وللجلوس وللنوم ، وللندوات .. بحيث تتغير الأشياء أوتوماتياً فيصبح المطبخ معملاً والمكتب مرسماً والدولاب سريراً والأريكة ورشة والواقع انني فخور جداً بهذا الاستديو .

الاكتفاء الذاتي :

أثثت هذا المكان بأثاث صنعته بنفسي ، وكل ما فيه من أجهزة وآليات من

تصميمي وصنعي . ولم يكلفني الا اليسير وزينته بلوحات رسمتها شخصياً ، كما رتبته بحيث يناسب كل حالات الأعمال الفنية ، الندوات ، وغير ذلك .. وقصدت فيه أن ينفصل ما أمكن عمًا حوله .. ولو تخيلياً فأغلقت نوافذه ، وحجبتها بالستائر بحيث يحس من فيه بأنه في مكان وحيد منفصل .. .. لا ضوضاء ولا أصوات ولا أضواء غير المنبعث من داخله ... حتى يتمكن أن يصور لنفسه ما شاء خياله .. مكيف الهواء بأجهزة ومعدات يمكن بوساطتها خلق أي جو من الأجواء التي تتناسب مع تخيلات الجالسين في المكان .

ان شكرتم لأزيدنكم :

فيما بين بيتي وعائلتي ، وبين هذا الأستديو أو المفن وبين أعمالي المختلفة في التدريس ، أو الاستشارة الهندسية ، وبين النوادي التي أشترك فيها ، وبين الدعوات والرحلات والاصدقاء والأدباء المحبين وكذلك حيواناتي الأليفة .. أنا سعيد في صحة جيدة في نشاط شاب في الأربعين في شهرة أخجل منها ، لعجزي عن التعرف على كل من يعرفني ، لا أطمع في شيء البتة ..وأملك ناصية حياتي، راض كل الرضى ، لا أطلب من الله عز وجل الا دوام هذه النعم ، فأنا غني الا عن رضى المولى عز وجل ...

رحلة في بحر الماضي

من أكثر الأوقات التي كنت أقضيها في الأستديو أو المفن الذي وصفته .. عندما أكون وحدي .. تلك الأوقات التي تذكرني برحلاتي وحوادث الماضي السعيدة ، فاجتر لذاتها وأعيشها ثانية .. كلما استوحشت الحياة .. وكنت استحضر هذه الذكريات وتفاصيلها بقراءة مذكراتي ، وبفحص الصور الفوتوغرافية وبالاستماع الى شرائط مسجلة كنت أداوم على تسجيل الأحداث عليها في رحلاتي وغيرها ، ومما يعن لي تسجيله من خبرات وأحداث وخواطر .

ذات مرة . في أحد هذه الأوقات الممتعة. كنت أستمع إلى شريط .... يظهر أنني كنت سجلته من سنوات ونسيته ، ولم أستمع إليه بعد ذلك .. جاء فيه ما يلي :

يا عيني عليك .. كان لساني ينطق دون إرادة مني بهذه العبارة عندما كنت أستيقظ من نومي كل يوم ، وأقف أمام المرآة أحلق ذقني ، بعد أن أتمعن في قسمات وجهي وما عليه من سمات .. وأرى علامات الصحة والرضا .. أزفر بآه فرحة دون سبق إصرار وأقول بحنو وغيبوبة وأنا أنظر في سحنة الرجل الذي يواجهني في المرآة «يا عيني عليك» .. كنت أقولها بتكرار وكل يوم دون أن أدري إلى أن نبهتني زوجتي الوفية إلى ذلك . وبعدها صارت هذه العبارة لازمة من لوازم طقوس الصباح وتحيته كل يوم .. (وهذا طبعاً نوع من النرجسية – أي عشق الذات – والعياذ بالله) . ولكني بعد أن أتممت رحلتي وعدت إلى بيتي ووطني ووفاء زوجتي وبر ابنتي وحب أصدقائي ومعارفي ، كنت متأثراً جداً من أشياء وأحداث وأشخاص كثيرين عايشتهم ردحاً من الزمن خارج مصر ..

« عزَّة أو عبلة » التي لا تحتويها الصفات .. كما تغنى عنترة بن شداد « بعبلته » .. « شكري » الذي استغفلني وأساء الي ..« ماريانو » الذي حسبني شريكاً في مخططات سيده المريبة وأخيراً أنا .. أنا ذو التجارب والحكمة .. أقوم بما قمت به دون علمي ورغبتي . فأسيء الى نفسي ، وأسيء الى أحبابي وأهلي وحتى الى « عزة »...

استيقظت من نومي في صبيحة أول يوم أعود فيه الى بيتي بعد رحلتي القاسية وتوجهت إلى الحمام . ووقفت أمام المرآة متحسساً ذقني وبلا إرادة أو تركيز .. زفرت آهة موجعة مخاطباً الرجل الذي يواجهني في المرآة قائلاً ..

أساء الي في حياتي أشخاص كثيرون غير أن أكثرهم اساءة لي . وأشدهم قسوة واكثرهم غفلة . هو أنت أيها الساذج .. « فيا عيني عليك » .

استنسيت .. فنسيت ولكن هيهات

قفزت الى مخيلتي أحداث مرت أمامي ذكرياتها كأنها شريط سينمائي .. وكنت قد تناسيتها لما فيها من الآم فنسيتها .. فارتدت الى ذاكرتي أحداث تلك الفترة من حياتي استرجعت هذا الماضي بتفاصيله ...

ومضت عليّ أيام بعد ذلك لم أتمكن من التخلص فيها مما علق في ذاكرتي من هذه الأحداث ، فعزمت على سردها لعلها تترك مخيلتي إلى الورق الذي تكتب عليه .. فاستريح منها . هذا هو ما دفعني الى كتابة هذا الكتاب .

الفصل الأول

دخل الشيطان بيتنا

دعوة للخروج من دار الصفا

سعى ونجح ثم طار وارتفع :

كان المهندس شكري واحداً ممن تخرجوا في كلية الهندسة جامعة القاهرة على يدي . ونال درجة الدكتوراه تحت إشرافي ، ولم تنقطع صلته بي بعد تخرجه . سافر الى المانيا وتزوج بابنة رجل من رجال الأعمال والمصارف الألمان .. ثم رجع الى مصر ومارس الأعمال الحرة والمقاولات ، واتسعت دائرة نشاطاته . وأنشأ عدداً من المصانع الصغيرة ثم أنشأ بعض الشركات الصناعية الناجحة .. ولسبب أو لآخر أممت الدولة شركاته . فغادر البلاد .. ولم يلبث حتى صار من كبار رجال الأعمال ، ثم من أصحاب الملايين

اللي عنده حنة يحني ديل جحشه :

كان شكري كلما رجع الى مصر .. يزورني ويودني جداً عرفاناً بجميلي عليه ، وكان دائماً يدعوني وزوجتي لسهرات يقيمها خصيصاً لنا .. يقيمها ببذخ واسراف لا يعجبانني وكان يملك يختاً نهرياً فاخراً .. كثيراً ما يقوم فيه برحلات نيلية صاخبة .. وهذا اليخت معد إعداداً خرافياً بمعدات وأثاث فاخر مليء بأطايب المآكل والمشارب المنوعة .. النادرة السخية . وكان يدعو أثرياء رجال الأعمال وغيرهم من علية القوم إلى هذه الرحلات ويستعرض في هذا اليخت ثروته وقدرته على البذخ والإسراف في الإنفاق دون حساب ، الذي يصل إلى حد السفه .. وكان هذا لا يرضيني وكثيراً ما لمته على ذلك .. وكان يجيبني دائما بأن هذا الاستعراض ضروري ، وسمة هامة من سمات رجال الأعمال الكبار .

وذات مرة .. أسر الي بأن كل ما يملكه من الملايين ، التي لا يستطيع انفاقها ، أو تبديدها .. مهما فعل ... وأن كل قدراته ونشاطاته في الدنيا ، تقصر عن اسعاده أو تمكينه من ممارسة الحياة والتمتع بها .. وكان يغبطني على الطريقة التي أعامل بها الحياة ، وأعيشها وأستغلها فيما اشتهي وأرغب . الأمر الذي يعجز عنه مهما حاول .. ولم أعرف السر وراء هذا الاعتراف .

وكنت بطبيعة الحال ، أدعوه لقضاء أمسيات بطريقتي الخاصة ، رداً لدعواته . وكانت سهراتي مبتكرة في هيئتها وأسلوبها رغم قلة تكاليفها .. كنت أقيمها في استديوهي أو مرسمي الخاص .. الذي كنت قد أنشأته من سنوات .

دار الصفا معهد للشفا :

بذلت في إنشاء هذا المكان كل خبراتي الهندسية والفنية .. وآليت على نفسي ألا أنفق في اعداده أو تأثيثه الا الضروري والغريب النافع . فصممت محتوياته ، وجمعت فيه كل ما أعثر عليه من مستلزمات وملحقات وضروريات استلقطها من هنا ومن هناك وأسميته « دار الصفا » لأني أتعشق أخوان الصفا .

اخوان الصفا وخلان الوفا :

أخوان الصفا جماعة سياسية ، دينية ، فلسفية ، سرية ، من الطائفة الباطنية ، الاسماعيلية الشيعية .. كان اعضاؤها يعيشون في البصرة . في القرن الرابع الهجري أي العاشر الميلادي . وهم الذين أطلقوا على جماعتهم أخوان الصفا .. لأنهم قصدوا تصفية أنفسهم من كل ما يحول بينها وبين السعادة المتاحة للأنفس الانسانية .. الطاهرة . وكانوا يتعاونون معاً في اخاء على بلوغ هذه الغاية العملية . أما عن نشاطهم النظري في مجال التصفية أو الصفاء .. الذي هو غايتهم عملياً .. فقد جاءنا من نتائجه جملة رسائل ، تسمى رسائل اخوان الصفا . وبعضهم يضيف الى عنوان هذه الرسائل« وخلان الوفا» وهي اثنتان وخمسون رسالة ، وكلها مطبوعة . وهذه الرسائل في أربعة أجزاء ، أولها في مبادئ الرياضيات والمنطق (إحدى عشرة رسالة) .. وثانيها في العلوم التطبيقية ومنها علم النفس (سبع عشرة رسالة) .. وثالثها في الميتافيزيقا أي ما وراء الطبيعة (عشر رسائل) . ورابعها في التصوف والتنجيم والسحر (إحدى عشرة رسالة) ..

وهي أشبه بموسوعة فلسفية علمية . ولم ينشرها مؤلفوها بأسمائهم ، لأن الجماعة كلها كانت سرية . وقد عرف منهم « زيد بن رفاعة » ، و« علي بن هارون الرنجاني » ، و« محمد بن أحمد النهرجوري» . و« محمد بن بشير البستي المقدسي » .. ونظام الجماعة مفسر في الجزء الرابع من الرسالة الخامسة والأربعين . وكان من أثر سرية الجماعة ، كتابة الرسائل بعبارات غير صريحة وعدم ذكر مؤلفيها .

فلسفة أخوان الصفا :

تقوم فلسفة هؤلاء القوم ، على الاختيار والتوفيق فيما يستمدونه من حكمة الاغريق والهنود والفرس .. كما أشاعها مترجموها إلى العربية والأجيال السابقة لهم .. فيختارون الحكم مما فيها .. ويدققون في هذه المختارات . والجديد في فلسفتهم ، صورتها العامة ، لا أفرادها ، فكانوا يقولون بنظرية الصدور أو الانبثاق ، أي أن العالم انبثق من الله . انبثاق الضياء من الشمس ..

وكذلك انبثقت الكائنات ، بعضها من بعض تدريجياً .. فمن الله الواحد الأحد انبثق العقل الواحد .. ومن العقل صدرت النفس الكلية .. فالمادة الأولى ، فالطبائع فالأجسام ، فالأفلاك .. وآخرها العناصر ، ثم ما يتركب منها من معادن ونباتات وحيوانات .

والمادة أصل البشر .. والنقص في العالم هو لبعدها عن المصدر الأول ، وهو الله .. والنفوس الفردية أجزاء من النفس الكلية ، وسوف تعود إليها بعد الموت ... هو ما يسمونه البعث الأصغر ، وأما البعث الأكبر ، فهو رجعة النفس الكلية الى الله . وخلاصة مذهبهم أن الأديان والفلسفات على اختلاف الأزمنة والناس ، ينبغي أن توافق هذه الحكمة ، لأن غاياتها جميعاً هي تشبه النفس بالله . على قدر استطاعتها .. ومن ثم دعوتهم الى الفضيلة الفلسفية في كل ما خلفوه من الرسائل .

لقد اعجبت بأخوان الصفا ، وتأثرت كثيراً بمنهجهم في حرية الفكر وانطلاقته . وكثيراً ما كنت أنفرد بنفسي في داري هذه « دار الصفا » ، يحيط بي كل ما أحبه من أشياء ، فأقضي فيها أوقات هنيئة ، أستمع فيها إلى موسيقاي المفضلة ، وأقرأ الشعر ، وأصور بالألوان ، وأصنع أشياء مبتكرة ، وأمارس هواياتي العديدة ، التي تشغلني عن رزايا الحياة .. وكنت اغلق الشبابيك والستائر ، فأنفصل تماماً عن الخارج ، وأصبح في دنياي التي صنعتها بنفسي ، بعيداً عن ضجيج وأضواء وحركات الشارع والجيران وهكذا اخلق لنفسي دنيا خيالية أملكها ولا تفرض علي .. وكنت أطلق لخيالي العنان ، فكنت أتصور أنني عندما أدخل باب مبنى العمارة أنني مغادر مصر الى بلاد الله خلق الله ، وكثيراً ما كنت أدعو صفوة من أصدقائي ، لقضاء وقت طيب معاً في هذا المكان أستمتع بما خلفته حولي من سحر وجمال ، وكنت أفخر وأسعد بسعادة ضيوفي ، فأستعرض عليهم مبتكراتي وأعمالي الفنية المتواضعة .

إغـــــراء

عرض عجيب من رجل معيب :

زارني المهندس المليونير « شكري » في منزلي آخر مرة حضر فيها إلى مصر كعادته ، وكان ذلك بعد غيبة طويلة .. عدة سنوات .. وفي حديث طويل أخذ يستعرض نشاطاته في الأعمال الهندسية والمقاولات وغيرها ، وكيف أنه أنشأ مكاتب هندسية جديدة في غالبية البلاد الأوربية والعربية ، وأنه رغم ذلك غير سعيد ، ويحتاج لشخص مثلي يزامله في حياته ويحمل معه أعباء أعماله الواسعة .. ورجاني أن أتنازل وأوافق على مزاملته ... كان عرضه في منتهى التواضع والأدب وحسن الذوق واللياقة . فتعجبت من هذا الرجاء ... وسألته .. يا « شكري » أنا فيَّه أيه يخليك تطلب مني هذا الطلب ؟ .. انت عارف أني ما بحبش أعمال التجارة والمقاولات والشئون المالية وأكره البزنس (بكسر الباء والنون) أي الأعمال ذات الصبغة التجارية والمالية . وأنا في وظيفتي أستاذ أد الدنيا .

الطمع يقل ما جمع :

بدأ يبادلني عذب الحديث ، ويوضح لي أن المسألة ليس فيها مشاكل البتة . الواقع أنه معجب بطريقتي في معالجة الحياة ، ومفتون بأساليب ممارستي لها ، وذكرني بأنه قد سبق وأسر لي كيف أن ماله وثراءه العريض لم يمتعه بحياته وهو يبغي من كل قلبه لو قبلت أن أصاحبه وأرشده ، ويتتلمذ على يدي في الحياة ، كما تتلمذ علي في الهندسة فيصبح دائم البشاشة مثلي ، وكيف (يضرب الدنيا جزمة زي ما أنا ضاربها) .

فقلت له (.. يا شكري ده كلام ما يملاش وداني .. أنت يا واد حاتضحك علي ؟ ... أنا ما عنديش مانع أساهم في إسعادك ، ولكن مال الدنيا كله ما يساويش تركي للأستاذية ولا لبيتي ولا لمصر ... وخصوصاً أني لفيت الدنيا كلها مع ولادي وفرقة رضا وكنت معززاً مكرماً أعامل في سفرياتي معاملة السفراء .. وعايز أقعد في مصر شوية — مصر الحلوة اللي ما يعرفش قيمتها الا اللي يبعد عنها شوية .. وأنا مش عايز حاجة دي

نعم ربنا مغرقاني . عيلة ، وشهرة واحترام ونشاط وصحة .. ده أنا لو عزت حاجة كمان بعد ده كله يبقى افترا على الله ..)

فرد عليَّ قائلاً : « يا حسن بيه أنت مش راح تخسر حاجة وباقي لك كل ده ودخلك الحالي أضمنوهلك .. فان كان مثلاً ثلاث تلاف أو أربع تلاف جنيه في السنة أديلك يا سيدي ، دخل خمس سنين مقدم ، دون شرط أو قيد .. تحت أمرك النهار ده أهو ، يعني تاخد أجازة من الجامعة وتيجي معايه ، وان حبيت ترجع .. أنت حر حتى لو حبيت ترجع بعد أسبوع واحد » ..

فأخذت أفكر لحظة (ما فيش فايدة برده بيتكلم بالفلوس ، أهو ده سر تعاسته .. عمر الفلوس ما تشتري سعادة .. ! الناس اللي زيه ما فيش في الدنيا حاجة لها قيمة عندهم الا الفلوس ... الفلوس ... الفلوس .. الله يخيبهم) .. (هنا لعب الفار في عبي) وهذا فولكلور مصري بمعنى أنني تحيرت وتشككت ... (معقول الكلام ده .. لازم في حاجة ورا ده .. يا ترى إيه الحكاية .. يكونش شكري أتجنن ..) فقلت له .. (شوف يا شكري .. قللي بصراحة أيه الحكاية .. أنت عارف أن مال الدنيا كلها ما يهمنيش ، وأنا ما خدش من حد فلوس من غير مقابل . ولا حبش حد يكون علي له جميل ...)

وهنا أقسم شكري بأغلظ الايمان ، أنه لا يبغي سوى مزاملتي والتعلم مني . والتتلمذ علي وأخذ درس الحياة مني ... ومصاحبتي والاسترشاد بحكمتي وما إلى ذلك من كلام فارغ لا أعقله .. ومما زاد الطين بلة .. أن هذا الحديث كان أمام زوجتي وابنتي وزوجها ، ولما لم أقبل هذا العرض ، رجاني « شكري » أن أقبل دعوته دون أي التزام من ناحيتي أو شروط من جانب « شكري » (وأسافر معه الى أوربا ، دعوة أهي تبقى فسحة .. وتقدر ترجع بعد أسبوع أو شهر أو سنة على كيفك .. أهو حضرتك تبقى زي أخويا الكبير وكتر خيرك .)

وهنا قالت فريدة ابنتي .. « ما لكش حق يا بابا ، دي فكرة مش بطالة وخصوصاً انك ما جتش معانا الرحلة اللي فاتت » . وكذلك كان رأي زوجتي التي قالت « لربما يمكنك أن ترتب لنا مكاناً في أوربا لنصيّف هناك كلما أردنا » .

الرأي السديد في اختيار مدريد :

وبعد مناقشة وحديث طويل ، وقعت في الشرك ، قبلت الدعوة على أن أسافر دون أي شروط ، ودون أن استلم أي نقود مقابل ذلك .. أخذ شكري يصف لي مكاتبه

المختلفة في لندن وبرلين وباريس وطرابلس وآخن وروما .. ومدريد وذكر لي فضائل كل مدينة وما فيها من مزايا ومغريات ، على أنه اقترح مدريد ، مفضلاً إياها على الجميع لأن « إسبانيا » دولة سياحية من الدرجة الأولى ، ترحب بالأجانب ، وسياحها ضيوف عليها مكرمون .

وهكذا قررت السفر .. وعزمت على أن أطلب أجازة من الجامعة ، وخاصة أنه لم تحتسب لي أية اجازات من سنوات عديدة ... ودعانا شكري لسهرة في فندق النيل هلتون بمناسبة سفرنا الى أوربا .. وطبعاً رفضت أي نقود مقابل سفري معه ...

اسبانيا .. الأندلس :

لربما ما أغراني حتى قبلت دعوة « شكري » المليونير المهندس وهو أحد من تخرجوا على يدي . ما قاله عن « إسبانيا » الذي هيج في نفسي ذكرى الأندلس العربي الرطيب ، وسرحت في خيالي ... واستعرضت تاريخ الأندلس .. وكيف أن العرب فتحوا هذه البلاد بروح البطل « طارق بن زياد » الذي قال قولته المشهورة (البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لديكم والله الا الصبر والجلد ...) وتذكرت كيف تقوضت هذه الامبراطورية بسبب النزاع والحسد وتكالب الاجانب ضد العرب ، وبأي روح انقرضت هذه الحضارة ، وكيف هرب آخر ملوك « بني الأحمر » المعروف « بالصغير » . مع أمه الأميرة « عائشة » وتذكرت قولتها المشهورة (أبكِ كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال) وهكذا بت أحلم بالأندلس « وبمدريد » ومصارعة الثيران و « دن كيزوت ديلا منكا » .. « وسانكوبانزا » .. « وجويا » .. « وسلفادور دالي » .. « وبيكاسو » ... وبروائع الفن التي سوف أراها عن قرب .. وجال بخاطري ما جرى لاسبانيا خلال حربها الأهلية الأخيرة التي كانت في الواقع تجربة للحرب العالمية الثانية — جرب فيها الألمان والحلفاء والشيوعيون أسلحتهم .. ودمروا من إسبانيا الكثير كما قتلوا الآلاف من الإسبانيين حتى انتهى الأمر بحكم الجنرالزمو « فرنكو » أي الجنرال العظيم (الغالب على ظني أن أزمو الملحقة بلفظة جنرال .. هي تحريف للفظة عظيم بالعربية .. أي الجنرال العظيم .. ولغة الإسبان مليئة بالألفاظ العربية . وآثارهم ، وأخلاقياتهم ، وثقافتهم منحدرة ومتأثرة بالعرب وحضاراتهم ومدنيتهم) .. والغريب أن الإسبانيين يفخرون بذلك جداً ..

ليــــلة ليـــلاء
(فيما بين الحاضر والماضي)

الرجال والفتيان والفتيات والنسوة :

الضوء خافت .. الموسيقى صاخبة ، وبحر خضم من البشر يتماوج على أديم بقعة مبلطة في وسط القاعة .. موائد مصففة مرصصة عليها قناني وقوارير وكؤوس .. يجلس حول كل مائدة منها جماعة من الناس يتضاحكون ، يتسامرون ، يتلامسون ... يتندرون يتريقون ويبصبصون .. ويتهامسون .. وخليط من النسوة والفتيات عليهن مزيد من الزينة والبهرجة . يكشفن عما يجب له الكساء ويكسين ما يلزم له العراء من أجسادهن البضة وغير البضة .. والرجال والفتيان يستعرضون كرافاتات (أي ربطات رقبة) عريضات تكاد تغطي صدورهم .. بألوان فواقع كأنها ريش ببغاوات .. وجال بخاطري ما كنا عليه في زمن مضى وما نحن عليه الآن وأثر الفرنجة (الخواجات) علينا .

السماط الخواجاتي (البوفيه) :

في طرف القاعة البعيد . يقف صف من الحشم بأزياء مذهبة مزرقشة مزينة بنقوش ورسومات بأيديهم مغارف وأمامهم حشد من الأوعية مختلفة الأنواع والأحجام مليئة بأشهى ما طهي من أطايب الطعام المشوي والمقلي والمغلي المصفى المرقد المسكر والمملح والمفلفل بين أحمر قرمزي وبمبه طماطمي وأصفر ذهبي وأسود بذنجاني وأخضر زرعي ومن سوائل وجوامد ومعاجين في سخونة اللهيب ودفء الدموع أو برودة الثلج أو بين بين ...

أمام هذا كله رتل من الضيوف أي الزبائن يأخذون ما يريدون أو يشتهون دون حساب أو احتراز يملأون به صحافهم الصينية ويرجعون إلى موائدهم يلتهمون ما جمعوا .. ويتسامرون والموسيقى تصدع تارة بصخب وتارة بهدوء .

البوفيه العربي أي (السماط) وأنواعه :

السماط (أي البوفيه اللي مش خوجاتي) .. أين هذا السماط ممّا يطلق عليه البوفيه بلغة الفرنجة ! ! من السماط العربي الحقيقي الأصيل . اذ بينما تظهر الفجعة والنهم واضحين في السماط الخوجاتي ، حيث يكوم الانسان كومة كبيرة على صفحة من

الصحاف الصينية ويملؤها « لحبة عينها » بالمأكولات ثم ينفرد بها كالحيوان الذي لا يشارك أقرانه الأكل .. أين هذا من السماط الديمقراطي حيث تشترك الجماعة في أنجر أو تنجرة أو قصعة واحدة ، توضع على الأرض يتناول الناس منها الطعام بأصابع أيديهم دون أن يلوثوه بالملاعق أو السكاكين أو الشوكات التي تكون مصنوعة من الألمنيوم أو الحديد أو الصفيح أو النحاس المنكلش أو الكرستفل أو الفضة أو الذهب .

كل صاحب وليمة ورغبته في تحنيس ضيوفه بثروته التي ورثها أو اغتنمها في غفلة من الناس ، (التحنيس هو اغاظة من يملك لمن لا يملك بما يملك) .. وهنا الداعي يغيظ ضيوفه بهذه المعدات والأدوات ... جزاء وفاقا لالتهامهم ما يقدمه لهم من طعام أو (قرى) (بكسر القاف وفتح الراء) .

يكلوها والعة :

إذا كان المدعوون في الزي العربي (أي لا يرتدون السراويل .. أقصد هنا البناطيل أو البنطلونات .. وطبعاً لا أقصد قطعة الملابس الداخلية التي تغطي ما بين البين والبين ..) يجلسون على الأرض حول القصاع المليئة بالأرز واللحم الذي يكون غالباً شاةً أو خروفاً أو حملاً .. أو ربما معزة أو جديا ... ويهاجمون هذا الخليط المكوم كومة عظيمة وينتشون بأصابعهم اللحم من مجمع الذبيحة التي تكون غالباً ساخنة في درجة حرارة ملهلبة ... فتحرق منهم الأصابع .. ويبدو لي أن هذا احتراز وحيطة من صاحب الدعوة حتى لا يتمكن الآكلون من الحف أو الجور أو اغتيال قطع لحم كبيرة تزيد عن أنصبتهم فيحرمون غيرهم .... وان فعلوا تسلوقت وتحروقت وتلهلبت وتسلخت وتورمت أصابعهم جزاء وفاقا ..ولربما تبقبقت وتحمرت شفاههم (إذا كلوها والعة) . ويقال (فلان يكلها والعه) .. يعني أنه (حرامي) أي لص لا يبالي ماذا يصيبه إذا نهب أو سرق أو نصب ... وهنا فلوكلور مصري ..

السراويل المناعة وقنبلة الأرز :

واذا كان المدعوون يرتدون السراويل أي البناطيل أو البنطلونات فلا يمكنهم الجلوس على الأرض أو القرفصة .. وهم قيد هذه الملابس الخواجاتي الضيقة غير المريحة غير المحتشمة .. التي تظهر تقاسيم ما يلزم عدم تبيانه أو توضيحه .. ولعل هذا الاظهار سجية من سجايا الفرنجة غير المحتشمين .. فإذا جلسوا لا بد أن تتفتق خياطات هذه السراويل لضيقها .. وخصوصاً عند المقعد .. وهذا بطبيعة الحال عيب جداً .. جداً أو

تنحشر الركب في ساقي السروال المكوي المنمق .. فتصبح ساقا السروال أو رجلاه كالزكائب أو عيني الخرج (بضم الخاء) (والخرج كيس بروحين يسهل حمله على الكتف أو على ظهر الدابة) ويحمله الباعة المتجولون أو الرحالة الفقارى عند سفرهم . لذلك يمتنع كثيرون من الجلوس القرفصاء على الأرض فيتناولون الطعام وقوفاً .. وينحنون أو يركعون ليدسوا أصابعهم في القصعة أو التنجرة أو الأنجر ثم يقفون ويبادرون بقذف ما اقتنصوه أو نتشوه من القصعة في أفواههم ...

ولقد شاركت في مثل هذه الأسمطة ، واضطررت أن أتعلم كيف أكوم الأرز الساخن في كفي اليمنى حتى يتكور واضعاً يدي اليسرى خلف ظهري ، ثم أرفع كفي المليئة الى فمي وأوجه أصابعها نحو فمي وأقذف الكرة الأرزية بالابهام فتنقذف كالقنبلة داخل فمي الذي يجب أن يكون فاغراً .. فتنفجر الكرة داخله ، ويتطاير الأرز كالشظايا ويملأ الفم ، سقفه وشدقيه واللسان وما تحته .. والزور والحلقوم .. ولعمري .. هذا هو الاستطعام .. والتذوق .. الاوتوماتي .... ويسمى هذا النوع من السماط في الكويت المنسف .

الركوع في غير الصلاة :

عنّ لي ذات مرة أن أراقب هؤلاء القوم الخوجاتية أي المكبلين بالسراويل وهم يشتركون في هذا السماط الديمقراطي . الإنساني .. التعاوني غيرالاقطاعي ، الاشتراكي .. فرأيت هؤلاء ينحنون ويقومون وينحنون وكأنهم يركعون في الصلاة . كذلك راقبتهم في أثناء نتشهم قطع اللحم وشدها وتقطيعها فإذا هم يقتربون نحو طبيعة الأشياء البسيطة التي لا يعتورها افساد ولا تزييف بالوسائل الأوربية الخبيثة الحديثة .. هذا ما كان من السماط غير الخوجاتي .

مآدب عصر النهضة العربية :

في هذه المآدب ، يطوف على الضيوف غلام بيده ابريق الماء ، وآخر بيده طست فيغسلون ايديهم ثم يجففونها بمناشف أو فوط (الفوطة بمعنى الممسحة وهي لفظة محرفة عن لفظة فودرة الأفرنجية) .. ثم يدور عليهم غلام ثالث يرش على أيديهم ماء الورد ... ويجلسون حول مائدة مستديرة أو مستطيلة .. عبارة عن صينية كبيرة توضع على كرسي مزركش بالصدف ويقدم الحساء وبعده اللحوم والطيور والأسماك والضأن ثم الحلويات البقلاوة ، والشعرية والزلابية والكنافة الى آخره ثم تقدم بعد ذلك الفاكهة ثم بعد ذلك

يطوف عليهم الولدان – ليغسلوا أيديهم ويعطروها ثانية هكذا كانت المآدب في عصر النهضة العربية .

السماط العربي :

يقدم السماط إما في صوانيّ كبيرة قطر الواحدة حوالى متر للعربي – (والعربي أرز مطبوخ بالماء أو بمرق اللحم عليه كتل من لحم الغنم أو لحم الغزال) ويقدم على حصيرة طويلة يوضع فوقها العربي على هيئة تل عال بحيث لا يرى الجالس من يجلس قباله .. والثريد هو اللحم مع مرقه حيث يثرد الخبز قطعاً صغيرة في أوان كبيرة وتسكب عليها المشهيات من الأطاييب كالهال (الحبهان) والقرنفل والفلفل والقرفة غير ماء الورد والنعناع .. وهذه كلها تستورد من بلاد الهند والأفغانستان . ولم تكن الطماطم معروفة في ذاك الوقت لأنها جاءت إلى الدنيا القديمة من الدنيا الجديدة بعد أن اكتشفها كولمبس وما يقال عن الطماطم يقال عن البطاطس والبطاطا .

الأكل والموسيقى والطرب والتندر والرقص :

يطيب الأكل مع طيب الحديث ويا حبذا لو شنفت الآذان بالموسيقى والغناء وتبادل – النكات والنوادر ، ولقد حاول بعضهم أن يدخل الرقص فاتهمه الناس وخاصة محبو الثريد بالبخل لأن انشغال النظر بالتمتع بالراقصة يعطل الأكل وربما يسد النفس عن الطعام ويفتح النفس لثاني الأطيبين وغيره من الطيبات غير المتاحة فلا يشكر الداعي بل يذم ولا يلبي دعوته الشعراء أو ذوو البطون النهمة فينفضوا عنه ويحل مكانهم عشاق الرقص وما يشابهه وهذا سوء والعياذ بالله ..

والعادة العربية أن يقف المضيف يشرف على السماط وخدمة ضيوفه ولا يأكل هو فيبدأ بتقطيع اللحم بيديه ويقدمه قطعاً لضيوفه .. والمضيف هو الشخص الوحيد الذي تلوث كلتا يديه بالأكل .. أما المدعوون فعليهم أن يستعملوا اليمنى دون اليسرى واذا كان الضيف ضيفاً عزيزاً عليه أو ضيف شرف مثلاً فان المضيف يقدم له قطعاً من الية الخروف أو الشاة بدلاً من اللحم .. لأن العربي نحيف بطبيعته . والية الخروف تسمن آكلها .. كما أن المدعويين جميعاً ، يجب أن يأكلوا كثيراً ، لئلا يعابوا في رجولتهم لأن مقياس الرجولة والفحولة والنعرة هو الأكل الكثير وهو أيضاً عندهم دلالة على القوة الجنسية ، وهكذا ينهض المدعوون عن المائدة وهم متخمون بدرجة لا يستطيعون

معها السير أو حتى النوم فإذا ناموا انقلبت على صدورهم الكوابيس المخيفة المرعبة وخيل لي أن هذه الكوابيس هي منشأ قصص العفاريت وغيرها من المفزعات والتي تملأ قصص وأشعار العرب .

عين الرضا عن كل عيب كليلة :

كانت مائدتنا التي حجزها شكري لجماعته في متوسط القاعة ، شكري يجلس على رأسها يرعاه رهط من فتية الفندق بأكواب من بللور وأباريق ودنان كاللؤلؤ .. يجلس على كرسي وثير له بعض صفات العرش وأصبح في هيئة بين الكرسي والأريكة أي « الكنبة » وخيل لي أنه « كنيبة » (بضم الكاف وفتح النون) .. وكان شكري يتصنع الوجاهة كما كان يكيل لكأسه القبل برشفات متواليات .. متباطئات .. متمهلات .. بنظرات عينيه اللتين يغطي نصف سواديهما الأعلى .. جفناهما .. ويحاول أن يجعل هذه النظرات حالمات فتخرج متحشرجات .. مترعشات .. مترحلقات .. كأنها طلقات معجون تخرج من أنبوبه معجون أسنان لتنفرش على فرجون الاسنان فتنساب حائرات لا مستقر لها وتتيه في هذا الخضم .. ولأول مرة ألاحظ أن بين شكري والوسامة عداء وعجبت كيف أنني لم الاحظ هذا الأمر قبلاً ولعل انشغالي بذكائه وقدرته الدراسية ، أغلق بصيرتي عن قبحه .. قصير القامة معوجها ، كرشه مكور وبعينيه شبه حول .. بمشيته عرجة خفيفة ، أحد منكبيه يعلو عن الآخر .. ولم أنتبه إلى هذه المعايب والنقائص إلا بعد أن تصنع شكري الوجاهة وخفة الدم وأخذ يطلق نظراته .. تنساب كالأفاعي منبثقات من تحت جفني باصرتيه خلال رموش منتفة مشعثة بها ظلال من العمش .. وبعد أن افتعل وتصنع الوسامة .. وطيب الهيئة وتنبهت لأول مرة إلى ملابسه .. وكانت غالية الثمن جداً مفصلة بدقة وإتقان غير أنها لم تتلاءم مع جسده .. وفشل الخياط في إخفاء معايب خلقته .. وكان فيها شيء لم أعرفه يدعو إلى الظن بأن هذه الملابس لا بد أنه « شاحتها » أو مقتبسها ... فاستعذت بالله .. وخفت أن يبدو على وجهي ما شعرت به نحوه من اشمئزاز .. وأخذت ألوم نفسي لوماً شديداً لهذا السوء وشعرت بخجل عظيم وكأنني قمت بخيانة لإنسان كان طيباً معي .. وليس هذا من عادتي .. وفاتت عليّ لحظة .. شعرت فيها أن هذا الشعور السيئ لا بد أن يكون منشأه شراً خفيًا في نفس « شكري » ... ولكني طردت هذه الأوهام جانباً ورجعت إلى ابتسامتي وبشري والتفت نحو الفتية الذين يطوفون عليه .. فلم أجدهم مخلدين ولا حاجة ولم يكونوا كاللؤلؤ المنثور ولا يحملون أكواباً من فضة ولا أباريق بل هم فتية

كالثعالب لا يملون من الرياء والمحلسة والابتسام المزور طبعاً في الرضيخة (أي البقشيش) الذي يشر ويخر خراً من كفه .. وهكذا كانت عين السخط تبدي المساديا ..

متصابيان متحابان .. يشاركان الفتيات والفتيان :

أخذت زوجتي أراقصها في هذا الخضم من الشباب ، أتبادل معها أطيب عبارات الحب والوفاء .. وكأننا رجعنا في الزمان الى الصبا أيام كنت أراقصها في بداية حياتنا الزوجية .. وشتان ما بين تلك الأيام الهادئة الرصينة وهذه الأيام الهائجة الهزيلة .. غير المستقرة الحائرة .. الرقص فيها شخلعة وهزهزة وقلقلة وقفذذة ورجرجة وقنعرة وكل هذه الصفات من هذا الباب على وزن (فعللة) وكانت الرقصة هي ما يسميها الفرنجة (خيبهم الله) « السيكودلك » بسكون الياء وضم الكاف وكسر الدال وهي في الواقع تصور الحال التي عليها الدنيا هذه الأيام .. أصوات مزعجة متوالية متلاحقة متصاخبة متصاعدة متسارعة متباطئة متنافرة متآلفة .. ومع هذا كله تهز نياط القلوب من جِوًّا (بكسر الجيم وفتح الواو مع تشديدها) فلم ألبث حتى وجدت نفسي أخاصر شريكة حياتي .. نصفي الحلو وأنطلق معها في حلبة الرقص أجاري الشباب في رقصهم الهائج المليء بالمجون الذي لا يتناسب مع عمرينا أو مظهرينا .. وانخرطنا مع الراقصين في رقص عنيف .. ولكننا لم نجهد .. ولاحظت أن الشباب استحسن محاولتنا فصفقوا لنا كثيراً لأننا جاريناهم وشاركناهم سمات عصرهم المجنون هذا والتحمنا معهم مستحسنين هذه السمات متغاضين راضين عما يستقبحه جيلنا الرزين الهادئ الذي لا يرضى عن الصخب أو المجون .

رب صدفة خير من ميعاد :

رجعت مع زوجتي الى المائدة من حلبة الرقص ، وطلبت مني أن ازودها بالطعام باحضاره من السماط الفندقي الخوجاتي .. أي البوفيه الذي رجاله مسلحون بالمغارف .. الذي يأخذ الانسان منه .. دون حساب وبينما كنت أتخير من الأطعمة المعروضة أطيبها لأملأ صفحتي وصفحة زوجتي أي طبقينا .. شعرت بصدمة خفيفة جداً بكتف لين ناعم فالتفت لأرى فتاة في جمال رائع .. فالتفتت مبتسمة وقالت أهلاً يا بابا حسن .. وبهذه المناسبة يناديني أصدقائي وطلبتي وأولادي فرقة رضا هكذا وبذلك يدللوني ويشعروني بأبوتي لهم وبنوّتهم لي .. لسوء الحظ لم أتذكرها ولكني تذكرت أن وجهها معروف لدي وتاه أسمها عن ذاكرتي الغادرة أثابها الله الى رشدها ، حاولت تذكر اسمها ،مع

تذكري محياها الجميل وصوتها الغريد .. لا بد أنها كانت أحدى نجمات السينما أو التليفزيون أو المسرح وحقيقة الأمر أنني أقاسي من ضعف ذاكرتي للأسماء الا أنني لا أنسى وجهاً ... فأجبتها أهلاً بالعروسة .. بنتي .. وبادلتها الحديث كأني أتذكرها جيداً . وقلت لها أنا مسافر إلى أوربا بعد يومين .. مش عايزة حاجة من برّه .. فقالت .. «والنبي عايزاك تجيبلي فستان» ، وأخذت تعدد لي مواصفاته .. فقلت لها «حفوت عليكي على ترابيزتك وآخذ منك كل البيانات» ...

يموت الزمار وصباعه يلعب :

بعد أن انتهينا من التهام ما انتقيت من الطعام تسامرنا مع الجالسين معنا وأخذ الكل يتبادل الملاحظات على خلق الله الراقصين والراقصات الغادين والرائحات .. ولا تخلو في هذه الأحوال هذه الملاحظات من الفاظ وآراء ليس من المعتاد سماعها الا بعد أن يعاقر المنكر (المنكر هنا رجس من عمل الشيطان زميل الميسر ...) وكان الجالسون معنا قد عمل فيهم (الويسكي) عمايله .. فانطلقت السنتهم ...

رهان غريب :

وبدؤوا يصفون ويتغزلون فيمن أمامهم على حلبة الرقص ويصفون ما يرونه من المخاصرة والمضاحكة والمغازلة والمواعدة والمعانقة والمحاضنة والمباسمة وكل ما هو على وزن «مفاعلة» من هذا القبيل مما يدور بين كل فتى وفتاة .. فصحت فيهم قائلاً « أمر انتم بس فالحين في الكلام الفارغ .. تراهنوني اني أقدر أجيب لكم أجمل واحدة هنا كده على طول » ... وبعد مناقشة .. تحدوني ووضع كل واحد من الحاضرين ورقة نقدية بنكنوت بعشرة جنيهات ... على المائدة رهاناً معي .. فقبلت التحدي .. وقمت وأخذت أتصنع تفحص وجوه السيدات والفتيات وتوجهت نحو مائدة الفتاة التي تعرفت عليها وجلست الى جوارها دون تردد ووجهت لها التحية كأنني لا أعرفها .. وتهامسنا .. وأعطتني مواصفات الفستان وتواعدنا لآخذ منها ثمنه اليوم التالي .. وأفهمتها بما حدث مع رفاقي في المائدة فضحكت .. وقبلت الدور ثم استأذنت من زوجها الذي كان يعرفني .. فاجتذبتها بشيء من العنف وهي تصنع التمنع وراقصتها قليلاً ثم اتجهت الى مائدتنا وقدمتها الى الجميع قائلاً أقدم لكم أجمل فتاة هنا .. فقالت لهم ... الأستاذ ده جريء أوي ... خذني أدام جوزي عينيّ عينك ما قدرتش أقاومه لخفة دمه .. وقبلتني وانصرفت فبهت الجميع .. وضحكت زوجتي لأنها كانت تعرفها .. فجمع شكري الأوراق النقدية

قيمة الرهان .. وقدمها لي ... فرفضتها طبعاً لأني مش حرامي ولا نصاب .. وانتهت الأمسية على خير .. وانصرفنا

سافر شكري واتفقت على أن أنهي اجراءات السفر عن طريق وكيل أعماله في القاهرة أن أبرق له محدداً ميعاد وصولي حتى يستقبلني في « مدريد » ... وأخبرني أنه أمر وكيله بعمل ما يلزم بحيث لا أتكبد في ذلك أي مجهود أو تكاليف ..

من ترك داره يقل مقداره

مفاجأة مفجعة :

بينما كنت جالساً في مقعدي الوثير في الدرجة الأولى في الطائرة التي تتأهب لمغادرة مطار القاهرة الدولي إلى « روما » . سعيداً أفكر فيما سيكون من أمري عند وصولي « مدريد » تنبهت مذعوراً عندما سمعت اسمي يتردد بصوت مزعج .. متحشرج .. ينطلق من مذيعات المطار الألكترونية غير المضبوطة .. تدعوني الى النزول من الطائرة والتوجه تواً الى مكتب شرطة المطار .. لم أتوقع شراً .. رغم ما في مقابلة شرطة المطار غالباً من ازعاج ، ورغم أن مثل هذه الدعوة لم تحدث لي مطلقاً في سفراتي العديدة جداً مع فرقة رضا للفنون الشعبية ، التي كثيراً ما رافقتها في سفرياتها وجولاتها حول العالم . ولم يدر بخلدي مطلقاً أن في هذه الدعوة ما يستحق الاهتمام أو الانزعاج .. نزلت مهرولاً وتوجهت فوراً نحو مكتب شرطة المطار . قابلني الضابط المناوب ، بوجه عابس مكفهر ، وطلب مني الجلوس على كرسي بذيء المنظر مخلع الأرجل .. يكاد يهوي بجالسه إذا لم يحترز أو يجلس دون حراك . وقال لي « إنتظر » .. ولم تفد شيئاً مظاهر القلق التي كانت تبدو على وجهي ، ولا رجاءاتي المتكررة للإسراع ، حتى لا تفوتني الطائرة .. جلست أنتظر وأنا على أحر من الجمر .. برهة خلتها دهراً .. حضر بعدها ضابط طويل القامة كالح الوجه ... .. نظراته غير مستقرة . ثعلبية اللمحات ، ثعبانية الجمود ، وأخذ يدنو مني متقارباً ببطء ... وبخطوات بطيئة بطأ متعمداً .. وهو يوجه نظراته هذه متفحصني من قمة رأسي الى موطئ قدمي ، بحركات يقصد منها الارهاب والازعاج ، وبادرني بقوله (أنت ممنوع من السفر) ، بلهجة قاطعة .. وكأنه قاض يحكم على مجرم حكماً لا نقض فيه ولا ابرام .. فكدت أصعق لأني كنت على علم ، بأنه لا يمنع من السفر سوى من ارتكب جريمة أو أساء الى الدولة أو كان فاراً من العدالة ... أو ... أو غير ذلك مما يفعله عدو من أعداء المجتمع .. فقلت بدهشة : (... أنا ... أنا ... أنا ...) فنظر إليّ شذراً وقال .. (أيوه أنت ...) وتكاد عيناه وقسمات وجهه وسمات حركاته تقول (روح شوف بقى يا ابن الـ ... أنت عملت ايه ده أنت باين عليك ... الاجرام ...) .

السادية مرض وقانا الله منه :

لمعت عيناه ، ولم يستطع اخفاء السرور واللذة التي تملكته .. والشعور الذي ينتاب غالباً من أصابهم مرض السادية .. الذين يعيشون كزبانية جهنم .. على تعذيب خلق الله ويتلذذون بالأذية وقطع العيش ، يطعمون من شهقات آلام البؤساء وآهاتهم وينهلون من دموع المقهورين .. لعنة الله عليهم ، جزاؤهم جهنم وساءت مصيراً .

على أحر من الجمر :

تهالكت على الكرسي ، ومضت عليّ فترة كأنها دهر .. وأخذت أقلب في ذهني وأفكر فيما عساه أن يكون سبباً لمنعي من السفر ... وقد قمت بقضاء جميع الاجراءات المعقدة والخطوات التي يلي بها كل من أراد مغادرة البلاد .. استخرجت الأذون والشهادات وملأت الاستمارات ودفعت الدمغات .. هذا وماضي خال وغفل من أي نشاط سياسي أو اقتصادي أو قضائي أو إيديولوجي أو مالي أو عدواني الى آخره مما قد يكون سبباً .. هذا ولست مديناً للضرائب أو لأحد .. وينحصر نشاطي في الميادين العلمية والاجتماعية ودور الفنون والثقافة ، مبتعداً بطبيعة أخلاقي وفلسفاتي عن كل ما قد يثير أي شبهة أو شك . والحمد لله لا أملك من الدنيا إلا مرتبي ولا يدخل جيبي سوى كسب عمل بريء ولم أقتن عقاراً أو ملكاً أو أجمع مالاً .. ولم أتعامل قط قضائياً أو سياسياً أو حزبياً أو شرطيًّا ... إذن لماذا تجري الدولة معي هذا ؟ ؟

أبوك السقامات :

اعترتني المخاوف والهواجس ، وطار بي خيالي مستعرضاً حياتي ، قد أكون قد اقترفت جرماً أو اجتنيت ذنباً في أيام حياتي .. نسيته في رجولتي أو شبابي أو صبوتي ؟ . والغريب أن الخيال يشرد .. من المعقول الى اللامعقول عندما يواجه الانسان خطراً أو مأزقاً لا يمكن لعقله استيعابه ... ويطوف في ميادين العقل الباطن ويخرج خفايا وأمور لا تخطر على بال ...

وشرد بي الخيال إلى أيام طفولتي.. وأخذت أحداثها تتراقص في ذهني وتذكرت شقاوتي فيها ... لعل ما اقترفته في هاتيك الأيام يحاسبني عليه أشرار هذه الأيام ..

الا يكون العم منصور سقا حارتنا في الحنفي .. الذي كنا نحن صبية الحي نزعجه بالتهليل حوله مرددين أبوك السقا مات ... فربما اشتكاني .. وسجلت الشكوى في

« الدفترخانة » وعثر عليها أمثال هذا الضابط السادي .. واعتبرها خيانة وتعدي على مرفق المياه .

أو لربما يكون الشيخ عاصم مدرس الدين بمدرسة عابدين الابتدائية الذي لم نره قط مبتسماً ... فقد كان خشناً فظاً غليظ القلب (وكنت أنا ولد شقي أوي) .. وخاصة عندما أعايش أمثال هذا الشيخ الكريم .. وعاد بخاطري كيف أنني أطلقت ضفدعاً في الفصل سبق أن كنت قد اقتنصته من الحديقة ، ولكنني رغم ما أنا فيه من ذكريات الماضي وفظاظة الحاضر تذكرت وقع اللظى على كفي نتيجة الضرب المبرح الذي سلطه على يدي الرقيقتين في ذلك الوقت ، ذاك الشيخ الفظ ولكن السقا « عم منصور » والمدرس الشيخ « عاصم » ذهبا للقاء ربهما من زمن بعيد .... ! ! عجبي كيف يطوف الخيال بمثل هذه التوافه ، عندما يقع الانسان فريسة للمخاوف – والهواجس ..

ولعل منظري وحيرتي أثارتا عطف ضابط كبير كان يعرفني ، فمر بجواري وقال عابساً (شوف يا حسن بيه .. اسمك في القايمة السودة ... لازم حد خبطك مقلب) ... (مقلب .. مقلب إيه .. ؟ هيا حصّلت ؟ احنا عايشين فين .. ؟ هوا ده معقول ..؟ هيّا مصالح الناس وحياتهم بقت تحت رحمة أي كلام ؟ .. أنا كنت باسمع حاجات زي دي .. بس عمري ما صدقتهاش ! !)

الغضب أشر من الخوف :

غادرت الطائرة المطار .. وبها حقيبتي ، ولم أدر كيف أتصرف ، وأخذت أجول بناظري حولي لعلي أجد من يدلني .. فلم أر سوى وجوهاً كالحة .. وعيوناً تتجنب أن تلتقي بناظري .. وكنت أقطع الردهة ذهاباً واياباً .. عاقداً يدي خلف ظهري .. غارقاً في لجة من الذهول – وأقسم أنها لم تكن حالة خوف . أو خشية ... بل كانت حالة غضب لشعوري بالمهانة والاذلال ... والذل ... فقد كنت على يقين دون أدنى شك أن ما قضيت عمري في خدمة المواطنين وبلادي في ميدان الوطنية الحقه في ميدان اعداد الشباب بالعلم والفن . وما حرمته على نفسي من دخول ميدان جمع المال والارباح المادية على اختلاف أنواعها ، يكفي وزيادة لتحصيني ضد أي شك في صدق مواطنتي أو اتهام يحط من كرامتي .. فإني بعيد عن مواطن الشبهات ... وجال بخاطري كيف يكون شعور مواطن من المواطنين ... عندما يناله شيء من الظلم والاضطهاد ، الذي يزيد كثيراً عما نالني ...

ناس تنداس وناس تتباس وناس تنحط عالراس :

بينما أنا فريسة لهذا الهم .. دنا مني شرطي شاب باسم الوجه ، تدل سيماؤه على الطيبة ورقة القلب ، على العكس من ذلك الضابط السادي الذي كانت آلامي وعذاباتي النفسية مصدر متعة ولذة .. وسرور له .. دنا مني وقال لي هامساً : (ما تزعلش يا حسن بيه روح مجمع التحرير قابل ضابط الاتصال في الجوازات يفهمك كل حاجة) ، ثم انطلق مسرعاً مبتعداً عني كأنه ارتكب عملاً يعاقب عليه ...

لم أدر لماذا انفرج عني الهم وابتسمت .. لأن انسانية هذا الشرطي العادي ، جاءت خليفة لسادية ذلك الضابط العاتي . والشرطي يمثل عامة الشعب ، وذلك الضابط يمثل القلة الممقوتة إذن الدنيا بخير.. ما دام الشر من القلة والخير من العامة ..

ارحمهم يا ربي فهم لا يعلمون :

لا أذكر كيف وصلت إلى منزلي ... ولكنني لن أنسى الدهشة والتعجب اللتين ارتسمتا على وجهي « خديجة » زوجتي و « فريدة » ابنتي وعلى وجه « علي رضا » زوج ابنتي – فلقد ودعتني زوجتي في المطار ولم تتركه إلا بعد أن دخلت الطائرة وبادرتني قائلة :

(جرى إيه ! ! !) فقلت « تصوري يا ستي .. أنا .. أنا بقولك .. أنا ممنوع من السفر نزلوني من الطيارة واتهزأت .. ازاي بقى الواحد يطمئن على نفسه في البلد دي ..

... ده باين أن آخر خدمة الغز علقة ... ! ! » (هذا فلكلور بمعنى أن خدمة المماليك بتوع زمان ضرب وإهانة ... تشبهاً لرجال السلطة بالمماليك) .

وهنا نظرت إليّ « فريدة » ابنتي نظرة عتاب وقالت (هوا ده برده اللي علمته لنا ... البلد ذنبها إيه ... اذا كان فيها حبة ناس مش كويسين .. يا بابا يا ما قلت لنا لازم نضحي ، وندفع ضريبة المواطنة ، وياما قلت لنا ارحمهم يا ربي فهم لا يعلمون ...)

شعرت عندئذ .. بخجل عظيم ، ولم أتمالك الا أن أعانق ابنتي « فريدة » . وقلت (عندك حق يا بنتي .. أنا غلطان) .. وبدأت أفكر في الأمر .. لا بد أن تكون هناك أسباب لما حدث لي ، وليست هذه مسألة شخصية أقصد بها أنا شخصياً .. ولا بد أن يكون هناك ما دعى لهذا التصرف .. والقصد لا بد أن يكون حماية للمجتمع ، ولكنني بشر (واللي ايده في الميه مش زي اللي ايده في النار .)

تجاذبنا الحديث على مائدة افطار منمقة .. أعدتها خديجة زوجتي ، وتبادلنا النكات وانقلب هذا الحادث السيئ لى موضوع للتندر ، فعلت الضحكات عندما كنت أصف بطريقتي الخاصة الكاريكاتورية أبطال وشخصيات الحادث بالايماءات والتمثيل .. متهكماً ..

في وكر الشر

توجهت الى دائرة الجوازات بمجمع التحرير .. وبعد استفسارات واستدلالات وتساؤلات .. وتواهانات .. ولفات وبرمات .. استغرقت وقتاً لا بأس به ... عثرت على مكتب ضابط الاتصال .. وكأنه موضوع قصداً حتى لا يمكن الوصول اليه الا بعد جهد جهيد إمعاناً في تعذيب الناس .

وكان ضابط الاتصال رجلاً حسن الهيئة ، منمق الهندام ، على شفتيه ابتسامة رقيقة خفيفة ، صريح النظرة مستقيمها ، ولكن لا يمكن للناظر الى عينيه أن يستشف شيئاً من ورائهما غير أدب جم .. ولكن يشعر الإنسان أن وراءهما أمور خفية . إلا أنها لا تبعث قلقاً بل تشع اطمئناناً وأمناً .. لا يفيد الخائف المذعور .

تقدمت اليه ، وأخبرته باختصار ما حدث ، فهش في وجهي وبش ، وأخذ يعتذر اعتذاراً أخجلني من رقته ، ورجاني أن أنتظر لحظة وبعد اتصالات تليفونية .. رجاني أن أنصرف وأرجع في الصباح التالي .

خرجت من عنده متعجباً ، كيف يكون هذا الانسان الرقيق الطيب ، زميلاً لذلك السادي المتعجرف ، الذي تمتع بتعذيبي في المطار ..فهل لوكان ما حدث لي في المطار مع ضابط مثل ضابط الاتصال هذا ..لانتهى الأمر .. ولم يدر بخلدي ما مر من أفكار وهواجس ..

ولست أدري لماذا لا تعمل سلطات الشرطة العليا ، على منع الأفراد الساديين من الاتصال بالجماهير ، وتخصصهم لأعمال العنف ضد المنحرفين .. أو المجرمين ؟ .. طبعا اذا كان هناك ضرورة للعنف الذي لا أحبه ، ولا أعتقد أن له لزوماً مطلقاً .

اتجهت في اليوم التالي لمقابلة هذا الرجل اللطيف بادارة الجوازات فقابلني بترحاب وأسلمني جواز سفري معتذراً لي ، لما حدث وأوضح لي أن ذلك الاجراء كان ضرورياً لأني أشغل مراكز مرموقة ، ولم يزد على ذلك ، ولكني شعرت أن هناك أموراً لا يريد أن يفضي بها إليّ .. فشكرته وقال مودعاً ... تسافر وتيجي بالسلامة .. ولكن ذلك لم يمح قلقي وانزعاجي .

مكرهون أخوانكم لا أبطال :

لم أطمئن لتوضيح ضابط الاتصال ، وبادرت بمجرد رجوعي الى المنزل أن أتصل بصديق لي له نفوذ وعلاقات ، وأخبرته بما حدث ، فوعدني أن يستقصي الأمر .. وحضر وأخبرني أنني شوهدت أحادث شخصاً تحت الرقابة .. وأنا شخصية معروفة عامة ، فأزعجني هذا جداً ، وقلت (كيف لي أن أعرف دخائل وحالات كل من أحادثهم .. فاني أقابل وأحادث أعداداً وفيرة من الأشخاص ، من مختلفي الهويات والأنواع ، بطبيعة مهنتي ومركزي وهواياتي .. وكان الواجب على المخابرات ، أن تتحقق من الأمر أو تتصل بي ، وتسائلني ولا تأخذني غدراً ، وتعرضني لهذه المهانة ... دون أن تترك لي فرصة للدفاع عن نفسي) وبطبيعة الحال ... بدأت أعاود في ذاكرتي من قابلتهم أو تقابلت معهم ، ولم تكن لي بهم معرفة مسبقة ، ولكني لم أستطع أن أكتشف شيئاً ... وعرضت على صديقي أن أتصل بالداخلية ، وأستوضح الأمر ... فنصحني بعدم الدخول في هذه المتاهات ، وخاصة أن الموضوع قد انتهى وقد صرح لي بالسفر سكت على مضض ، وأخذت أفكر في كيف يعيش الانسان مثلي تحت رقابة خفية ، ولا يدري كيف يدافع عن نفسه إذا أوقعته الظروف بموضع شبهة .. وتذكرت أن هناك فرق واضح فيما بين القولتين (المتهم بريء إلى أن تثبت إدانته أو أنه مذنب حتى تثبت براءته .

كعادتي بدأت ألتمس الأعذار للمسئولين ، وساءلت نفسي ، كيف ينبغي أن يتصرف المسئولون لضبط المنحرفين الأشرار ؟ .. المهربين والخطرين ، إذا انعدمت الرقابة والضبط والربط ؟ فاذا أفصحوا عن تحرياتهم أخذ الأشرار حذرهم ، ومن أين لهم أن يعلموا أن رجلاً مثلي ليس ضالعاً مع هؤلاء المنحرفين ؟ ... ولكن هذا تبرير ضار يحد من حريات الناس وهي أغلى ما يمتلكون .

فحمدت الله وشكرت فضله ... أن بين هؤلاء الشرطة ضابط الاتصال الانسان .. الذي أعجبت به وأحببته ، ودعوت له في نفسي بالتوفيق .

ليلة الوداع طال السهر :

عزمت على السفر اليوم التالي .. وقمت بكل ما يلزم من اتصالات ، تلزم الرحيل والوصول الى « مدريد » .. وأعدت زوجتي وابنتي حفلة بالمنزل ، دعت لها بعض الأصدقاء وقضينا ليلة لطيفة لا تنسى ، حضرها شقيقي طه وابنته سونيا وزوجها فاروق

عز العرب وفؤاد بدوي الشاعر ، وحسني العبيسي الاذاعي وغيرهم من صفوة الاصدقاء هذا طبعاً بالإضافة إلى « خديجة » زوجتي و «علي رضا » وأبيض الثلج « سنووي » وكلب « فريدة » الكانيش الصغير بكرة فضة « بوبين » .. وهو كليب زوجتي الصغير اللعبة الذي لا يكبر . غنينا واستمعنا للموسيقى ، ورقصنا ، ولعبنا ، وتندرنا وسمرنا ومارسنا أطاييب الحياة . كما يجب أن تمارس .

يا ما أمر الفراق بين الحبيب والحبيب :

في الصباح المبكر .. صحبتني خديجة زوجتي و « فؤاد بدوي » الى المطار .. وكنت أحاول إخفاء تأثري العميق لقرب فراقي لزوجتي . تصنعت الهزر معها وكنت أعددت حقيبة اليد الصغيرة ، لتحتوي احتياجات السفر العاجلة .. ولصقت في غطائها من الداخل صورة جميلة لزوجتي ، حتى أتمتع بطلعتها البهية كلما فتحتها ..

والواقع أنني لم أفارق زوجتي منذ يوم زواجنا ، فراقاً طويلاً وإن افترقنا كان لفترات قصيرة جداً ، مما يتطلبه العمل . وكانت هذه السفرة أطول سفرة أفارقها فيها مدة طويلة ، وكان بودي أن ترافقني فيها ، ولم يتيسر ذلك لأسباب .

ولقد كان من عادتي ... أن أصطحب زوجتي ، والمرحومة ابنتي « نديدة » و « فريدة » ابنتي الصغرى في كل رحلاتي .. سواء أكانت هذه الرحلات رحلات سياحية أو ثقافية أو سفريات عمل أو في رفقة فرقة « رضا » للفنون الشعبية في جولاتها حول العالم .

لم ينتابني هذا الشعور عند مغادرتي المطار ، قبيل منعي من السفر ... وأظن ذلك لانشغال فكري بما كنت أتوقعه في سفرتي . ولكن هذه المرة بعد ما حدث لي ، كنت أتوقع شراً طوال الوقت .. وكان ما حدث مع شرطة المطار نذير شر .. ولم يكن بأي حال فألا حسناً ... .. لذلك كانت لفرقتي لعائلتي هذا الأثر .. مع تخوفي من المستقبل الذي بدا لي غامضاً غريباً .. استعنت بالله ... وطلبت من المولى الهداية ... وتوكلت عليه تعالى ..

الفصل الثاني

مِن قاهرة المعز الى رُومة روملس

المطار والطائرة ونفوس حائرة

الحقيبة التائهة :

انتهت اجراءات الجمرك وشرطة المطار بسرعة ... ولم أقابل الضابط السادي كالح الوجه قاسي القلب هذه المرة ... ولكن لسوء الحظ ، كان على المودعين أن ينفصلوا عن المسافرين بحواجز تحجز جمهرة المودعين عن جماعة المسافرين ، الذين يروحون .. ويجيئون في اضطراب ظاهر .. وحيرة بين حقائب وحمالين .. يدفعون أمامهم عربات صغيرة يحملون عليها أمتعة المسافرين .. وعلمت أن حقيبتي التائهة التي سافرت بدوني .. في أمان .. ولكني لم أرها ، ولا زلت متخوفاً لما عساه أن يكون قد حدث لها من عبث العابثين بين روما ومصر ذهاباً واياباً .. وكان اطمئناني عليها يرجع الى أنني كلما نظرت الى فتاة المستعلم . ذات الوجه الصبوح ، .. التي طمأنتني على الحقيبة قائلة (إن الشنطة في أمان بالأمارة هيا سمسونيت رمادية جميلة) . للأسف لم أكن قد أغلقت أقفالها قبيل سفرها منفردة ، وظننت أنها ربما تعرضت للفقد أو العبث بمحتوياتها .

توجهت لأسجل على جواز السفر (الكاميرا والمسجل الصغير الكاسيت) ، حتى لا أتعرض لرزالة الجمرك ، عند رجوعي الى مصر ، وتوجهت الى قاعة المغادرة ... .

بين المسك والعنبر والبرفان المقطر :

كانت « فريدة » ابنتي قد ألحت عليّ أن أقتني بَرْفاناً (بفتح الباء وسكون الراء) من السوق الحرة ، بدلاً عن العطور الشرقية التي أصنعها بنفسي من خلاصات العنبر والمسك وغيرها من العطور الشرقية العريقة غير المصنعة ، التي تقربني كثيراً من المشايخ الأفاضل .. الذين ليس بيني وبينهم أي تشابه .... لسوء الحظ .

قصدت واجهة المبيعات المستوردة .. ففوجئت بفتاة البيع الجميلة ، تحييني أجمل تحية ، فاذا بها « راوية » ابنة شقيقة « علي رضا » .. فطلبت منها زجاجة « برفان » رجالي لأن « البرفانات » ان كنت جاهلها مثلي .. ذكور ، وإناث ، وخناث . (وعيب أوي خالص الراجل يحط ريحة نتاية) ..

عرضت « راوية » علي أنواعاً ، في زجاجات وقنينات ، رفيعات وسميكات ، قصيرات وطويلات ، ملونات وسادات ، مزيفات وعاطلات ، عليها صور أزهار وغادات ... ثم رشت على شعري رشة من واحدة منها ... فتسلل أريجها خلال نخاشيشي فكادت ترخرخ ما تبقى في من همة ، لما تحتويه من سحر لذيذ . قنابي (بكسر القاف وفتح النون مع تشديد) النكهة ، حشيشي ، ملهلب لهلبة ثلجية ... تدعو الى ما لا تحمد عقباه . ارتددت الى عقلي بسرعة ، وثابت نفسي الى رشدها . وعندما سألتها عن الثمن قالت (ستة وعشرون دولاراً بس . ! !) فاعتذرت لها .. وابتعدت عنها بسرعة ، لئلا يجرني سحرها الى دفع هذه الدولارات الغاليات ... وتندمت على عدم شرائي « لاوند » الشبراويشي أو الفوجير « كلونية » اللمون ، التي استعملها مع مستخلصات العنبر والمسك لرخص أثمانها ، ولشرقية عبيرها . سأكتفي الآن بالصابون الممسك ، وهذا ماكنا نسمي به الصابون الخوجاتي أبو ريحة عندما كنا صغاراً ... زمان زمان أوي .

توجهت مهرولاً .. لانتظر المقدر المحتوم .. وهو امتطاء الطائرة « الايتاليا » – المتجهة الى روما ..

المنتظر قلبه ينفطر :

جلست على أريكة أجول بناظري ، وأتفحص وجوه المسافرين ، أفراداً وجماعات صبياناً وبنات كهولاً وشابات ، أطفالاً وأمهات ، فلم أر ابتسامة مشرقة أبداً .. بل كان الجميع في هلع ظاهر ، كأنهم في منظرة طبيب أسنان ، ينتظرون دورهم لينخر الطبيب أسنانهم بالآلة الجهنمية النخوارة الثقابة سلاح الشيطان ...

وبين آونة وآخرى ، تنطلق حشرجة من المذاييع العديدة الألكترونية ، بصوت « سوبراني » مسرسع ، بكلمات لا هي شرقية ، ولا هي غربية ، ولا هي أجنبية ، ولا هي محلية ، ولا هي عربية ... بل هي رطانة تنطلق ، فتحير المسافرين وتوذيهم ، قبيل سفرهم ليتذكروا دائماً طهر المذيعات وصوتهم الذي يعلم العفة ...

ولعل الحشرجة هذه مقصودة ، لتحجيب أو وضع الحجاب على صوت النساء ، لأنه عورة ، واذاعته حرام في حرام . تعجبت وساءلت نفسي (ليه الأذية دي .. دول حقهم يخلوا الرجالة الخناشير هما اللي يذيعوا بدلاً من البنات ، فيخرج صوتهم جحمرشاً بطبيعته ... أحسن من الأرف ده !)

كان أول القصيدة حب :

بعد انفصالنا في المطار عن مودعي .. وأصدقائي .. ظننت أنهم غادروا المطار وعندما حان وقت اقلاع الطائرة . رأيتهم ينتظرون مغادرة الطائرة في الشرفة ، وكان البرد قارصاً .. فلوحت لهم ثم صعدت الطائرة ، وهكذا بدأت رحلتي منفصلاً عن حياتي السابقة ، مبتدئاً حياة جديدة لأول مرة ... وشعرت بفراغ عظيم ، وبعد لحظة ملأت زوجتي خيالي ... ومرت أطوار حياتي معها كما يمر شريط سينمائي .. فتعجبت جداً كيف تحملتني هذه السيدة الكريمة الصابرة في حياتي الطويلة معها ... واحتوتني بنقائصي وأطواري ... المتغيرات ، المرتفعات ، المنخفضات ، الثائرات ، الهادئات ، الغريبات ، العاديات .. وكيف مارست الحياة معي مع تغيرها عن المعتاد في مدّها وجزرها .. وفي قسوتها فكانت لي شريكة كريمة ... وكيف كانت سنداً وملجأ في ضيقي وملماتي ، فكانت شاطئي نهر حياتي ، ونصفي الحلو ، الذي حماني ووهبني درة الدرر ابنتي « فريدة » التي أنتمي إليها بعد أن كانت تنتمي إليّ ، التي وضعتني في التاريخ ، لنبوغها وتربية وتنشئة أمها لها ...

فتحت الحقيبة .. ونظرت متأملاً الى صورة زوجتي الملصقة في غطاء الحقيبة من الداخل ، ، ولم أدر كم مر عليّ من الوقت ... . شعرت بمضيفة الطائرة تقف بجواري تتأملني ، وتتعجب كيف أنني رجل جاوزت الشباب ، أبدو غارقاً لشوشتي في غرام صورة امرأة أحتفظ بها في حقيبة سفر ، وتصورت أنها عشيقتي .. فالتفت اليها قائلاً (دي مراتي) فابتسمت وتركتني غير مصدقة لجمال صاحبة الصورة.

وهكذا بدأت رحلتي بابتسامة ووجه جميل ، وذكريات طيبات .. فكانت فألا حسنا . حاضنت الطائرة الجو وارتفعت .. برفق باسم الله طيرانها ، وبحمد الله وتوفيقه مجراها ووصولها ومرساها .

خاطرة في سماء القاهرة

ذكرتني حالة « فريدة » ابنتي معي .. بشهبندر التجار بمدينة (ري) ، ببلاد الفرس ، فلقد كان أكبر تجار عصره كله ، له فروع في عاصمة الخلافة « بغداد » وفي بلاد الشام وبمصر . وكان له ابن وحيد ، يتعلم في كتاب المدينة أصول الفقه وألوان الحديث والكتاب . غير أن هذا الابن كان مولعاً .. وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره ، بالغناء .. فكان يغني مع نفسه ، ولأترابه ولأهله .. فكان الغناء صنوه ورفيقه ، حتى على مائدة الطعام .

كان هذا الصبي عذب الصوت مليح الوجه ، خفيف الروح ، لطيف المعشر .. وما كان الفرح يسمى فرحاً ان لم يصدح فيه هذا الصبي .. وما كان مجلس سمر ينعقد الا ويكون الصبي بلبله .. اشتهر في مدينته حتى صارت شهرته أوسع من شهرة أبيه .. فقد أصبح أبوه ان مر في المدينة وأشار نحوه غريب ، للسؤال عنه ، لم يكن الجواب بأنه شهبندر التجار .. بل أصبح الجواب أن هذا الرجل هو والد بلبل مدينتنا وعندليب أفراحنا وسلوة وقتنا .

نظر الأب التاجر الى حال ابنه ، وفكر في أمره .. فعهد به الى شيخ مغني المدينة ، وبعد سنتين تلقى الصبي فيها فنون هذا الشيخ كلها .. اقترح الشيخ أن يرسل الصبي الى « اصفهان » ليكمل تعليمه الفني ، على يد أستاذ الأساتذة وشيخ المغنين فيها .

ودعت مدينة (ري) ابنها بعيون دامعة ، وقلوب جريحة ، لأن ابنها سيفارقها زمناً . وبعد خمس سنوات من الدراسة الفنية في « أصفهان » ، بلغت شهرة الصبي الخافقين ، وشاعت أنغامه وأغانيه في بلاد فارس عرضاً وطولاً ورددت أغانيه على كل لسان ، وفي كل حفل أو فرح ..

بلغت « الشاهنشاه » أخبار أغاني واسم هذا الفتى .. فطلبه ليغني في قصره وبحضرته وهذا منتهى الشرف الذي تصبو اليه نفس في حينها .

حضر في قاعة المرايا ، جمع غفير من النبلاء والأعيان وكبار القوم من رجال الدولة . وتربع الشاه على عرشه وخصص كرسياً وسط القاعة لجلوس المغني . بدأ الحفل

وباشر الصبي بالغناء ، وارتقى في مغناه الى عوالم الخيال .. والسحر .. والاجادة والروعة والسمو .. ثم حانت منه التفاته الى جدار المرايا ، فأبصر صورته ... وفجأة تهدج صوته وتذبذب ثم توقف عن الغناء .. واصفر لونه .. وتغيرت سحنته واضطرب .

والشاه وضيوفه في حيرة من أمر الفتى المغني ، ولا أحد يعرف سبب اضطرابه وتوقفه عن الغناء ، وهو في قمة الأغنية وذروة النشوة والتصديح .

نهض الفتى على قدميه ، واعتذر للشاه .. ورفع عوده بيده ، وألقى به على الأرض وداسه بقدمه ، فهشمه . غضب الشاه وانتصب واقفاً .. وسأل الفتى عن هذا الجنون الذي قام به في حضرة ملك الملوك ، فاعتذر الفتى بصوت كئيب وقال للشاه بصوت متهدج :

(كل ما يخرج من بين لحية وشنب لا يصلح للطرب) .

غادر الفتى « بايتاخت » عاصمة بلاد الفرس ، وسافر الى بغداد ، وابتدأ من أول الطريق في الدرس والتحصيل العلمي ، حتى صار مديراً للبيمارستان الكبير في « بغداد » ... أي المستشفى . واليوم لا تخلو قاعة من قاعات التشريح في العالم كله من صورته ... كما أن معظم أدوات التشريح المعروفة في العالم هي من تصميمه بتحوير بسيط .. كالمبضع والمشرط والمغرز الى آخره . إنه (أبو بكر الرازي) .

فريدة فهمي :

و « فريدة » في قمة مجدها اتجهت لنيل الدكتوراه ، لتجمع سمو الثقافة والعلم إلى رفعة الفن ونبله ... لن يحب امرؤ لشخص أن يكون أفضل منه ، وأسمى ، وأعلى مقاماً سوى ابنائه ، لأنهم استمرار له .. وانتمائي لابنتي « فريدة » نصر لي وفخر وعزة ، غير أن الفارق بيني باعتباري اباً « لفريدة » ، وبين شهبندر التجار ، باعتباره اباً (لأبي بكر الرازي) فارق ملحوظ . لأن « شهبندر » التجار بقّي شهبندر دون أن يتطور علمياً أو فكرياً . أما أنا فلا زلت أعتبر نفسي طالب علم ومعرفة ، أستزيد معلومات كل يوم . بجانب النجاح والشهرة التي حققتهما ابنتي ، حققت بدوري نجاحاً وشهرة في ميدان عملي .. وهذا هو الفرق بيني وبين « الشهبندر » .

أفقت من خيالي اللذيذ هذا .. على صوت قائد الطائرة ينبهنا بأن نربط الأحزمة لوصولنا «أثينا » عاصمة بلاد اليونان . مهد حضارة أجدادهم الاغريق قادة الفكر والفلسفة في العالم .

أثينا العريقة الباحثة عن الحقيقة

أجلس على مقعدي الوثير المريح ، الذي يدعو الى الاسترخاء والراحة ، والطائرة قابعة في مطار « أثينا » موطن الفلاسفة الاغريق ، الذين أفنوا عمرهم في البحث عن الحقيقة ، ننتظر تفريغ من فيها من المسافرين ، واستقبال الجدد المتوجهين إلى « روما » ، أسمع حديثاً باليونانية ، التي أعرف قليلاً منها ، بين اثنين أحدهما من «الهيبيين » أو بالأهبة (بكسر الهاء وفتح الباء مع تشديد) وجمع تكسير ابتكرته للتندر به . والشمس قداحة ، وأصوات خبط ورقع دائرة على قدم وساق .. وتمر بين الهينة والأخرى في الممر الملاصق لمقعدي ، فتيات ، بعضهن مليحات ، وبعضهن حلوات ، وبعضهن وحشات ، وبعضهن حمضيات ، وبعضهن بين بين ... ويتخلل مرورهن بعض الذكور الخناشير . مرقعة الفتيات تفوق المعتاد في مصر ، كن يرتدين ما يستر نصفهن الأسفل ، أما النصف العلوي فكن يتعمدن إبراز نتوءاته الرجراجات ، تحت شفوف تبالغ في استدارتها ولا تخفي ما يلزم ستره .

سمفونية طيرانية :

يعزق وتيرة الأصوات وغيرها من تحركات ، بكاء طفل وهمهمة أمه بصوت عذب رقيق ، تزينه نفحات انثوية مغرية ، مليئة بحنان الأمومة .. ويتخلل هذا كله خلفية من أصوات ناعمة وغيرها خشنة . تترقرق فيها غنات ولحنيات ايطالية ، ذات الحركات المفتوحة ، في أواخر الألفاظ ، بالفتح ، أو بالضم ، أو بالكسر ... في انسياب رقيق .. فتخيلت سيمفونية إنسانية ألحانها متوازنة متوافقة ، تتدفق في نسيج لحني طريف .

حديقة حيوان مصنعة :

نظرت من النافذة ذات الستار الأصفر المنزلق ، التي تحمي المسافر من أشعة الشمس الحامية .. فرأيت مركبات ذات شأن .. متباينة الشكل والغرض ، منها القصير الغليظ ، كأنه هر فقد مؤخرته ... وأخرى طويلة رفيعة كأنها تمساح ... وثالثة تشبه ابن

عرس «العِرسة» (بكسر العين) . يتسلل بين هذه وتلك ، هيكل يتحرك كأنه قنطرة ... تجرجره جرارة كالضفدع ، وتصورت نفسي في حديقة حيوانات في (المريخ) ، مصنعة ذات قبح غير محمود ،

ارتفع صوت حفيف دائم ، وتحركت الطائرة باسم الله مرفعها ومهبطها ، وانبعثت من مذيعات الصوت نفحات حوائية ، تصدرها انثى طليانية .. لم أفهم بالطبع معناها غير أنها لا بد قد بعثت في عروق الرجال حرارة ودفأً .. دفء الصهباء البقلالة .. التي من (شام – بان – يا) .

في أحضان السحاب :

الطائرة على « الترمك » (بفتح التاء وسكون الراء وفتح الميم) ، أي مصعد ومهبط الطائرات .. وكانت جاثمة متحفزة ، تهز عجزها كأنه لبؤة تستعد للانقضاض . اهتزت ثم ارتعشت ، وبجمزت وترنحت ، وارتجت ... ثم انطلقت بنا ونحن حبيسو الأحزمة المشدودة على أوساطنا .. ثم حامت كأنها حمامة زاجلة تتعرف المواقع .. ثم طارت لا تلوي على شيء .

أخذت الأرض تفر من تحتنا فراً ، الى أن انفرش البحر تحتها فأخذت تطويه طياً . ولكنه كان هادئاً ولم يرغ أو يزبد فهو اليوم في سرور وحبور .. الجو داخل الطائرة حر جداً ... والعرق يتصبب ويشر يبلل وجهي . نطق الصوت الملائكي .. أخيراً بانجليزية بها غنة ورنة موسيقية ، تطمئن الركاب ، تخبرهم أن الجو داخل الطائرة سوف يتحسن أوتوماتياً ، ولا داعي لطلب هذا من السماء ، لأن الملائكة مشغولون فيما هو أهم ، نظرت خلال النافذة ثانية فرأيت امتداداً لأزورديا .. يلتحم بأزرق غامق مجعد ، تتخلله قنوات كأنها الأفاعي متلوية رقيقة غير لداغة .. وعلى هذا الأديم كتل كأنها الحمام الضخم ، يرقد على تلال عظيمة من القطن المندوف ناصع البياض .

وقت البطون تتيه الفنون :

أفقت من خيالي وتمتعي بهذا المنظر الخلاب اثر أريج عطر يهب على قفاي ... فالتفت فرأيت وجه المضيفة الحسناء تحمل صينية الغذاء ، ولم أكن قد أفقت من طعام الافطار السخي اللذيذ .. فقلت لها مبتسماً ، لا شك أن هذه مؤامرة لزيادة أوزان الركاب ولعل القصد منه زيادة وزننا ، فاذا هبطنا وزنونا وتقاضوا منا غرامة (اكسس ويت) ..

(بكسر الألف ، والسينين .. بمعنى زيادة الوزن) . فهش وجهها وبش ، وتقبلت مغازلتي لها بغمزة عين .. وأسلمتني صينية الغذاء .. وبعد برهة حضرت تدفع أمامها ترولّلي أو عربة المشروبات ، وأخذت تستعرض أنواعها ، مبتدئة بالكازوزة ، أو الأزوزة بالاسكندراني أو بالمياه الغازية قراءة وكتابة ، وليس قولاً ، منتهية بالصهباء البقلالة التي من بلاد (الشام – بان – يا) . فتصنعت القداسة والتعفف ، وطلبت « الكازوزة » غامزاً بعيني ، فضحكت وفتحت سدادة قنينة صهباء ففرقعت .. وأرغت .. وأزبدت وأفاضت الصهباء في كأس بللورية براقة مزركشة منقشة ، تعكس ألوان الضوء فتتلألأ ، ويخيل لمن يرشف منها أنها الذهب الشفاف المرصع بأغلى الجواهر ... فتمتد لذة النظر وتتحد مع لذة الذوق .

السفر الى الأوليمب في مركبة (زيوس) :

رشفت وتذوقت وطعمت ، وشربت ، طوع شهيتي المثارة ، حتى حضر الساقي بالقهوة .. رفعت هذه المائدة . وتركت مرة أخرى لخيالي .. فأعدت التطلع من النافذة لأرى الحمام واللازورد .. والقطن .. فإذا أراني كأني في مركز كرة هائلة بللورية ، زرقاء باهتة ، منثور في فراغاتها وفي ثناياها ستر (بضم السين والتاء) من الحرير الأبيض ، تخفي وراءها حوريات راقصات ، وشعرت كأن الطائرة هي الأخرى ترقص منزلقة انزلاقاً سهلاً ليناً ، ولولا صوت حفيف نفاثاتها الخافت المستمر .. لظننت أنني في مركبة « زيوس » كبير آلهة الأوليمب ، منطلقة نحو موطنه .. مسرعة لتقدم التحية « لافروديتي » .. آلهة الحب والجمال ، وسرح خيالي في تاريخ الإغريق ، ولاهوتهم وآلهاتهم أي في (الميثولوجيا الإغريقية) .. وما في الالياذة والأودسة من أساطير ...

المعدة بيت الداء :

أفقت من جنة هذا الخيال اللطيفة ، اثر برودة غير مريحة ، بدأت تتسلل الى جسدي وشعرت بمعدتي تلومني ، ، وتهاجمني باقذع ما تملك من عناصر اللوم والعتاب لأني أرضيت نهمي وفجعتي ، بما حشوته فيها من مختلف المشروب والمأكول في لا ميعاد ولا لزوم . وهكذا شغلت بمصالحتها وقتاً ، ولاحت مني التفاتة عبر النافذة . فاذا بنا على مشارف شواطئ بلاد الطليان .. أحفاد الرومان الأمجاد . ولم نلبث حتى كانت الطائرة

تحوم فوق روما .. مدينة روملس .. الذي أرضعته وتولت رعايته ذئبة كما جاء في أساطير الرومان .

بين فينوس ومنيرفا و « ديانا » والمضيفة :

التفت خلال النافذة ، فرأيت منبسطاً لطيفاً مكسواً ببساط مخملي أزرق مخضر ، منثور على أدمية براقات لؤلؤية في تكوين وتراكم جميل .. يدعوك لمعانقته ..

ويتخلل هذا التكوين الف ثغر ، وكل ثغر يفتر عن الف بسمة ، وكل بسمة ترسل لك عبيراً نكهته حب وسلام . خفت أن أفيق من هذا الحلم ، فأغمضت عيني وقتاً ، لا أعرف كم طوله .. وتنبهت على صوت ناعم لطيف ظننته بادئ ذي بدء صوت (فينوس) أو ربما (مينرفا) أو ربما (ديانا) أو غيرها من إلاهات الرومان ... ولم ألبث حتى عدت الى رشدي وكان الصوت صوت المضيفة :

(سيدي اربط الحزام لاننا هابطون بعد دقائق)

اليقظة من حلم الخيال :

رجعت بفكري وعقلي الى واقع هذه الدنيا .. وتخلل سمعي حفيف مزعج ، ينطلق من فوهات المحركات النفاثة . نظرت من النافذة فرأيت مخططات هندسية رائعة .. ومستطيلات مرتبة وزراعات وارفة .. .. فلا غرو ... فالايطاليون أحفاد الرومان ، نوابغ الهندسة ، كما أن الاغريق أرباب الفلسفة والحكمة والفنون .. وهم أجداد اليونانيين .

أخذت أراقب هذه التنظيمات ، والمرتبات المتواليات المتوافقات المتلاحقات ... المركب عليها نماذج وتشكيلات ، تتخللها خطوط فنية ، تجري عليها مئات من مصغرات – المركبات والسيارات وغيرها .. كأنها نموذج مصغر صممه فنان مبدع ، ولكن هيهات بين هاته وتلك ، التي دخلتها بخيالي ، والتي يتغلغل جمالها وحكمتها الأعماق .. أعماق الروح والفكر .. فتوقظ أطهر العواطف والحب ، ورغبة التبهل والتقرب الى المولى جل شأنه .

هبطت الطائرة وحطت كأنها حمامة .. بلطف ووداعه وفؤادي يرقص طرباً .. ولم يخطر ببالي قط ما خبأه القدر لي ..

مغامرات في مطار روما

خفة المتاع عند السفر ، تأمين ضد الخطر :

لم تكد الطائرة تستقر على الأرض ، حتى دوى صوت مكبر الصوت بلغة انجليزية يعلن أن عمال مطار روما مضربون . لذلك على الركاب الانتظار .. ثم عليهم بعد ذلك حمل أمتعتهم بنفسهم ، ونقلها الى صالات الوصول .. فشكرت الله وحمدت فضله لأني كنت قد اختزلت أمتعتي الى الحد الأدنى .. فأصبحت عبارة عن حقيبة سمسونيت وحقيبة (بضم الحاء وفتح القاف) جميلة كان ملك المغرب قد أهداها لي ، وحقيبة مثلها مهداة من « فريدة » ابنتي . والاثنتان خفيفتا الظل جميلتان ، من يحملهما ، يرتفع قدره في نظر الجهال ، الذين يملؤون الدنيا هذه الأيام ، ويغترون بالمظاهر ، ولا يعرفون الصالح من الطالح .

الانبثاق والدهس والقرص والخطف :

انبثقنا من كرش الطائرة ، نتساقط منها على الأرض بتزاحم غير معقول ، لم أعهده حتى في ريف مصرنا ، انهرست الأقدام من الدوس عليها ، ولا أدري اذا كانت النسوان قد قرصن (بضم القاف وكسر الراء مع تشديد) لأني كنت أسمع صيحات أنثوية مستنكرات مرة ، ومتألمات أخرى ، مندهشات وفاضحات أخرى ، بعضها مسرسعات وبعضها غير ذلك ... . وهذا كان كلما انحشرت واحدة من اللاتي كسون ما لا يلزم كساؤه وكشفن عما يلزم غطاؤه في زحام الانبثاق هذا ...

تجمعنا حول الطائرة .. كل ينتظر حقائبه .. صعد الى مخزن الطائرة عملاقان من الركاب يقذفان بالحقائب قذفاً جزافياً (كلشن كان) ، وانتظرت أراقب الحقائب التي تتساقط تباعاً ، وكلما سقطت حقيبة ، سمعت شهقة مرة خشنة ، جحمرشة ، وأخرى ناعمة داعرة .. وهكذا بين هاتيك وتلكم .. رأيت حقيبتي السمسونيت الجميلة تهوي بسرعة .. فحاولت تلقفها ، ولكن يد رجل عملاق سبقتني اليها ، واستدار وانطلق بها .. فصحت به بلا فائدة ، فهرولت نحوه أحاول افهامه أنها حقيبتي .. ولكنه جذبها عني بعنف وحاول الفرار بها .. فامسكت بتلابيبه وصحت بأعلى صوتي (ثيف ..

ثيف) يعني لص .. لص .. أو حرامي .. حرامي فترك الحقيبة .. والغريب أنه لم يفر هارباً .. بل بقي دون خجل أو خوف .. ولعله ينتظر لاختطاف حقيبة أخرى .

المتاعب في حمل الحقائب :

تحفظت على أمتعتي بحرص شديد .. ولم أكن أظن أو أتخيل أن مثل هذا يحدث في مطار دولي في بـلد أوربي ، ولو أنني كنت أظن وسوء الظن اثم أن مثل هذا الحادث ربما يحدث في بعض بلاد غير متحضرة .

في رحلاتي العديدة ، كنت أحمل حقائب عدة ، بسير أو حزام من الجلد أولجه في أيدي الحقائب ، وأعلقه على كتفي ... لهذا لم يكن حمل الحقائب جديداً علي .. وكان حملي هذه المرة خفيفاً جداً . انصرفت متجهاً نحو ردهة الاستقبال في طريق طويل .. طويل .. طويل حتى باب ودرجات سلم .. صعدته براحة ، تلفتت حولي فاحصاً متعجباً ، كيف أمكنني أن أقوم بمثل هذا الجهد البدني ، دون تعب ، بينما رفاقي المسافرون في حالة يرثى لها من التعب والإعياء .. وهم لا يحملون إلا الخفيف جداً من الأمتعة ... فحمدت الله على هذه القدرة ، ودعوت الله بدوامها علي .. ولعل ضعف هؤلاء الناس هو نتيجة لانتهاب الملذات والترف في الحياة وعدم الرياضة .. وكثرة الكلام الفارغ

وصلت إلى ردهة الاستقبال « الترانزيت » .. أي ردهة العبور أي « الصالة » التي تستقبل من سيغادرون البلاد من المطار إلى خارج إيطاليا مباشرة ، فلا يلزم عليهم المرور بالجمرك .

السلع في المطار خرز يحير الأفكار :

صالة قفراء ، عرضها دقائق وطولها ساعات ... قحلاء .. جرداء .. لا تحية فيها ولا ابتسام .. بها هرج ومرج وسمج وخلائق تروح وتجيء ، كمن أصيبوا بلوثة . تنعر فيها أصوات ألكترونية غير موضحة المقاطع .. تختلط أجراس حروفها بعضها خلال بعض فهي ضجيج وضوضاء تؤذي الأسماع .

رأيت تليفزيونات معلقة .. تلمع ثم تنطفئ ، لم أفهم منها شيئاً ، بهذه الصالة جواسق أو أكشاك .. وهذا جمع جوسق وهو لفظ معجمي لست مسئولاً عنه ... هذه الجواسق منوعة القصد والهيئة .

أخذت أفكر كيف لي أن أستكشف هذا المكان ، دون أن أودع أمتعتي حتى لا أضطر الى حملها طوال تجوالي . وكيف لي أن أتركها دون حراسة ، وقد سبق أن بدئ في اغتصاب كبيرتها .. رأيت سيدة جالسة على أريكة توسمت من هيئتها أنها (مش حرامية) ، وأنها في انتظار سيطول .... تقدمت نحوها ، ورجوتها بالاشارة طبعاً أن ترعى « السمسونيت » وابنتيها الصغيرتين الجميلتين حتى أرجع . وقلت لها بالاشارة طبعاً (علشان أجيبلك حاجة حلوة) طفت بالجواسق القريبة ، فاذا بها مليئة بما لا يفيد من بضائع تافهات لا خير فيها ولا منفعة ، لها بريق الخرز وخفة الريش ، هشة .. طعم للغلابة (بضم الطاء) نهابة للفلوس .. مغناطيسية النصب والاحتيال .

فابتعدت عن مجال هذه المغناطيسية الخرابة .. (بفتح الراء مع تشديد) حتى لا ينحدر بي عقلي وأقع في هذا الزيف .. فأنفق القليل من الدويلارات تصغير (دولار) التي خرجت بها من مصر بشق الأنفس لأحتفظ بها للملمات ، وأنا غريب الديار متجهاً نحو المجهول .

سحلية الجواسق الاتيلياني :

توجهت بعد ذلك لمكتب خطوط الطيران (الايتاليا) ، التي تتبعها تذكرة سفري وبعد مسيرة عشرين دقيقة في هذه الردهة التي طولها ساعة .. عثرت بمحض الصدفة على جوسق مضيء ، عليه لافتة مكتوب عليها (الايتاليا) به امرأة قصيرة القامة .. هزيلة القوام .. شعرها بلون القش .. كريهة المنظر .. صدرها مفرغ من النتوءات مقعر الفجوات .. صرصارية الصوت .. سحلاوية العينين ، معوجة القامة وكأنها أنثى ميمون عجوز .. منفرة معنطظة ... تدعو هيئتها الرجال بإلحاح إلى الرهبنة الفورية .. .. وجهها يعلم العفة لأشد الرجال رغبة في الفسق ، ولا أدري كيف أطلقت هذه الشيطانة في هذا المطار ، إلا إذا كان متمماً لأذى اضراب عماله ، حتى يتم القصد من الاضراب .

استعذت بالله .. وطلبت منه الحماية من هذه الشيطانة ، وابتسمت لها مكرهاً والابتسام من طبعي .. حتى في أشق حالاتي وأسوئها .. وبكل ما أوتيت من إرادة قوية أعطيتها العين الحلوة .. فافترت شفتاها عن أسنان كمسامير القلاووظ .. وانبعث من فيها غاز له رائحة البصل والثوم والتبغ والخمر الرديء ، الذي نسميه بمصر منقوع الصرم (أي الأحذية البالية القديمة) هذا كله مخلط ببخر أصلي .. كاد يسلب مني الأنفاس ..

تناولت التذكرة مني ، وغابت حوالى نصف الساعة ، ورجعت وناولتني بطاقة

الرحيل الصفراء ، موضحة بغنج ودلال أفاض قبحها والعياذ بالله .. بأن باب الصالة المؤدي لطائرتي هو الباب رقم (١١) ، ووقت المغادرة الساعة الثانية والنصف تماماً . على الطائرة (أيبير يا) ثم مدت بوزها وكأنه فكي تمساح .. تهنئني بان الحظ كان من نصيبي لان بالطائرة مقعداً فارغاً واحداً لا غير ...

البحث عن الطائرة (أيبيريا) :

انطلقت الى الباب رقم (١١) ، فاذا به في آخر الصالة ، سرت نحوه ووصلته بعد ثلاثين دقيقة ، وأنا أحمل حقائبي ، ولولا عون الله وتوفيقه ، لنفقت من فوري للجهد الذي بذلته ، وكان فوق طاقه شاب في العشرين من عمره ، سألت عن الطائرة « أيبيريا » ، فلم أجد أحداً يمكنه أن يدلني عليها . استفسرت ، واستوضحت ، ورجوت واستعطفت ، ولا مجيب . الكل صم بكم عمي فهم لا يفقهون ، أو عنيدون بخلاء انذال عتاة ، لا يساعدون ولا يبذلون ... عدت أدراجي إلى جوسق هذه الأجوانة (والاجوانة نوع من الزواحف أو السحالى عظيمة الحجم .. موطنه البرازيل) وأقصد هنا سليلة الشياطين .. زوجةِ الميمون العجوز موظفة الجوسق « الايتاليا » السابق الذكر .. فطمأنت خاطري بابتسامة ، خرجت من بين شفتيها كأنها بصقة ، وارسلتني على أعقابي الى باب رقم (١١) لانتظر هناك حتى تأتيه الطائرة .. وهكذا قمت بهذه الرحلة لثالث مرة ...

إن الطيور على أشكالها تقع :

لم يكفِ أن ابتلى بمطار روما بهذا الإزعاج والطواف والجولان بين الجواسق ، بل قسم لي أن أتوه وأجول أيضاً في واد غير ذي زرع أخضر .. نباتاته شوك أزهارها غدارة .

جلست على أريكة لاستريح .. وكان يجلس بجواري رجل غريب الشكل ، يذكرني بالخرتيت في هيئته الكلية ، قصير القامة ، مؤخرته مدلدلة أي مدلاة كالمخلاة - كرشه كروي ، رجلاه في قصر معيب ، ذراعاه في طول مفرط ، تشبهان المجاذيف . رأسه يشبه جوزة الهند ، في عينيه حول متطرف .. أعجر .. أجعر . وفي جلسته يتراوح فيما بين النوم واليقظة ، وفيما بين الذكاء والغفلة ، فلم أتمالك الا أن أتعجب كيف أن القدر والظروف تحالفت وتجمعت وتآلفت في هذا المطار ، وفي هذا الوقت بالذات ، لتظهره بهذه الصورة البذيئة .. وكعادتي قلت في نفسي لعل في ذلك خير .. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .. وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . فالقبح يظهر جمال الحسن .. وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر .

جولات في وادي العقائد

الزرادشتي :

قرأت هذا الرجل السلام برقة ، فأجاب بأرق منها .. بصوت رخيم مثقف مصقول .. وقدم نفسه .. وتعارفنا فهو طبيب تخرج في جامعات إنجلترا .. ايراني الجنسية زرادشتي العقيدة .. وكنت قرأت عن « الزرادشتية » وغيرها من العقائد التي تتعدد في بـلاد آسيا . وتعرفت على طرف من فلسفاتها .. وكعادتي تجاهلت وسألته عن ماهية هذه العقيدة .. فقال لي إنه لا يهتم بتفاصيل هذه الأشياء ، وأنه نشأ « زرادشتياً » الا أنه يعرف فقط أن دينه هو عبادة النار (فجال بخاطري لفظ المجوسية) .

تجاهلت حتى ظن أنني جاهل :

فرحت جداً لوقوعه فريسة بين براثن فكاهاتي – وتندراتي وانزاح عن قلبي عبء الانتظار الطويل الممل الثقيل .. وبدأت أداعبه . بدأت حملة استغفال واستجهال ، وأخذت أسائله ، وأحقق معه ، عن شعائر وطقوس الزرادشتية ، ولم تنفعه محاولاته للتهرب ، لتضييقي الخناق عليه ، وأفهمته أنني أحب النار جداً ، لأن جدودي الفراعنة كانوا يعبدونها – وهذا غير حقيقي طبعاً – وقلت له إن النار طاهرة معقمة ، لأنها تستخدم لتطهير أي شيء ملوث بالميكروبات ، وأنني أنوي إنشاء معبد للنار في غرفة نومي رغم الحر الشديد بمصر . وذلك ببناء موقد في الجدار حتى يصبح للنار هيكلاً ، غير أنني استسمحته في ان أبلغ رجال المطافئ أعداء النار وقتلتها .. واستخدم كذلك مطفئات الحريق الحديثة ، فإذا عنّ لهذه النار يوماً أن تنحرف (كده والا كده) .. أو تطوف بلهبها هنا أو هناك ، أفاجئها بهذه المعدات التي تكون لها معدة وبالمرصاد ..

ثم استفسرت منه .. كيف يمكن أن نعبد النار ثم ، تستعين باعدائها عليها ؟ . . . فتمتم ، وأخذ يكلم نفسه بلغة لم أفهمها ، ثم نظر الي قائلاً (أنت لخبطتني) .. (ايه الكلام ده) (أنا عمري ما فكرت كده) .. (أهو ده عيبكم يا عرب يا بتوع ابراهيم .. تدخلوا في اللي مالكوش فيه ...) احنا مالنا .. المية والنار يعرفوا شغلهم مع بعض ... وبلاش خوته .. ولم يكن سيئاً في ألفاظه أو صورته ، بل كان متلطفاً

مبتسماً . تعجبت كيف يتعامل طبيب متعلم مثله مع الدين .. يتبعه دون فكر أو تعقل ، ولكني تذكرت غيره ممن يتبعون أديانهم ويتشبثون بخرافاتها .. ويحاولون تبريرها .. وتذكرت الهندوس .. الذين يعبدون البقر .. فلا يأكلون لحمها ولا يدبغون جلدها .. وكثيرون منهم يستعملون فضلات البقر بدلاً من الحناء وربما يستشفون بها ويتبركون ..

وحضرني ما قاله أبو العلاء :

عجبت لكسرى وأشياعــــه — وغسل الوجـــوه ببـول البقــر
وقول النصارى إلــــه يضــــام — ويصلب حيـــا لا ينــــتصر
وقــوم أتــوا من أقاصي البــلاد — لــرمي الجمــــار ولثم الحجــــر
فواعجبــــاً مـن مقـــالاتهـــم — أيعمى عن الحــق كــل البشر ؟

الداخل فيما لا يعنيه يسمع ما لا يرضيه :

وعندما أخذت أبين له ما قرأته وعرفته عن الزرادشتية وفلسفتها ، اتجه نحونا رجل قصير القامة ، بعوينات سميكة العدسات جداً ، تظهر من ورائها عيناه مثل عيني الدجاجة .. له لحية كثة بشرته قمحية (على بني) .. وقرأنا السلام باللغة الانجليزية ، بلهجة مثقفة جداً .. تدل على سعة ، واطلاع ، وقراءة ... اعتذر لاقتحامه مجلسنا ، وقال (إنه لم يسعه بعد أن سمع طرفاً من حديثنا .. أن يتمالك نفسه واتجه الينا مستأذناً ليشاركنا فيه) . فقلت في نفسي (زيادة الخير خيرين) قال هذا الرجل (إنه من عشاق دراسة الاديان الشرقية والشيع الاسلامية .. لما فيها من عمق في الفكر والفلسفة ، وتأثر كثيراً من الشعوب بها) . وبطبيعة الحال سرني ذلك جداً .. متوقعاً أن هذا الرجل سوف يرفع عني ملل الانتظار في هذا المطار غير المرحاب .. اتضح لي بعد برهة قصيرة ، أن هذا الرجل موسوعة فياضة .. وفهمت أنه تخرج في (جامعة كيمبردج) في انجلترا وحصل على دكتوراه في الفلسفة . وهو يقوم بتأليف كتاب عن فلسفات الأديان الشرقية .. وهو هندي من البنجاب ..

بدأ حديثه بتوضيح علاقة الزرادشتية بغيرها من الأديان القديمة الفارسية ثم عكف على كيف أن المسلمين تأثروا بالاسرائيليات التي أطلقت لإفساد عقائد المسلمين . ومما أذاعوه من هذه الاسرائيليات ، حديث نبوي مكذوب .. يقول بأن المسلمين سينقسمون اثنتين وسبعين فرقة .. ولا يدخل الجنة منها إلا أتباع واحدة من هذه الفرق ..

وهكذا ، انشقت عن المسلمين فئات عديدة تدعي الإسلام .. وخرجت عن تعاليمه وشرائعه ..

وكان من هؤلاء الاسرائيليين « عبد الله بن سبأ » ، الذي عاهد نفسه (لنقمته وحقده على الاسلام والمسلمين) أن يحاول جهد ما يستطيع ، تقويض أركان هذا الدين الحنيف ، فظهر في الكوفة متظاهراً أنه أحد أئمة المسلمين ، فتبعه أناس كثيرون . نشر تعاليمه في كتاب ليس له أي علاقة بالاسلام ، وما زالت الى يومنا هذا تتمسك بتعاليمه طائفة من المسلمين المخدوعين .

انطلاق في أدغال التاريخ :

ولم أكد أستفسر واستوضح هذا الأمر الغريب ، حتى انطلق هذا الرجل يحكي لنا الكثير مما خفي علي .. وأخذ يعدد المذاهب المعروفة منها والغريب الذي لا أعرفه . منها الصابئة ، والرافدة ، والعلوية ، والاسماعيلية ، والعلي اللاهيه ، واليزيدية . وعندما قلت له : (إني قرأت أن اليزيديين يعبدون الشيطان) ضحك .. ويا ليتني ما تكلمت لأنه استوى جالساً .. ثم تنحنح وقال لنا في صوت هادئ رصين كأنه يلقي محاضرة .. أو يتكلم في ميكروفون .. وأخذ يفسر ما هية اليزيدية ..

ولما كان أمامي متسع من الوقت ، في هذا المطار غير المضياف المسيء ، فضلت أن أستمع لحديث هذا الثرثار . ولطرافة ما حدثنا به ، لا أرى بأساً من أن أورده هنا .

اليزيدية :

هم طائفة يدعون أنهم من المسلمين ، وأساس ديانتهم أن الله خلق آدم من تراب . أمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا الا كبيرهم ، لأنه هو الذي نقل الأمر الى الملائكة بالسجود ، نزولاً عند رغبة الخالق .. واسم رئيس الملائكة هذا (طاووس الملك) بفتح الميم واللام ...

والواقع أنه بعد الاضطرابات والانشقاقات التي حصلت بين المسلمين ، وخاصة بعد مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه في كربلاء ، على يد الأمويين ، ظهرت الشيعة على أكبر ما تكون ، وكذلك الخوارج ، والمعتزلة ، واليزيدية ، وغيرهم .

يسكن اليزيديون في الشمال الغربي من « العراق » في منطقة جبل (سنجار) وما يحيط بها من قرى ، حتى تتعدى قراهم الحدود العراقية السورية والتركية . يعتقد

اليزيديون أنهم ينتسبون إلى « يزيد بن معاوية بن أبي سفيان » ، وانهم من سلالته وانهم أمويون رغم أنهم من أصل آري ، ولغتهم اللغة الكردية وليست العربية .

وتنحدر عقيدتهم ابتداء من « الله » .. ثم « بطاووس الملك » .. ثم « بيزيد » . وهم يصلون مرة واحدة في اليوم ، صباحاً أو مساءً ، ويحجون كل عام ، وقد اتخذوا لأنفسهم موقعاً « كعرفة » عند المسلمين .. فيرتقون جبل « لاش » بدلاً من جبل الرحمة في « عرفات » . وتسمى المساجد عندهم « طوافة » (بفتح الطاء والفاء) ، وطبقة النبلاء عندهم هم عامة الشعب ، من الرعاة والفلاحين ، الذين لا يملكون شيئاً أما طبقة الفقراء فهم رجال الدين ويملكون كل شيء .. الماشية والأرض . من هذه الطبقة أي طبقة الفقراء يبرز رجال الدين ، وهم لا يستحمون قط إلا عند ولادتهم ، ويلبسون « لبادة » وهي رداء من الصوف السميك ، وفوقها يلبسون الملابس العادية النظيفة ..

اليزيديون لا يحلقون ذقونهم ولا شواربهم ولا شعورهم — التعليم عند اليزيديين حرام وقبل عشر سنوات فقط ، ظهر منهم من يعرف القراءة والكتابة . رئيسهم الأعلى هو « الأمير » ويسكن في منطقة « الشيخان » بمحافظة « نينوى » بالموصل . وكل عمل الشعب هو « للأمير » ، حيث يخرج من بيته في كل عام تمثال للطاووس ، مرصع بالاحجار الكريمة والذهب ، ويجولون به في قرى العراق وسوريا وتركيا وأرمينيا لجمع الهبات « للأمير » ثم يعاد الطاووس لبيت « الأمير » ..

ويعتقد « اليزيديون » في الشيخ « عبد القادر الكيلاني » والشيخ « عدي بن صالح » الذي يسمونه الشيخ « عادي » . وهم لا يأكلون الخس أبداً ، فهو عندهم حرام — لاعتقادهم أن الشيخ « عادي » عندما كان سجيناً منع عنه الطعام ، وكان حراسه يلوثون أوراق الخس بفضلاتهم ويرمونها عليه .. لذلك اذا رميت ورقة خس أمام بيت يزيدي لا يخرج من البيت لأي سبب كان ما دامت ورقة خس أمام الباب . والخمر عند اليزيديين حلال زلال .

ومن عاداتهم انه اذا كان لأحدهم صديق مخلص من غير دينهم ، وكان لليزيدي ابن يراد ختانه ، فانه يضعُ ابنه في حجر هذا الصديق ، حتى تتلوث ثياب هذا الصديق بدم ختان الابن ، عند ذلك يصبح هذا الصديق اخاً روحياً « لليزيدي » .. ولا يكون بينهم الا ما حرم الله حسب قولهم ، أي أن الصديق يرث « اليزيدي » في كل شيء كأخ له من أبويه . وليست « اليزيديه » ، بأغرب من جماعة « الشيبي جم » ومعناها ليلة الجمع .

جماعة شيبي جم (بتعطيش الجيم) :

في منطقة (كرند) بكسر الراء .. في ايران طائفة دينية صغيرة . تجتمع في فترات دورية منتظمة ليلة الجمعة ، في ايوان شيخ القبيلة الواسع ، ويذهب الى هذا الاجتماع جميع أفراد العائلة المتزوجين نساء ورجالاً ، ممن تجاوزوا سن الثامنة عشرة عاماً ..

يجلس الرجال في الايوان والنساء في السطح .. وبعد تناول العشاء ، تغلق أبواب الايوان كلها ، أو تطفأ الأنوار جميعها ، وتبدأ النساء في السطح على ضوء القمر . أو في الظلام في التخلص من لباساتهن الطويلة .. وهي نوع من « السراويل » أي « الشروال الطويل المصنوع من الحرير » أوغيره من الأقمشة الرقيقة .. وترمي كل امرأة سروالها من كوة صغيرة . موجودة في سقف الايوان .. فيلتقط كل رجل داخل الايوان المظلم سروالاً واحداً ...

وبعد أن ينتهي العدد ، تنزل النساء من السطح ، وينتظرن خلف أحد أبواب الإيوان المغلقة ، ويبدأ الرجال وهم في الظلام في أن يخرج كل واحد منهم طرف السروال الذي التقطه ، في فتحة صغيرة في الباب ، واحداً بعد الآخر .. وتمر النساء في الخارج ، ويتفحصن طرف السروال الظاهر من فتحة الباب الصغيرة . فاذا تعرفت أي واحدة منهن على سروالها تمسك به ، وتشده اليها ، فيخرج الرجل من الباب ويلتقي بها ، ويصطحبها الى ركن في داخل القاعة الكبيرة وينالها .

وهكذا الى أن ينتهي الجميع رجالاً ونساء من الالتقاء . وتسمى هذه الليلة (ليلة الجمع) « أو شيبي جم » بالفارسية . ومن شروط هذا اللقاء ، أن تشترك فيه النساء المتزوجات فقط مع أزواجهن ، ويحرم على العذراء أو غير المتزوجة أو الأعزب الاشتراك في هذه الليلة ، لأنهم ناقصو دين على حد اعتقادهم .

طقوس عن قدماء العراقيين :

وليست هذه الطقوس الغريبة مستحدثة ، إذ كان يدور مثلها عند قدماء العراقيين ، في وادي الرافدين قبل ستة آلاف عام .. ولم تكن الكتابة معروفة في ذلك الوقت ، إلا أنه عثر على لوح من الطين في وادي الرافدين ، كتب عليه من حوالى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد عن عادة تشبه « شيبي جم » ، فلقد كان معبد (أنانا) أو عشتار أو (عشتروش) وهي آلهة الحب والجنس عند قدماء العراقيين ، يضم نساء كثيرات ، يسمون بغايا المعبد أو كاهناته ، ترأسهن امرأة تدعى رئيسة البغايا ، وكان لهاتيك البغايا

يوم معين ، يجلسن فيه أمام المعبد .. فيسير الرجال أمامهن ، وكل رجل يمكنه أن يرمي بقطعة نقود مهما صغرت في حجر أي بغي . فتذهب معه الى ركن من أركان المعبد ، وينام معها .. أما رئيسة البغايا ، أو البغي الأولى ، فهي دائماً من نصيب الملك . كانت هذه العملية تسمى (الجماع المقدس) ويظهر أن هذه الطقوس استمرت منذ القدم ، وبقيت آثارها في المناطق القريبة أو التي كانت خاضعة لنفوذ مملكة « الوركاء » الأولى و « السوماريين » و « البابليين » وحتى « الأشوريين » ومن بعدهم .

الزواج الجماعي :

في الهند طائفة تنتمي الى الاسلام حسب ادعائها ، لها عادة في الزواج ، وهي اذا تقدم أي شاب لخطبة أي فتاة من عائلة ، فانه لا بد أن يخطب كبراهن .. وفي ليلة الزفاف تزف اليه عروسه ، مع جميع اخواتها اللاتي تجاوزن سن الثانية عشرة، ويكن جميعاً زوجاته ، ويمكن لأي خطيب آخر أن يخطب أي أخت من أخوات زوجته ، وللزوج حق الرفض أو الموافقة ، وفي حالة الموافقة .. على الخطيب أن ينتظر ثلاثة أشهر . ترجع الفتاة المخطوبة لبيت أبويها ، بغرض التأكد من أنها غير حامل من زوج أختها . فإن ظهرت عليها علامات الحمل ، تفسخ الخطوبة ، وترجع إلى بيت زوج أختها ، وتصبح زوجة ثانية له .. وإذا لم تظهر عليها علامات الحمل ، تزف إلى خطيبها وتزف معها أخواتها الأصغر منها ، اللاتي قد يكن قد بلغن سن الاثنتي عشرة سنة ، من اللاتي ما زلن في بيت أبويهن .. هذا مع أن الإسلام يحرم قطعاً الجمع بين الأختين في وقت واحد ..

وتدعي هذه الطائفة الاسلام ديناً ... وتقوم بمعظم شعائره في الصوم والصلاة والحج والزكاة والشهادتين ، غير أن هذه العادة تطرقت إليهم من عادات طوائف قديمة جداً .. وصلت إليهم ولم يتخلصوا منها لأنهم لم يروا فيها أي مساسٍ بالشرف .. أو أي مخالفة لتعاليم الإسلام وأوامره ..

ويقال عن طائفة ، السيخ بالهند .. إنه إذا مات الرجل يحرق مع جثته كل ما يملك من نساء وحيوانات ويدفن مع رماده المتخلف كل ما يملك من جواهر وغيرها ، ولكن ممارسة مثل هذه الأمور لا تجري الآن لأنها مخالفة للقوانين المدنية .

روح القطيع في البشر :

كان حديث هذا الرجل طلياً .. واستمعت اليه .. كما استمع اليه الزرادشتي ، دون

أن نقاطعه أو نناقش ما جاء في سرده .. وعندما انتهى الى هذا الحد قلت له ، خلق الانسان ليكون فرداً في الجماعة .. ولا يتيسر مطلقاً لانسان أن يعيش منفرداً في هذه الدنيا ، فقاطعني الزرادشتي قائلاً إن الاشتراك الجنسي كان عند الانسان القديم ، وانه يعلم ان ممارسة الجنس جماعة واختلاطاً يمارس الآن دون حياء في بعض بلاد أوربا .. بين الجماعات وهي ظاهرة واضحة في جماعة من « الهبيين » أو « الأهبة » أو « الهباهبة » أو « الهبابة » أو « المهببين » (سمهم ما شئت) .. وبدأ يبين أن الاشتراكية هي الاشتراك في كل شيء من ممارسات الحياة ... فاستعذت بالله من هذا الشر الذي ينبثق من هذين الرجلين ، وعبثاً حاولت أن أحول الحديث نحو مجريات الأحوال في العالم الثالث ، الذي نعيشه ، ولكن محاضرنا أصر على الرجوع إلى موضوع عبادات الشعوب وطقوسهم وآثارها على المنحدرين منهم ... وأخذ يبين ما تمارسه الجماعات في الاشتراك في كافة أنواع الممارسات حتى الحزن .. وفيما يلي طرفاً مما سرده ..

الحزن الجماعي :

حضارتا وادي النيل ووادي الرافدين من أقدم حضارات العالم التي عرفتها البشرية وتأثرت بها .. وما زالت بعض طقوسها القديمة تمارس في بعض الشعوب إلى يومنا هذا ، مثل الحزن الجماعي . في وادي النيل مثلاً كان يقام احتفال كبير لممارسة الحزن الجماعي . بعد ان يضحى بعذراء ترمى في النيل المقدس ليخف غضبه ويتقلص فيضانه .. وكانت المعابد تقيم ألوف الوافدين يقدمون القرابين والنذور ، وهم يبكون ويولولون ويضربون على أفواههم ويلطمون الخدود ، ويشقون الجيوب ، وينثرون التراب أو طين النيل على شعورهم واكتافهم . فحاولت أن أقاطعه لأمحو هذا .. لأنني اعلم أن يوم وفاء النيل كان عيداً وفرحاً ، لا حزناً .. وان عروس النيل كانت دمية أو تمثالاً ولم تكن أبداً عذراء ، أو ضحية بشرية ، لأن التضحية البشرية لم تمارس في مصر على طول تاريخها قط ولربما وصفه لهذا الحزن كان في جناز فرعون مصر . ولكن هيهات .. اذ استمر هذا الاذاعي دون هوادة في وصف حزن قدماء العراق الجماعي .

كان قدماء العراقيين منذ ستة آلاف سنة يؤمنون ، بإله للخصب والنماء ، يمثل برأس ثور وسموا هذا الاله (تموز) .. وفي يوم نزول (تموز) إلى العالم السفلي عالم الموتى .. تقام المآتم الجماعية في المعابد وفي الشوارع .. فيضرب فيها على الأفواه

وعلى الفخذين ، وينثر التراب ، أو الطين على الشعور وعلى الأكتاف . فهو يوم الحزن الجماعي .

اشتراكية الحزن :

ولما كنت بطبيعتي أكره الحزن وما حوله .. لم أطق صبراً واستأذنت في الانصراف فكاد هذا الرجل يمسك بتلابيبي ويمنعني من الانصراف . فتخلصت منه بشق الأنفس وتركت الزرادشتي واقعاً في براثن هذا الثرثار .. وكنت ألاحظ أن هذا الزرادشتي كان يحاول الفرار هو الآخر . ولكن كان الرجل الثرثار ينظر اليه خلال عويناته السميكة بعينين يخال لمن ينظر إليه أنهما عينا أفعى أو تمساح .. فلا يلبث أن يقع تحت إرادته مغناطيسياً . ولا أدري ما الذي جعلني أتحاشى نظراته ، عندما كان يسرد قصصه وتواريخه .. ولكن الزرادشتي المسكين انهار تحتها ، وتسمر في مكانه كأنه فأر أمام هر كبير .

حفلات المآتم في مصر :

وفي طريقي مبتعداً عن خوتة الدماغ .. لم تفارقني فكرة الحزن والمآتم ، وكيف انه من زمن قريب جداً ، كان المأتم في القاهرة معرضاً لانفعالات الحزن واللطم والصوات وكان المأتم كأنه احتفال تغني فيه الندابات المحترفات ، ويشترك في هذا الحفل الحزين (اللي هوا في الواقع ما هواش حزين) كل من هبت أودبت من النسوة اللاتي يطلقن الصوات الجماعي كأنهن (« كورس » بفتح الراء) . وراء المطربة التي تطر بهن بالندب الغنائي وبقرع الدفوف .. فيقمن بالرقص اللاطم .. ويرجرجن رجراجاتهن ويدخلن في دنيا الهستريا .... بينما الندابة تغني قائلة مما يشبه الآتي :

كان له بيتين .. وكان له بتين
وكان له طاحونة وعصاره

... إلى آخره .

فتصيح النسوة بصوات (سوبراني) الطبقة بـ (يا دهوتي) وتدق الدفوف (برثم) أي وتيرة تخلع مفصلات ابواب القلوب ..

وهكذا تلطم الخدود فتتورد ، وتذرف الدموع فتدبل العيون العمش أو الجاحظات

وتزور وجوههن مسحة من الجمال الحزين المغري المجلل بالسواد .. فتتباين بشراتهن وعيونهن وحمرة خدودهن .. فكأنه المكياج (الماكسفكتوري) .

حائط المبكى اليهودي :

ثم مر بخاطري حائط المبكى في القدس .. حيث يتجمع اليهود في مندبة جماعية كأن الحزن وليمة وذرف الدموع والآهات موسيقاها.. يندبون سوء حظهم في احتفال أظن انه يهيج .

الاشتراكية طبيعة الانسان :

تواردت علي الأفكار والتخيلات .. وبدأ يطوف الخيال بي في ظلمات العادات ، القديمة والطقوس ، وتبادر الى ذهني أن الجماعية والاشتراكية طبيعة الاشياء في البشرية فافرادها عن بكرة أبيهم ما عدا النساك والشواذ ، يحبون التجمع في صعيد واحد متكاتفين ، فيتشاركون في الفرح ، والحزن ، والأكل ، والرقص ، والفرح ، واللعب والحرب ، .. والأذى ، .. وفي كل مناحي الحياة الاجتماعية . وتذكرت انه علي أن أجد الطائرة « الأيبيريا » .. التي خفت أن تكون قد فاتتني وأنا غارق في لجج التاريخ ، وحتمية الاشتراكية ، وفساد الفردية والانفصالية عن المجتمع ، فانطلقت حاملاً أمتعتي باحثاً عن الطائرة التي سأستقلها إلى « مدريد » .

ابنة الشيطان

البحث عن الطائرة :

هرولت أبحث عن الطائرة .. فلم أجدها عند الباب (١١) ، فاتجهت نحو جوسك أي (كشك) « الايتاليا » ، حيث الاجوانه البشرية القميئة القبيحة ، لثالث مرة . وفي أثناء سيري في الصالة الطويلة ... الطويلة .. جداً لمحت طائرة تستعد للرحيل ، وقد امتلأت بالركاب بعيدة جداً عن باب (١١) ، فاستبعدت أن تكون طائرتي .. وخاصة أنه رغم بحثي المتواصل لم يخبرني أحد ممن سألتهم .. أو رأيت دليلاً واحداً على أن الطائرة لن تكون عند الباب (١١) ، ولم يخطر على بالي قط أن هذه المخلوقة ، تريد أن تضللني عامدة متعمدة ، وخصوصاً واني كنت معها في منتهى الرقة والأدب وغمرتها بابتساماتي وبعبارات التحية المنتقاة ، اللطيفة . ولم أتوقع بتاتاً أنها تبغي أذيتي – ولكني تذكرت مرض السادية التي شاهدت أعراضه في ضابط مطار القاهرة .. وتشككت في أن المطارات لا بد أن تكون موطناً لفيروسات هذا المرض وميكروباته .

وبينما كنت ذاهباً آيباً في الصالة التي طولها ساعة وعرضها دقائق ، حاملاً أمتعتي وكدت أسقط من التعب .. رأيت رجلاً حسن البزة محترم المظهر ، أبيض الشعر ، وسيم الطلعة .. توسمت فيه خيراً .. فرجوته أن يرعى أمتعتي حتى أرجع . توجهت مسرعاً نحو جوسك (الايتاليا) حيث ابنة الشيطان .. وعندما وصلت عندها ، رايتها في حالة حبور وسرور وزقططة .. تكاد ترقص طرباً .. فاستبشرت خيراً .. ولما سألتها (أين طائرتي) ؟ .. قهقهت ضاحكة .. وقالت (الطيارة سافرت خلاص) فكدت أفقد صوابي وسألتها (لماذا قمت بهذا الفعل الذميم .. وأنا لم أسئ إليك قط ؟) قالت (أنا مالي أنا مش من بتوع أيبير يا) ولم أدرِ ما حدث لي .. فتصورت هذه المرأة حيواناً أسطورياً ، خليطاً فيما بين العقرب والذئب والثعلب والتمساح فبدت في ناظري عفريتاً ، بهيئة مخيفة ، تستحق أن تلطم أو تخرق عينيها .. وأظن أنها لاحظت ما في عيني من احمرار ، يكاد الشرر ينطلق منهما .. فنفرت كأنها قرد أو كنغر .. .. فكدت أصيح بها (يا رفيقة ، الشيطان يا مبعثة الهم والغم ، يا خبيثة المنبت ، يا بنت الأحبة

(بكسر الحاء وفتح الباء مع تشديد ...) لأني مش قبيح (ولا يمكنني التلفظ باللفظة الشائعة الأخرى) إلى آخر هذه الألفاظ التي تطلق في مثل هذه الأحوال .. في أزقة القاهرة وحاراتها .

ووجدك ضالاً فهدى ..

بينما أنا في حيرة ، راجعاً أعقابي ، رأيت بالصدفة رجلاً في زي رسمي يطوف متفحصاً أوجه الناس ... يسائلهم ، فتوجهت نحوه مستفسراً ، شاكياً هذه الأفعى الرقطاء السامة .. البغيضة .. وأريته بطاقة الطائرة .

فبادرني قائلاً .. (أنت فين ؟ ؟ ؟) احنا بندور عليك دي الطيارة مستنياك بقلها خمستاشر دقيقة .. الدنيا مقلوبة عليك) فرجعت أبحث عن أمتعتي ، فاذا بها اختفت .. فكدت أنفجر من الغيظ ، وزادت حيرتي .. اذ أنني كلما خرجت من مأزق ، وقعت في مأزق آخر .. ولكنني بدأت أسأل وأتوسل وأسترشد بالاستعطاف تارة وبالرجاء تارة أخرى . وبعد يأس كاد يقتلني ، علمت أن الرجل الذي توسمت فيه خيراً هو أيضاً ابن أمة (بفتح الميم) وابن أحبة (برده بكسر الحاء وفتح الباء مع تشديد) سلم أمتعتي للشرطة ، وانصرف دون أن يذكر لهم أنها أمتعتي .. بل أخبرهم أنه وجدها دون صاحب .. فحمدت الله وشكرت فضله ، لأنه لم يسرقها أو يفر بها .. وتشككت انه ربما كان ينوي الفرار بها وضبطته الشرطة .. ولا أقص على القارىء ما قاسيته لاسترداد هذه الأمتعة من الشرطة ، لأنهم ظنوا بي الظنون وكانت نظراتهم الفاحصة . مخيفة ، مقلقة ، تنرفز أيوب عليه السلام ، ولولا تدخل رجل المطار الذي كان يساعدني حتى لا تتأخر الطائرة ، لقضيت ليلتي في هذا المطار الجهنمي .

أنا (ڤي – آي – بي) : (ڤرى . امبورتانت . بيبول)

والواقع أن ركاب الطائرة (أيبيريا) علموا أنني سبب تأخرهم ، فأصبحت عدوهم رقم واحد .. ولولا أن تذكرتي من الدرجة الأولى الممتازة .. وخيل لرجال الطائرة أنني رجل (ڤي – آي – بي) أي (ڤري امبورتانت) .. وهذا رمز طيراني لعظماء الرجال لتركوني بروما وانطلقوا بالطائرة بدوني .

الهجاء كالدعاء وسيلة العاجز المتحير :

عندما استقر بي الحال في مقعدي الوثير الذي بحمد الله كان يحميني من نظرات

الركاب الحادجة الثائرة المغيظة . فكان سداً مانعاً مما أخاف وأحذر ، دار في مخيلتي ما حدث في هذا المطار الخبيث . وتذكرت الأوقات التي قضيتها ذاهباً آيباً في هذا المطار السردابي الطويل .. حاملاً الحقائب والمثقلات التي كادت تؤدي بي إلى ما لا تحمد عقباه .. وكذلك المتاعب والمآزق .. ولولا الفكاهة والتندر والقصص الغريب مع الزرادشتي والبنجابي الثرثار لانفجر في رأسي شريان .

هجاء مسجدع .. و .. (كلام فارغ) ..

عندما ارتدت الي أنفاسي ، وشعرت بأمان المكان ورتابة طيران الطائرة .. هاجتني الرغبة في الترويح عن نفسي بالهجاء .. ولما لم يكن الشعر والنظم من مناقبي .. كما أني لست على دراية بالعروض وغيرها من مقومات النظم ، تزاحمت في ذهني ألفاظ بذيئة تناسب ما حدث لي من أحداث رهيبة في هذا المطار .. وأخذت تدفق كالغازات – الخارجات من شكمانات السيارات (الشكمان) هو أمبوبة العادم من المحركات ذات الاحتراق الداخلي ، وسماها بعض أفاضل اللغويين الكاظمات وتخرج غازات العادم في نفثات متقطعات تلوث الجو وتسمم مخاليق الله كل نفثة بلفظة مما سأورده بعد .. من هذا الهراء الذي لا يلام عليه الا هذا المطار الجحيمي ..

* روما حنانيك واغفري لنسات

(مع المعذرة لأمير الشعراء)

* أين روما فتياتك الجميلات ؟
* في مطارك روما رهط من الفتيات
* في القبح والشر والأذى متفوقات
* مستهترات قاسيات خادعات
* يكشفن عما ابتلين من قباحات
* ويظهرن ما لا يسمى من العورات
* يا لهن من حوات هن حيات
* ينفثن السم زعافا في الرجالات
* يخدعن يقرصن يلدغن مع القبلات
* فيهن واحدة لها السحل والعذابات
* هي سوء وشر ومصدر للمصيبات

* اقبرها يا ربي فريسة لناكر والنكيرات
* يرقعانها بالمرازب ينتشاها بالكماشات
* ويلقيانها في أحضان الجمر واللهبات
* طوبى لمصرياتنا السمر العربيات
* ذوات السحر والفتنات الطاغيات
* فهن الأنثيات والباقيات البيض الباهتات
* ركش يوضعن في حدائق الحيوانات
* يعرضن على الغادين والرائحات

روما كما تخيلتها :

كانت روما في خيالي مهداً للجمال ، نساؤها نجوم ساطعات فتعجبت لانطلاقي بهذا الهجاء الرديء الممقوت ، فلا بد أنه ربما كان وضع هذه السحلية الاجوانية القميئة القبيحة في مطار روما ، بقصد دفع أذى الحسد أو العين زي الفاسوخة لحماية جمالات روما من العين الحاسدة (الفاسوخة قطعة من مادة راتينجية توضع لمنع الحسد ولتحصين حاملها ضد العين الشريرة . وتلصق عادة في منتصف جبهة الأطفال الصبيان .. حتى لا تقصف العين عمرهم) ، وهذه بقية من (خزعبلات القرى) أو من المعتقدات العتيقة عند قدماء المصريين .

بين روما ومدريد ترحيب وأنغام لها ترديد

بالطيارة الأيبيرية ضيافات أميرية :

غفوت لحظة في مقعدي إثر ما نالني من تعب واجهاد قبيل صعودي الى الطائرة التابعة لشركة الطيران (أيبيريا) . « أيبيريا » هي أسم لشبه الجزيرة التي تتكون من دولتي إسبانيا والبرتغال . نبهني من غفوتي صوت ناعم رقيق . بنبرات ملائكية . وتخيلت وأنا بين النوم واليقظة ، أنني بدار « الصفا والحكمة » . أسبح في سماء النغم بين مصوراتي وكتبي .. وتبدد هذا الخيال لأرى صينية عليها مشهيات مشكلة ، تقدمها سمراء مها والقلب لها .. شرقية الجمال ، عربية السحر ، موردة الخدين قوامها كغصن البان .. وتوالت علي أنواع وأنماط من أشهى المأكولات ، تتخللها سقاية ، وخلالها موسيقى حالمة تهدئ الأعصاب الثائرة .

لاقيني ولا تغديني :

هبطنا في مطار « مدريد » ... « مدريد إسبانيا » ... بلاد السياحة والفن والجمال .. مررنا بحواجز الجمرك .. و بموظفيه وشرطته ورجال الأمن فيه .. بسرعة و بهدوء .. وخيل لي أن الجماد بعد البشر يكاد يرحب بالقادمين .. وكأن الشرطة أخوان نقابلهم بعد غيبة . هيئ لي أن رجال الجمرك يريدون أن يضيفوا الى أمتعتنا هدايا بدل العبث بما فيها .. أو اقتباس بعضها ، كما يحدث في بعض الجمارك الأخرى . وكأننا عدنا الى أحباب فارقناهم من سنوات .. فتأوهت وحزنت عندما تذكرت ما يحدث لنا في مطار القاهرة .. وكيف نحشد في صفوف طويلة .. وبعبث أمتعتنا .. وبطول انتظارنا .. وكيف يعامل بعض المسافرين معاملة فظة غير كريمة .. ولكني رجعت الى نفسي ، وتألمت عندما تذكرت ما بليت البلاد به ، من أناس غالبيتهم أغراب وأجانب يسيئون إلى مصر بالتهريب وغيره ، مما يضر اقتصادياتها وما تعانيه الدولة من جهد وتعب لحماية البلاد من هؤلاء . لأن اسبانيا قد طهرت نفسها من مثل هؤلاء ... فاستطاعت أن ترحب بالزوار والمسافرين اليها ، وتعاملهم هذه المعاملة الكريمة (عقبال عندنا) . أي العاقبة عندنا ! !

استقبال مهيب ولكنه مريب :

كان « شكري » في انتظاري .. واستقبلني استقبالاً لم أتوقعه .. وكان في صحبته رهط من الناس في هيئة علية القوم ، مختلفي الجنسيات ، وخيل لي وقتئذ أنني أمير أو سفير وتصنع شكري احتراماً يزيد عن الحد بكثير ، بمبالغته في الانحناء والاحترام والتبجيل ، ... وقدمني لرفاقه بقوله .. ها هو أستاذنا العظيم الخبير العالمي ، الذي وعدتكم به ... هلع فؤادي وتوقعت من هذا شراً .. (خبير ايه وبتاع ايه .. لا بد أن وراء الأكمة وما وراءها) ... ولكن لا أنكر أن شيئاً من الغرور أخذ يتسلل إلى فؤادي . فطردت المخاوف والأوهام ... وظهر لي من بعيد شبح النرجسية المعيب .

ثم قدم لي الحاضرين واحداً واحداً .. ولكن هيهات أن أتذكر ما قال ، وذهني مشحون بأشياء كثيرة وجديدة ... ولكني لم أنس فتاة وسيدة وشاباً ، وقال لي (إنهم هيئة سكرتارية مكتبي) .. فهلع قلبي مرة أخرى .. (هل هيأ لي شكري مكتباً ؟) ، لأني ظننت في ضيافة أو زيارة سياحيـة . انطلق هذا الحشد يحيطني كأنني أمير بين حاشيته ، وكان رتل من السيارات في انتظارنا وكانت السيارة المخصصة لي طويلة فارهة فاخرة .. سائقها في بذلة رسمية بأزرار ذهبية وقبعة (كاب) ..

اتجه هذا الرتل الى مدريد المدينة و« شكري » بجواري ، يرحب بي ترحيباً لم أتعوده .

الفصل الثالث

المال .. المال .. وسوء المآل

الحرس : (بفتح الحاء والراء)

وصلنا فندق (أيرو بلدنج) وهو من فنادق الدرجة الأولى .. وقادني شكري وهيئة السكرتارية الى جناح في هذا الفندق محجوزاً لي .. فاخر الرياش .. ودعني شكري بعد أن عرفني بهيئة سكرتاريتي .. الفتاة تريزا ، تخطت العشرين من عمرها .. جميلة المحيا مليئة القوام ، سمراء شرقية الملامح ، نشيطة ، دينمية ، تتكلم الانجليزية بطلاقة ، وهي سكرتيرتي الخاصة ، والسيدة (ماريا) تخطت الأربعين ، وهي سكرتيرة المكتب ، صارمة الملامح ، غير بسامة في هدوء ورزانة ، والشاب (الفارز) السكرتير المالي للمكتب ، ثم قدم لي رجلاً عظيم الجثة .. غريب الملامح ، نظراته ثعلبية ذئبية دبية أوزية نفاذة ، تخفي وراءها خليطاً من الذكاء والمكر والمرح والهبل ، اسمه ماريانو انحنى أمامي انحناءة عظيمة ، ورحب بي ترحيباً حاراً بانجليزية طليقة ، ثم استأذنوا جميعاً في الانصراف وكانت الساعة السادسة بعد الظهر بتوقيت مدريد .

اللي ما له خدم ، حاله عدم :

لم أكد أنفرد بنفسي حتى استأذنت وصيفة الغرفة في الدخول ، « سيدي هل لي أن أعد لك الحمام ــ وأرتب أمتعتك ؟ ــ أي بدلة ترغب في ارتدائها الليلة ؟ » وكان لا بد لي أن أقوم بدور الرجل الذي يناسب هذا المقام ، فأجبتها بما يناسب .. وجلست أفكر في هذه الحالة .. لازم شكري اتجنن ، ده أنا كنت أفضل غرفة عادية من غير الألبنده دي ، شكري قصده ايه ؟ مين الناس اللي قابلوني دول ، لازم شكري عايز يستعرض هيلمان فلوسه ، ودار بي الخيال في دنيا التكهنات ، ولكن لم يخطر على بالي شر أو سوء .

قفص ذهبي كبير :

تلفت يمنة ويسرة ، وبدأت أستكشف هذا الجناح الفاخر ، الغرفه الرئيسيه فسيحة مفروشه بسجاد وثير سميك ، وفي طرف منها بوفيه أو بار فاخر مشيد بالرخام الأسود في هيئة فنية جميلة واسع مليء بأطايب الطعام والشراب الغالي النادر ، وبه ثلاجة كهربية مفعمة بالأطعمة المختلفة وموقد غازي جميل وأدوات عديدة ، في غاية الذوق ، وفي

حجرة مجاورة مكتب ومعدات سكرتارية وأجهزتها ، وفي حجرة النوم سرير فاره ، يستطيع النائم فيه أن « يبرجس » أي يتحرك بحرية يميناً ويساراً ، أماماً وخلفاً تدحرجاً أو تقلباً أو تقفزاً ، وثير مثير ، سطيح مريح ، على رأسه اطار مزين بالنقوش والرسوم وعليه أزرار تحكم ألكترونية للتليفزيون والراديو والاضاءة ، غير صور زيتية رائعة ، مكيف الجو ، أما الحمام فحدث عنه ولا حرج ، مهيأ بكل حديث جميل حوضه غاطس بأرفف رخامية عليها أنواع العطور وغيرها من مستلزمات استحمام الغواني ونجوم السينما وليس لخلق الله ، أو الجرابيع الشعبيين أمثالي ولا ينقص الحمام سوى حليب الحمير الذي كانت أمنا البارة كليوباترة تستحم فيه ، وعندما أنهيت استحمامي شعرت وأنا أتجفف بالمنشفة (البشكير) كأنها غادة تعانقني من نعومتها ووثارتها وأريجها .

خرجت من الحمام لأرتدي ملابسي ، فوجدت كل شيء معداً تماماً ، بذلتي مكوية والقميص وملحقاته معدة وكذا الجوارب والحذاء ، وعندما نظرت في الدولاب وجدت دستة قمصان ودستة جوارب ودستة كرافتات أعدها شكري لي غير أدوات من مستلزمات ملابس الرجال ، وكانت زوجتي جزاها الله كل خير ، قد فصلت لي بدلتين بالرغم عني عند خياط ماهر بمصر كلفتني الواحدة ثمانين جنيهاً ، وكنت طول الوقت أندب سوء حظي لدفع هذا المبلغ الطائل فيهما ، ولكنني تحققت من نفعهما في هذا المجال ، ودعوت لزوجتي الحبيبة ، بعيدة النظر ، ارتديت ملابسي وتزينت وجلست أنتظر وكانت الساعة الثامنة مساء ، وفوجئت بشكري يدخل علي ومعه (ماريانو) . دعاني شكري لمصاحبته الى مأدبة أعدها لي في صالة الفندق الفاخرة .

سهرة ولا كل السهرات :

في صالة الفندق الفاخرة ، التي حجزها شكري لحفلة العشاء ، قابلت عدداً كبيراً من الناس دعاهم شكري ليقدمهم لي ، وليحتفلوا بمقدمي السعيد ، أخذ الجميع يرحب بي ويدللني بشتى الوسائل . وكنت قد أفرطت في تداول ما قدم لي في الطائرة أيبيريا مما حل عقدة لساني ، وغمرني المرح والسرور والفكاهة ، فانطلقت بينهم مرحاً ، أتندر وأتبادل الهزار رافعاً الكلفة تماماً كأني بين أصدقائي القدامى بمصر ، ولم أحترز أو أحترس ، بل قصدت أن ألغي الصورة التي رسمني بها شكري ، فعدت الى طبيعتي السمحة دون رتوش ولا تصنع كأي فلاح مصري أو أي بلدي من بلدياتنا ، ولكن للأسف زاد تصرفي هذا من تقدير الناس لي ، وامتدحوا ديمقراطيتي ، وخاصة السيدات منهم ، اللاتي كنت أغازلهن غزلاً بريئاً يسر أزواجهن ، بأن أطري جمالهن وأطري

رجولة أزواجهن وأغبط كل زوج على حظه العظيم بتأهله بزوجته التي كانت في بعض الأحيان ، حيزبونا تستحق أن تعرض في المتاحف أو الحفاظ عليها في أقفاص حدائق الحيوان في مدريد ، أو غيرها من المدن ، فكانت السيدة تسر وكان زوجها يرمقني بنظرة ويتمنى أن يخلعها علي وعليها قبلة ، وهكذا كنت أعيث بينهم مرحاً وسروراً وفساداً .

القهوة الأيرلندية :

كانت الصالة مضاءة بثريات (نجف) كهربي غريب ، به اللمبات كهربائية ، ولكن شعيراتها المضيئة داخلها تتراقص تراقص الشمعات ، فتلقي خيالات متراقصات تداعب الخيال في هذا الجو الساحر مع الموسيقى التي تتغلغل في الافئدة ، وتداعب أبخرة الصهباء التي تصاعدت في الأدمغة . وشغل الرجال بمراقصة السيدات ،حتى دعينا إلى المائدة ، ولا أريد أن أخوض ثانياً أو ثالثاً أو أظن رابعاً في وصف الملتهمات والمستشربات لأن هذا يعتبر في نظري فجعة ، والفجعة صفة بذيئة حيوانية على المائدة ولم أستطع أن أقرب شيئاً لما دخل معدتي المسكينة طوال النهار في الطائرات ،واكتفيت بطلب قهوة .

استوضح فتى المائدة أي نوع من القهوة أريد ، فنصحني شكري أن أشرب قهوة أيرلندية ، وعهدي بالقهوة نوعان التركي والفرنسي ، وكلاهما مقبول ومعروف لدي .. فأردت أن أستكشف ما يفعله الأيرلنديون في القهوة وكيف يتعاملون مع البن .

بعد دقائق حضر رهط من فتية المائدة ، يدفعون أمامهم ترولِلي خاص ، وبدأوا يقومون بأعمال غريبة لم أعهدها في اعداد القهوة ، استغرق حوالى نصف ساعة ونحن نراقبهم فهم يقومون بخلطها بالويسكي والقشدة وغيرها من مواد لم أعرفها في أسلوب غير معتاد .

وعندما حان الوقت لتذوقها ، قدمت لي في كوب كبير ورشفت منها الرشفة الأولى فحدث ما لا يمكن أن أنساه ، فيها خليط متناقض الطعم والتذوق ، فكأنك تقبل وردة فتنتعش بشذاها ، فتنقلب الى أفعى فتفزع من أذاها ، ولا تلبث أن تصير حسناء من حسان حور العين فتسعدبارتشاف لماها ، ثم تنقلب الى ميمون أو غوريللا فتخشى على لسانك من أنيابها وتصير في لحظة تالية جيفة نتنة تنفر النفس من خلوفها ثم يُخَيَّل لك بعد ذلك أنك تقبل ما تحت ذيل كلب مشرد ، ولا تكاد تتغلب على الرغبة في تفريغ

ما في معدتك حتى تنقلب الى عطر جميل ساحر ، ولا تلبث بعد تنشقه أن ينساب في عروقك اكسير طرب ورغبة أكيدة في قرقشة الكوب ، ولولا بقية من إرادة وعقل لسمعت أصوات تكسر الكوب تحت أسنانك ، ولا تلبث أن تضع الكوب وتسرح في بيداء الخيال ، فتتصور الحاضرين أحباباً وعشاقاً . فترغب أن تنقض عليهم أو عليهن بالعناق والقبل ، ولكن تخور منك المفاصل ، تجلس محملقاً في الفضاء راضياً مستخناً قابعاً في هدوء .

هذا .. هذا ما حدث ، وأردت أن آخذ وصفة هذا الشراب لعلها تكون في مصر ملجأ للتعساء البؤساء الذين لا يعثرون على الحب أو العشق أو الراحة والانطلاقة في سماء الخيال ، فوعدت خيراً . وانقضت السهرة ، وفشلت تماماً أن أمحي الصورة التي رسمني شكري بها بل عمقتها ، وصار من الصعب ازالتها .

الامس خمر .. واليوم امر :

في الفنادق عالية المقدار ، مآوي من تمكنوا من حشو خزائنهم بمال الناس بطريقة أو بأخرى ، الذين يلذ لهم تحنيس غيرهم (أي اغاظتهم بالبذخ والاسراف) ، طرق غريبة عجيبة للترف ، يلجأون اليها لاجتذاب المسرفين المبذرين أصدقاء الشيطان .

يتركون بالغرف كل ما يلزم من أدوات ربما يحتاج اليها ضيوفهم ، منها بطاقات خاصة يمكن أن تعلق في أكرة الباب من الخارج ، بها قائمة بكل ما يمكن من احتياجات . وكذلك أوامر مثل ميعاد الاستيقاظ وغيره ، وأنواع الخدمات المطلوبة ، وأنواع الأكل والشراب وغير ذلك ، وما على النزيل الا أن يضع علامة على ما يريده فينفذ .

انتهت الأمسية على خير ، وصعدت الى جناحي الواسع الفاره . الفارغ المفرغ . من الأحباب تكتنفني الوحدة . عينت رغباتي على البطاقات ، وعلقتها على أكرة الباب من الخارج ، واندسست في فراشي ، الواسع ، وسرعان ما غرقت في نوم عميق .

أفقت صباحاً مستريحاً نشطاً وتناولت الإفطار الذي طلبته ، وكان من أصناف رقيقة (خوجاتي) أي غربية أوربية النمط على صينية تقدمها فتاة هيفاء جميلة المحيا ، شرقية الأريج ، دلالها ساحر وغنجها ظاهر . عيناها من غرناطة تفيضان رقة وغباطة وبعد انتهائي من الإفطار ، حضرت وصيفة الغرفة (الفام دي شامبر) وسألتني أسئلة البارحة ، الحمام والملابس ... الخ ، وانصرفت .

سلفادور دالي وأنا :

رن جرس التليفون ، الحلاق مصفف الشعر يستأذن للحضور ، ولما استفسرت ، فهمت أن شكري كلفه بالقيام بما يلزم نحو تصفيف شعري وتزييني . حضر هذا الرجل وكان صغير الجسم سريع الحركة باسم الوجه ، وحياني وأعد عدته ، وأجلسني في مكان هيأه ، وأخذ يتفحص وجهي ، ويدور حولي ويعبث بذقنه ، وأخذ يكلمني بانجليزية غريبة مخلطة بالفرنسية والاسبانية ، فهمت منها أنه معجب برأسي ، وأنه سيجعل منه آية فنية ، وأخذ يخرج من حقيبته صوراً مختلفة ويريني كيف ستكون هيئتي ، وقال أنت قريب الشبه بسلفادور دالي ، ولكني سأجعلك تفوقه ، فارتعبت جداً لأني كنت لا أحب هيئة سلفادور دالي ، فنويت أن أبقى على هيئتي وأصرف مصفف الشعر هذا وبينما أنا في حيرة . دق جرس التليفون وسمعت شكري يحييني ، ويسألني عن مصفف الشعر ، ولما أخبرته أنني سأستغني عنه ، رجاني ألا أفعل ذلك وأجربه لعله يرضيني ، وضعفت لأني بشر وأسلمت نفسي لهذا المصفف ، وهكذا تحولت هيئتي الى هيئة جديدة .. غير بذيئة يمكن تحملها ، والحقيقة أن مصفف الشعر هذا كان فناناً بارعاً ، لأني لم أكره هيئتي الجديدة بل أبرزت بعض محاسن خفية في خلقتي .

الشيطان وفاوست وأنا :

تأهبت للخروج ولكن كان عليّ أن أنتظر حتى تأتي السكرتيرة لترافقني ، ولم تمضِ برهة حتى استأذن علي (الفارز وتريزا) ، وأخذت تريزا تعد المعطف وحقيبة اليد . وتقدم (الفارز) الي وأعطاني مظروفاً جميلاً موضحاً بكل أدب وحذر ، أن ما في المظروف مبلغاً صغيراً للنثريات ، وكنت قد خرجت من مصر بما يساوي ثلاثين جنيهاً مصرياً فقط حسب القانون ، وكنت عزمت على أن أعود فوراً عندما تنفد ، ولم أكن أتوقع مطلقاً أي مبالغ من شكري ، وكدت أرفض ولكن رأيت برهان ربي وضعفت وأنا بشر ، فأخذت المظروف بأنفة وكبرياء دون اهتمام ووضعته في جيبي ، وأنا أتحرق شوقاً لمعرفة ما فيه ، وبلباقة انفردت بنفسي في الحمام وفضضت المظروف بسرعة ، فوجدت به ما يساوي ألف جنيه استرليني ، عملات مختلفة صعبة واسبانية ، واستمارة دفع لخطوط طيران لأي جهة قيمتها حوالى خمسمائة جنيه ، ذعرت أي ذعر ، ولعب الفار في عبي وأخذ يقفز قفزات عاليات هائجات ، ولكني للأسف ضعفت فأنا بشر ، وأخذت كأي انسان عادي أبرر ما يصنعه شكري معي .. وقلت في نفسي ، ما هذا المبلغ بالنسبة لملايين

شكري ، واتغريت وهيئ لي أنني صحيح أساوي ما ينفق علي . لأني علمت أن أجر الجناح دون الاضافات خمسون جنيهاً استرلينياً في الليلة الواحدة . وما المبلغ الذي في المظروف الا قطرة من بحر ، (لاحظ كيف يبرر الانسان ضعفه) . حتى أنا الذي كنت أحتقر من يقبل ما قبلت ، وكيف تتغير تصرفات الانسان بتغير الظروف ، وتذكرت فاوست ، الذي باع روحه للشيطان .

الاكرامية على قدر معطيها :

خرجت يتبعني الفارز وبجواري تريزا وتوجهنا نحو المصعد الذي فتحته لنا فتاة المصعد ، فمنحها الفارز خمسمائة بستو . أي ما يساوي خمسة جنيهات مصرية فهمت أن هذا هو مستوى الاكراميات التي أدفعها ، يعني الألف جنيه يا دوب يكفوا وليست في الواقع تخصني شخصياً بل تخص الخبير العالمي الذي وضعني شكري في صورته . فعزمت آن أقوم بالدور ما دام ليس من فعلي هذا شر أو أذى ، خرجنا من الفندق ، وجدت السيارة المخصصة لي في انتظارنا ، بسائقها ذي البدلة الرسمية والكاب ، الذي تقدم وفتح الباب ، ودخلتها دخول العظماء ، بجواري تريزا بحقيبة اليد والفارز بجوار السائق .. وانطلق السائق بالسيارة الى (أفينيو جنرالزمو) الذي فيه المكتب وهذا الشارع أفخم وأرقى شوارع مدريد .

المكتب العجيب :

دخلنا خلال باب كبير فخم ، الى درجات رخامية ، واستقبلنا بواب هرم عبوس مكفهر السيماء ، تجلس بجواره هرة سوداء (غطيس) ، قام محيياً ، وفتح لنا باباً ولجناه تتقدمنا تريزا .

وجدت نفسي في (أنتريه) أو مدخل به ثلاثة أبواب مغلقة ، واحد الى اليمين وآخر إلى اليسار والثالث أمامي ناحية اليمين ، وصورة زيتية كبيرة تواجهني مباشرة ، وعلى اليسار غرفة صغيرة لحفظ المعاطف وغيرها .. دخلنا من الباب الأمامي المنحرف ناحية اليمين الى مجموعة من غرف .. غرفة اجتماعات كبيرة .. وغرفة اجتماعات صغيرة وغرفة مكتب ..

قادتني تريزا الى غرفة المكتب ، غرفة لا تتحقق الا في الأحلام ، مكتب فاخر جداً جداً وأجهزة عديدة الكترونية . جدران الغرفة مغطاة بدواليب مليئة بالمراجع والملفات .

أجلستني تريزا على المكتب ، ثم قالت مبتسمة : « سيدي أنا في خدمتك » ، ثم ضغطت على زر جرس خفي في المكتب فحضرت ماريا وتبعها الفارز ثم ماريانو .

وقف الجميع في صف أمام المكتب .. فقمت وصافحتهم ضاحكاً ، فتقدم ماريانو وهو مدير المكتب ، وفتح دلفة خفية في الحائط فظهر « بار » مضيء مليء بالكاسات ، والقناني ، وسألني « ماذا تشرب سيدي ؟ لا بد أن نحتفل » . ثم أخذني ماريانو تتبعه تريزا يريني غرف ومحتويات المكتب الظاهر منها طبعاً ، حجرة التلكس وحجرة الناسخة الألكترونية ، ولوحة التوزيع الالكتروني التليفزيونية ، والأرشيف وأدوات الحفظ والفهرسة والتبويب وحجرة التصوير وأجهزته ، وغير ذلك من مستحدثات التكنولوجيا الحديثة ، وما خفي كان أعظم .

قضيت الصباح كله في التعرف على من في المكتب والفرجة على الأجهزة ، وعندما حل وقت الغذاء ، سألتني تريزا ، أين أحب أن أتناول غذائي ، فقلت لها لقد ضاقت نفسي من الأكل (الخوجاتي) الانتركونتننتال ، الذي يعم فنادق الدرجة الأولى في العالم ، أريد أن أتذوق الطعام الأسباني الحقيقي ، قالت « سمعاً وطاعة » وتناولت التليفون وأخطرت السائق لاعداد السيارة .

في أحضان مدريد ذات الحب الجديد

لا يتيسر لأي مسافر أن يتعرف أو يستوعب كل ما يراه في المدن التي يزورها لأول مرة وخصوصاً بعد سفر طويل ، هكذا كان حالي ، فكنت حقيقة فاقد الاتجاه ، وكانت المباني والشوارع ، تمر بي وكأني في حلم وأنا في السيارة مع تريزا نتجول في مدريد قبل الغذاء .. خيل لي أن مدريد خيط في الشكل بين وارسو وبودابست وأثينا ، ولكنها نظيفة نظيفة جداً جداً ، ضاحكة المظهر حلوة المجمع بيضاء لمعاء ، تقبل عليك بابتسامة ترحيب ، ناسها طيبون ، حوانيتها تغلق ما بين الواحدة والرابعة بعد الظهر ثم تفتح بعد الظهر ، وبعد طوفة ، وجهتنا تريزا نحو مطعم صعدنا اليه بسلم خشبي ضيق الى صالات وردهات متداخلة متوالية متلاحفة ، وجلسنا على مائدة في ركن منزو نواجه منه رواد المطعم .

تريزا وفتاة المائدة وأنا :

أتت فتاة المائدة أو الجرسونة أو السفرجية أي الندلة إلينا (على رأي مجمع اللغة العربية – مع الاعتذار لجميع الأندال المشتغلين في هذا المجال) وتبادلت الرطانة الاسبانية مع تريزا التي أخذت تعرض علي أسماء أنواع من الطعام لم أسمع عنها من قبل . وأخيراً طلبت من تريزا أن تسأل الندلة أي فتاة المائدة .. « اذا كان جدك معاكي .. توكليه ايه .. على أده ؟ » فانصرفت ورجعت بطبق كبير مليء بأم الخلول أو المحار من نوع كبير الحجم ، وكل واحدة قدرها كف طفل ، ثم جاءت بطبق شوربة أو حساء غريب الشكل أعجمي الطعم ، ثم طبق به قطعة من اللحم بحجم أرنب مكتظة مدملجة مع مجموعة من الحواشي ، ومع هذا زجاجة من النبيذ الأحمر الذي ذكرني أن ما نحتسيه في مصر (التي في خاطري وفي دمي) قد عودنا أن نخلط بينه وبين ما يسمى الخل ، وأرجعنا هذا النبيذ لحقيقة الأمر في أنه عصير الكرم حامل لواء السرور والمرح .

العسل عصير بنان الجميلات :

عندما انتهينا من هذه الوجبة وقدمت لنا القهوة ، أردت أن أتندر كعادتي ، طلبت

من تريزا أن تقول للفتاة « جدي يرجوكي أن تحطي صباعك في الأهوة عشان تحلو » وبطبيعة الحال قصدت الهزر والهزل . والغزل الرقيق ، فأسرعت الفتاة ناوية أن تضع أصبعها حقيقة في القهوة . فمنعتها . فدهشت ، وتعجبت كيف أطلب منها طلباً ثم أمنعها من تنفيذه .. ولم تعرف أنني كنت أتندر وأهزر إذ كيف يتسنى لي أن أقحم هذا الأصبع الفضي الرقيق في جحيم هذه القهوة السوداء الدكناء . علمت بعد ذلك أن الاسبانيين ناس طيبون جداً لا يفهمون النكتة أو التورية ، وهم مغرقون في أمرين بنت الحان التي في الدنان مع الندمان . والسرير ولا ثالث لهما .

ألا ليت القديم يعود يوماً :

وخرجنا من هذا المطعم الى الشوارع النظيفة جداً ، وذكرتني نظافة هذه المدينة والنظام الذي فيها ، رغم عدم مشاهدتي لأي موظف مكلف بالتنظيم والتنظيف ، وببلادنا تزخر بعض المدن برجال وموظفي الكنس والرش ، رغم أن الشبه من هذه الناحية بين مدننا في الوقت الحاضر وهذه المدينة الأوربية معدوم ، ولكن الشبه بينها وبين مدننا قبل ألف سنة وأكثر هي أعظم شبهاً ، حيث كان موظف يسمى (المحتسب) يجول في شوارع المدينة ، وخلفه رهط من رجاله اسمهم (الحسبة) (بفتح الحاء والسين) حيث يحمل الحسبة فلقة وهي عصا غليظة طولها متر واحد تقريباً ، يربط برأس العصا حبل واحد فإذا شاهد المحتسب أحد الباعة يعترض الطريق بسلعته أو بضاعته ، أو رأى أحد أصحاب المقاهي قد أخرج كرسياً الى الشارع ، أو القى أحد قماماته في الطريق ، أو طفف أحد في الميزان ، أو غش في البضاعة ، أو رفع السعر عن التسعيرة فينزعونه من دكانه أو مقهاه ، ويلقونه أرضاً على ظهره ، ويرفعون ساقيه حيث يربطونهما بالفلقة . فينهال المحتسب عليهما ضرباً بالعصا ، حتى تورم قدماه ، ولا يشفع له صراخه أو عويله . وطبيعي أن لا يجرؤ بعد هذه العملية أحد أن يخالف أوامر المحتسب أبداً .. لهذا كانت مدننا نظيفة مرتبة نضرة ، لا كما نراها اليوم ، حيث يطوف في أزقتها عدد من رجال نسميهم رجال التنظيم والنظافة ولكنهم لا يفتلقون أحداً ، فأين أنت أيها المحتسب وأين حسبتك اليوم ، لعلك تبعث حياً لتنقذ قاهرتنا الجميلة .

البساطة .. البساطة :

انطلقنا بعد الغذاء نسير في الشوارع بعد أن صرفت السيارة ، مفضلاً أن أتجول ، بحرية في الشوارع وكنت أريد أن أشتري ساعة بدلاً من ساعتي التي توقفت . وجدنا

محلاً لبيع الساعات ، واستقبلتنا فتاة البيع كأنها عصفورة الجنة تحمل وردة ، تقفز بها من هنا ومن هناك ، تعرض أنواع الساعات وأنماطها . ولست من الغاوين أو المحنسين أو المستعرضين السفهة ، فاخترت ساعة بسيطة ليس بها لعبكات ولا أرقام وفتحات أو اضافات لا فائدة منها كالفلكيات وأوجه القمر تريك الوقت فقط . ربطة المعصم جلدة سوداء بسيطة وليست أسورة براقة ، دفعت فيها ألف بستو أو ما يساوي عشرة جنيهات مصرية .

دنيا غريبة أقحمت فيها قسرا :

رجعنا الى المكتب بعد أن تجولنا قليلاً ، وقضيت بعد الظهر في الاطلاع على مختلف نشاطات المكتب ، وهي عبارة عن مقاولات وأعمال ضخمة في مختلف المجالات في الصناعة وغيرها ، بالاشتراك مع مجموعات كبيرة من مؤسسات وشركات الأعمال الفنية الهندسية والمالية ، حجم أعمال المكتب ضخمة تفزع وترهب وتهبل وتتوه عقول البسطاء أمثالي (اللي مش في الدنيا دي) .

دنيا النهب والافتراس :

قضيت الأربعة أيام التالية ألم بشتات الأعمال التي بالمكتب وأراجع وأدرس الملفات العديدة أو غيرها من الوثائق والمستندات التي تتعلق بنشاطات المكتب المختلفة . وهي كثيرة جداً . وأتعرف على هذا وعلى ذاك وعلى التي واللتيا وأطوع نفسي لما حولي .

وأعود أذني على الرطانة الاسبانية التي استطيبت نبراتها ، وخاصة بعد أن وجدت فيها أن رائحة اللغة العربية في عهد الأندلس حتى يومنا هذا تفوح منها بشكل ملموس . كان العمل بالنسبة لي جديداً جداً ، وأبوابه وأنواعه غاية في الغرابة ، دنيا غير الدنيا التي عشت فيها ومارست نشاط العمل خلالها . ولأول مرة في حياتي أحضر اجتماعاً من اجتماعات كبار الماليين الذين يتحكمون في أموال وأرزاق العالم ، فهم الناس (بتوع الأعمال والتجارة على مستوى عالي ، مش تجارة البقالين والعطارين بتوع حلق حوش من اللي فاتحين دكانين) .. هؤلاء الماليون يقومون بأعمال غريبة في بعض الأعمال دون ضمير أو إنسانية وأشكالهم ذكرتني بالأشخاص الذين نراهم في السينما يمثلون أدوار رجال المال .. ومما لاحظته فيهم أن أسفل أعينهم منفتح لونه بني ، وهم غالباً في سمنة ولهم كروش أي بطون كبيرة .

الصراع في الأعمال يغير الخصال

استعراض :

تحدد ميعاد لجلسة هامة كما أخبرت ، لأقوم بادارتها الليلة ، الساعة السادسة بعد الظهر ، وقام « ماريانو » (هذا الثعلب الدبي . الخبير بأعمال المكاتب وخاصة المكاتب التي ليس لها قوام أخلاقي) ، باعداد الجلسة والموضوع صفقة ليس لنوعها هنا أهمية غير أن حجمها بالملايين . كان شكري خارج أسبانيا وماريانو داير اتصالات ومندوبنا في هامبورج كذلك والتلكس شغال على طول ، والتليفون ما بين هامبورج وبرلين ولشبونة ومدريد مستمر . المصارف – خطابات الضمان – الشحن – المراكب جنوب إفريقيا– بولندا .. الخ (سمك لبن تمر هندي) . حاجة تهوس وأنا هنا كالطفل في غابة .. المدعوون للجلسة الهامة واحد من هامبورج ، وواحد من نيجيريا . وواحد من بولندا ، وواحد من نيويورك . كلف الكل بالحضور في الميعاد للأهمية ، وأنا بصفتي الخبير المالي واستاذ الاقتصاد الهندسي ، سأدير الاجتماع لخبرتي في الاقتصاد العالمي وبصفتي مستشار الاقتصاد في الشرق الأوسط (الله يخرب بيتك يا شكري يا كداب .. ليه بس الفشر ده والتهويش والرياء .. لعنة الله عليك) .

أسلوب الكسب في « البزنس » : (بكسر الباء والزاء والنون)

ليس ميدان الأعمال التي يمارسها الماليون الا مسرحاً للوساطة بين المنتج والمستهلك وليست الوساطة هذه بسيطة بل تحتاج لمعرفة وخبرة بطبائع الناس واحساس باحتياجتهم غير أنها لا تحتاج الى ما يحتاجه المهندس مثلاً ، من جهد فكري عميق أو دراسة مضنية ، لذلك هناك عداء مستتر دائماً بين المنتج الحقيقي والوسيط والتاجر مع أن المنتج لا يمكنه أن يوزع بضاعته أو تتم الاستفادة منها أو استهلاكها دون هذا التاجر الذكي الأريب الذي وهبه الله احساساً وشعوراً يندر وجوده في الكثيرين . . وتتميز بعض الأجناس البشرية بالقدرة والاحساس في ميدان الأعمال والتجارة .

ما بين المنتج والوسيط :

لا يتم الانتفاع بأي سلعة تصنع أو تنتج الا باستهلاكها ، ويسبق الاستهلاك التوزيع والانتاج مهما كان لا يخلق المواد الأولية ، لأن المواد على اختلاف أنواعها موجودة مخلوقه في الأرض وما عليها ، إنما تحول من حال إلى آخر سواء من الشكل أو التركيب أو المكان أو الزمان ، بحيث تنتج عن هذا التحويل منفعة للمستهلك ، والمنفعة أي النفع الذي يحصل عليه الانسان من السلعة هو قيمتها .. والمنتج يغير المواد في الشكل أو الهيئة أو التركيب أو ما يشابهه ، ورجل الأعمال يحوله في الزمان والمكان .

التجميل نوع من التزييف :

كانت تريزا وماريا قد أعدتا العدة فقامتا بتجميلي والاعتناء بمظهري ، واعتذرت ماريا لأن الوقت كان ضيقاً ولم تعد لي البطاقات ، ما هي هذه البطاقات يا ترى ؟ . وما أن دخلت غرفة الاستقبال حتى قام الجميع لتحيتي وجلست بين هؤلاء الناس الذين يقومون بجمع المال بإدارة أعمال واسعة خطرة ، والواقع أنني ارتعبت وانتابتني رهبة ولكني تغلبت عليها وأخذت أتصور نفسي حقيقة الشخصية التي ألصقها بي شكري .. ولم لا ؟ .

مواجهة القروش (الكواسج البشرية)

جلست على الكرسي الوثير الذي دعاني المضيف للجلوس عليه فاستويت عليه ، وأخذت أتفحص وجوه الحاضرين الذي بدأ المضيف يقدمهم لي واحداً واحداً ، وكنت أقابل نظراتهم بابتسامة وجرأة ، ولم أرد طرفي عن نظرات كل واحد منهم قبل أن يغض هو ناظره أولاً . . ولعل الابتسامة التي تعودت عليها دائماً وحسن قصدي أدخلتني قلوبهم وهم « قروش الأعمال » .

والقرش بالعربية المصرية نوع من السمك عظيم الحجم قوي فتاك مفترس ويسمى بلغة الانجليز (شارك) . ورجال الأعمال الناجحون الذين جمعوا مالاً ، قروش مفترسة في ميدان الأعمال والتجارة والمقاولات.

القرش (الكوسج) البحري وصنوة الآدمي :

القرش وهو نوع من السمك الضخم المفترس ويسمى باللغة العربية الكوسج وخاصة في مناطق الامارات والخليج العربي ككل . ويعتبر من ألد أعداء صيادي اللؤلؤ والمرجان في هذه المناطق حيث كانت هذه السواحل تشتهر بصيدها قبل اكتشاف البترول فيها ، وكما أن الكوسج هو العدو الأول لصيادي اللؤلؤ ، كان لهؤلاء الصيادين صديق أول أيضاً ، هو الذي يشفع لهم وينقذهم من الكوسج . وهذا الصديق هو الدلفين (الدرفيل) الذي يسمى في مناطق الخليج العربي والامارات بـ (الدغص) . فاذا ما دهم الكوسج صياداً وبدأ في ملاحقته ، يأتي دور الدغص فيسبح الى جوار الصياد ضارباً اياه بكتفه دافعاً له نحو الشاطئ فيبتعد الكوسج عنهما لكثر ما يثير الدغص الأمواج ورذاذ الماء .

لكن لهذا الصديق الوفي الشجاع الذي له منزلة الأخ والمنقذ بالنسبة للصياد ، نهاية مأساوية ، كأي بطل عظيم عندما يموت على يد جبان رعديد لا يساوي قلامة ظفر ، فعندما يحاول الدغص ملاعبة أو مداعبة قنديل البحر وهو من النباتات الهلامية القوام يطفو على سطح الماء ويلتصق هذا الهلام بخرطومه الذي يحتوي في نهايته على فمه ومنخريه فيختنق الدغص أي الدرفيل .

وعندما يرى الصيادون جثة صديقهم الدغص طافية على سطح الماء يخرجونها باجلال ويدفنونها دون أن يأكلوا لحمها ، تقديراً منهم للصداقة والوفاء وهذا من شيم العرب .

نوعية أعمال الكواسج البشرية :

مكتب شكري ، كما اتضح لي وكر لقروش من القروش المفترسة . على سبيل المثال ... يسعى شكري بوسيلة من الوسائل التي لا أعرفها فيحصل على عقد توريد كميات هائلة من المواد . وما يحصل عليه نظير هذه الوساطة يصل في بعض الأحيان إلى عشرة في المائة من الثمن غير مبالغ أخرى . ويكون الربح في كثير من الأحيان شقلة كبيرة من الفلوس ، مئات الألوف ولا بأس لإتمام مثل هذه الصفقة أن يقوم المكتب بصرف رشاوى أو عمولات كما يسمونها أو يهيئ من وسائل الاغراء المنوعة ما يصلح لاصطياد المندوبين الذين يقررون إرساء العطاء أي اختيار من ينال التعاقد . وبطبيعة الحال تتبارى وتتنافس المكاتب أو الأشخاص الذين في مثل هذا العمل في ميادين الاغراء التي لا تخلو من الفسق والفجور والغدر والخيانة والابتزاز . وكثيراً ما تقوم بين هذه المكاتب حرب شعواء .

طبيعي أن يكون بين هذه المكاتب شرفاء ، ولا ينغمسون في هذه الشرور ، ولكن بمزيد من الأسف شعرت ، (ولكني لم أتأكد) أن مكتب شكري من هذا النوع . ولشكري شبكة من المكاتب في كثير من عواصم أوربا وغيرها ، ويتعامل مع مجموعة من مكاتب وشركات . ولكنه لم يطلعني على هيكلية أعماله الكبرى . ولاحظت أنه اقتصر على وضعي في مراكز براقة لا أمتلك فيها غير المظهر والعنجهية ، فأخذت حذري جداً .

وتتلخص نوعيات الأعمال التي عرفتها في المكتب في القيام بالوساطة فيما بين الهيئات والمصالح والشركات ، وربما الحكومات ، وبين المنتجين الصناعيين أو غيرهم ممن تتوافر السلع عندهم ، للتوريد أو تنفيذ المشروعات العظيمة . ولا يقرب المكتب التافه من الأعمال . وطبيعي أن يهتم شكري بالبحث عن الهيئات والشركات والحكومات التي تطلب هذه الأعمال .. تبدأ بالحصول على مواصفات الطلبية . والاشتراك في المناقصة عليها ، وتقديم عطاء للجهة الطالبة ، ثم تقوم الجهة بارساء العطاء على واحد من المتقدمين بالعطاء ثم يتم التعاقد ، ويكون حجم العمليات بملايين الجنيهات

أو الدولارات ، وربما تقدر حصيلة المكتب من عملية واحدة في حالة مكتب شكري بمئات الألوف .

ومن الواضح ألا تقتصر أعمال شكري على ذلك . فإن ما يحصل عليه من أموال .. لا بد أن يستثمرها في ميادين أخرى .. وهكذا اتسعت دائرة أعماله وانشغل ، فلم يقر له قرار في بلد واحد .. ويعيش كما عاش اليهودي التائه .

المشهد الأول :

استدعينا لدخول قاعة الاجتماع ، وعقدت الجلسة ، وبدأت طقوسها ومقدماتها وبدأت مناقشات حامية وصراع وجدال ومناجزة بين المجتمعين ، وأنا عنهم في سكون . بوجه جامد دون أي انفعال ، وكان يكفي أن أومئ برأسي بين الهينة والأخرى ، مؤيداً أو غير مؤيد ، بحيث لا تدل الايماءات على أي شيء محدد ، ولكن تفهمي لما دار كان محدداً جداً لما فيه من مصطلحات غريبة عني ، وتذكرت أن جمود وجهي وغياب الانفعال عن ملامحي كان كثيراً ما يرعب من أحادثهم في حياتي العملية ، فلا عجب فالمجتمعون كلهم كانوا أصغر مني بكثير ، ولعله أن كانت لهيئتي هيبة .

شخصيات المسرحية :

الحجرة واسعة وهي في مكتب رئيس مجلس إدارة مجموعة من الشركات التي تعمل في التصدير والتوريد العالمي ، وهو دكتور في الاقتصاد ، يناهز الخمسين من عمره سريع الحركة صريح الوجه أبيض الشعر لا يعرف الانجليزية ، وكان مضيفاً للجميع ولم يتوان في تقديم المشروبات لنا . ثم رئيس مجلس ادارة شركة كبرى تعمل في التجارة فيما بين أسبانيا وانجلترا ونيجيريا ، خفيف الروح متوسط القد لماح بسام الثغر ، ويتكلم الانجليزية بطلاقة ويبلغ الخامسة والخمسين من العمر . ثم رجل ألماني من هامبورج بسام ضحاك سمين ملظلظ أشقر الشعر (هبي) بكسر الهاء وتشديد الباء مع كسر ، ثم أمريكي عريض المنكبين جريء الى حد الوقاحة ، وكأنه بغل مخلط بخرتيب ، ثم رجل من بولندا صغير الجسم غائر العينين ثعلبي السمات مـاكر خبيث، ورجل طويل القامة ثعباني القد طويل الرقبة حاد النظرات ثقاب اللمحات . هجام يكاد يصفع من يخاطبه . ورجل فحل ذو كرش عظيم جلس فملأ الكرسي الواسع العميق ، وارتخى ومد رجليه ثم بدا لا يتثنى ، بل بدا كأنه على باب سبات عميق ينشط بين الهنيهة والأخرى ويتكلم فيصمت المتكلمون .

الاستعراض المسرحي :

هكذا جلست بين هؤلاء القروش المفترسة ، هم شرذمة من البشرية التي تسد أعينها الدولارات ، في حجرة مسبعة أي تشبه الأرض المليئة بالسباع وتمثلت بالقول « من رعى غنماً في أرض مسبعة ونام عنها ... الخ » . هكذا كان حالي فلم أغفل لحظة . دار الحديث والنقاش قرئت أوراق ، وفحصت رسائل ، وفردت الملفات والتلكسات ، وفتحت سجلات ، ونوقشت حسابات وأنا في جهل تام عما يبحثون . وانتابتني الهواجس . وتذكرت ما غنته نجاة (ماذا أقول له لو جاء يسألني) وأخذت أستحضر ما في جعبتي من خبرات ومعالم . كانت المناقشات بالانجليزية ، وقام سكرتير الجلسة بترجمة بعضها إلى الإسبانية . والواقع أنني أدرت الجلسة بكل حرص وعناية ، كما تعودت في اجتماعاتي بمصر ، وكما تعلمت في شبابي في انجلترا ، حيث يقوم الـ (تشيرمان) أي رجل الكرسي أو مدير الجلسة بواجبات محددة يوجه المناقشات ويلخص القرارات ، ويضبط نظام الاجتماع والواقع أنني في هذا مدرب وخبير وحازم ، وقمت بواجبي بدقة وحزم واختصار ونجحت الجلسة ، ولكني لم أستوعب كل ما جاء فيها لجهلي أصول المواضيع ، ولكن لم يتسرب لذهن أحد من المجتمعين حالي هذا .

انفض الاجتماع ورجعت الى المكتب على أن تستأنف الجلسة الساعة التاسعة مساء . ولكن كل مرة لا تسلم الجرة – أنبت ماريانو عني معتذراً لكثرة مشاغلي ، وأنني سأكون على انتظار لقرارات الاجتماع ولعل ترفعي عن حضور الجلسة ، كان ضرورياً ، حتى لا يفسد الأثر الحسن الذي تركته عندهم بحزمي ، وحسن إدارتي .. (زر غبا تَزْدَدْ حباً) وهذا مثل عربي يعني الاقلال من الزيارة والحضور يزيد الحب .

العتيق .. وسعره في مدريد

ذات يوم طلبت من تريزا أن تأخذني الى مطعم اسباني قح ، حتى أتعرف على أسبانيا الحقيقية (مش الفالصو) عن طريق ذوق الاسبانيين في الطعام ، أخذتني لمطعم جلسنا فيه بين رهط من الأزواج أي (الكوبلات) وكان يشغل كل مائدة رجل وامرأة . وكباقي المطاعم كان يطوف علينا ولدان وولدات يجيئون ويروحون بالصحاف والقناني وبالطعام والشراب .

صرت أباً لتريزا :

كان الحديث بيني وبين تريزا يتطرق الى حياتها الخاصة . وعرفت أنها من (بيرو) في أمريكا الجنوبية . تركت أهلها وراء كسب العيش وأنها تراسل أهلها وخاصة أمها ولقد أخبرتها عني أخباراً كثيرة وانها بدأت تحبني محبتها لوالدها ، فأفهمتها أن هذا يسرني جداً ، وسألتها عن سعادتها في أسبانيا ، فاخبرتني أن لها صديقاً يحبها وتحبه ، وبدأت تقص عليّ قصة حب عادية ، ولما انتهينا من الأكل قدمت الفاتورة فإذا بها ألف وخمسمائة بستو (أي خمسة عشر جنيهاً مصرياً) أكلة : عبارة عن قعة من اللحم وسلطة وعيش وكأس من النبيذ ، دفعتها بابتسامة وعليها مائتا بستو إكرامية . عجبت كيف أن الساعة الدقيقة الجميلة ثمنها ألف بستو والغدوة العدمانة دي ألف ونصف – وعندما سألت تريزا عن هذا المطعم وعن أصله وفصله دون أن أشكو من سعر الأكل فيه حتى لا ينكشف أمر حرصي على الفلوس ، لأن الحرص هذا ليس من شيم العظماء المتعالين أمثالي . فأخبرتني أن هذا المطعم عتيق جداً ، عمره ثلثمائة سنة وهو مشهور جداً في أوربا وهو مقصد السياح .. عندئذ .. خطر ببالي لو عملنا مطعماً داخل الحرم لا بد أن نلم فلوساً كثيرة من السياح المغفلين .

شكري فص ملح وداب :

لم أر شكري منذ أن تركني ليلة السهرة ذات القهوة الأيرلندية .. ولكنه اتصل بي

تليفونياً من « ملجا » التي سافر اليها ليستجم ، وطلب أن ألحق به بعد أيام مع السيد (مفتاح القندال) الذي كان قد عرفني به في حفلة السهرة ، وهو شاب ليبي من أثرياء رجال الأء ، ويخيل لي أن لشكري معه علاقات لم أتبين نوعيتها غير أنني لاحظت أنهما كانا يتبادلان الأسرار في أثناء السهرة المذكورة .

الفصل الرابع

(ماربيا)

الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

الشاب الليبي المرح :

مفتاح شاب ثري لا هو بالوسيم ولا هو بالقبيح ، جريء في القول والفعل ، ليس للخجل أو الكسوف اليه طريق ، يده مبسوطة كل البسط ، ولكنه لا يخاف أن يقعد ملوماً محسوراً ، عيناه لا تريان غير الاناث ، ولعابه يكاد يسيل مدراراً كلما رأى أنثى ، الغريب أنه لا يفرق بين الحسان والقباح ، فكلهن عنده سواء ، يسير بخطوات غير نظيمة فيها شيء من الجمز والقفز ، يلوح بأيديه كأجنحة طائر حائر سريع الحركة ، ولا ينقطع عن الهزر والتفكه والنكتة .

لازمني هذا الشاب وداوم على زيارتي بالفندق وبالمكتب .. والواقع أن ذلك لم يضايقني بل أنست اليه ، واستطييت مصاحبته لما فيها من هزل وفكاهة جزلة ، ولما كنت أستمع له من حكايات عن ليبيا التي صورها لي جنة ، وصور لي أهلها ملائكة هبطوا عليها من السماء ، كما صور لي نساءها حوريات على العكس مما كنت أسمعه ممن زاروا ليبيا ، ودعاني للسفر معه اليها عزومة « الله الله – كمان ده راخر عايز يعزمني يا ترى شكري فهمه عني ايه ؟ »

قضيت الأمسية مع السيد مفتاح الذي زارني بالفندق (أيروبلدنج) نتجاذب أطراف الحديث وعرفت منه الكثير ، غير أنني لاحظت أن هناك أموراً لا يفيض فيها بالكلام ، ويختصر ما أمكن كلما طرقت موضوعها من قريب أو بعيد . الا أنه كان يفيض في وصف وشرح أمكنة اللهو والمتعة في أسبانيا وفي مدريد على الأخص ، وتواعدنا على السفر الى ملجا في الصباح .

السفر الى ملجا :

توجهت الى المكتب في الصباح وعملت دون هوادة لأحصر ما يمكن حصره مما ظهر لي من أعمال ، أقلب الملفات وأغوص في الأوراق والعطاءات وغيرها .. حتى حضر السيد مفتاح وفضل أن يصطحبني بسيارته الى المطار للسفر الى ملجا .

مطار ملجا :

كانت دهشتي تفوق الوصف عندما عرفت أن بالمطار مرأب أي (جاراج) لايداع السيارات به ، وأن المطار من الداخل مهيأً بكل وسائل الراحة وما يلزم لاستقبال المسافرين وتوديعهم ، وما يلزم لنقل الأمتعة مع أنه مطار داخلي غير دولي . والناس فيه نمط بشري جميل .. ويكاد أن يضفي على من فيه هالات من الرقة واللطف والعذوبة . حضرت الطائرة .. وولجناها من باب في ذيلها .. وتباهت وسألت مفتاحاً لماذا تولج الطائرات الاسبانية من مؤخرتها فضحك ولم يتأخر في توضيح ما لا يوضح وتوغل في التفسير ولم أقصد طبعاً الجنوح الى هذا الميدان .

اضحك تضحك لك الحياة :

لا أطيق الصبر عن خلق أجواء المرح والسرور ، والمتعة البريئة . فكنت لا أجد فرصة مؤاتية للتندر أو المزاح إلا انتهزتها . وكنت أجيد الغزل البريء الذي يطيب للأنثيات سماعه ، والغانيات يغرهن الثناء . واستقر بنا الجلوس في الطائرة وارتفعت في الجو . وما أن حضرت إلينا المضيفة الفتاة حتى بادرتها باطراء جمالها . ولما كنت في سن جدها لم تتحرج في تقبل هذا الاطراء ، بابتسامة وضحكة ، وكنت أحمل دائماً حقيبتي الأنيقة التي تحتوي مسجل كاسيت .. أسجل فيه دائماً ما يستحق التسجيل في رحلاتي . (بهذه المناسبة عندي كثير من هذه التسجيلات أستعيد سماعها كلما عاودتني الذكريات) أريت المضيفة صورة زوجتي الجميلة الملصقة في غطاء الحقيبة .. وكانت مكافأتي على ذلك قنينة من الصهباء التي من (شام – بان – يا) فقربعهـا مفتاح بعد أن رشفت منها رشفة .. وعندما مر علينا مضيف شاب ، تلطفت معه قائلاً : لماذا كل فتيان الاسبان وسيمون ؟ فاحمر وجهه خجلاً فقلت له – سوف آخذك معي الى مصر حيث أزوجك غادة جميلة .. فيكون لكم أولاد في غاية الجمال .. فانزعج أيما انزعاج .. وكاد يغشى عليه . وأراني دبلة زواج في يده ، وقال إنه كاثوليكي وزواج آخر حرام ، وهو يخشى الذهاب الى جهنم فطيبنا خاطره . وأفهمته أن بناتنا لا يتزوجن الا من الذين يعتنقون الإسلام ، ويشترط فيهم أن يكونوا قد ختنوا ، فكاد يغشى عليه ثانية ، لأنه اعتقد أننا نعني ما نقول ، وأنه حقيقة وقع في مأزق يصعب عليه الخروج منه . وربما خطر على باله أننا سنختطفه أو أننا سندعي عليه أنه اتفق معنا على ذلك ، وعبثاً حاولنا أن نفهمه أننا نتندر ونتبسط معه .. وكانت المضيفة مزقططة جداً ، وتكلمه بالإسبانية بين حين وآخر

فيصفر وجهه . ولربما تصور أنني كبعض الشواذ جنسياً وأريده لنفسي وأعامله كما عامل الأتراك « لورنس » وفهمت لثاني مرة من معارفي أن الاسبان لا يعرفون الهزل ، وهم إما في نشوة الخمر والموسيقى أو في سكرة السرير .

الوصول بالسلامة :

وصلنا مطار ملجا ، وفي أثناء نزولنا من الطائرة رأينا مصوراً بكاميرا وفلاش ، أي مصورة ووماضة ، تصور كل النازلين بلا استثناء ، فظننت أنه مندوب المخابرات أو المباحث .. ولكنني لمحت على وجهه ابتسامة لا تتوافق مع أخلاق المخابراتية أو المباحثاتية ، وأن إسبانيا لا تستعمل هذه الوسائل (رغم الحكم الديكتاتوري فيها) — وعندما تقدم إليه مفتاح ليسأله من أين يمكنه الحصول على نسخ من هذه الصور ، لوح له بيده ، ولم ينقطع لحظة عن التصوير ، وبعد أن انتهى من تصوير كل الركاب طلب منه مفتاح يصوره مع المضيفة فوقف بجوارها وأخذت صورتهما معاً .

شطارة مدهشة :

وبعد دقائق وكنا ننتظر الحقائب في ردهة المطار الأنيق على السير النقالي ، الذي يحضر الحقائب إليك من الخارج ، وبعد عشر دقائق بالضبط ، رأينا شاباً يحمل لوحة كبيرة مرصوص عليها كل الصور التي أخذت عند هبوطنا من الطائرة مكبرة ١٨ × ٢٤ فاشترينا ثلاث صور ، كل منها (٥٠ بستو) أي ٥٠ قرشاً فاذا حسبنا تكاليف وطبع الصور كلها ونسبة ما يشترى منها نجد أن المصور يربح ربحاً جزلاً ، « تعلموا الشطارة يا ولاد بلدنا » . وعندما اطلعت على صورة مفتاح مع المضيفة لاحظت أن مفتاحاً يطوق خصرها بذراعه وكأنها عشيقته ، ولما سألته لماذا فعل هذا قال لي : ليغيظ زوجته وأن عنده من مثل هذه الصور الكثير .. فتعجبت لذلك كثيراً لأن العادة أن يخفي الرجل هذه الأشياء عن زوجته .

ولعل ما يقوله علماء النفس يوضح الأمر .. اذ ربما تثير مثل هذه الأعمال بعض الزوجات ذوات البرود الجنسي أو لعل هذا العمل يبرهن للزوجة على فحولة زوجها . التي لا تجدها فيه . ولله في خلقه شئون .. وخفايا وأسرار الزوجية لا نهاية لها وهي في غاية التعقيد ، وكل زوجين لهما خصائص من الأسرار العميقة التي تحرص الزوجة الا تفشيها .. لهذا كثيراً ما كنت أسمع دعوات الأمهات لبناتهن المتزوجات (روحي ربنا يهدي سرك) .. ولا معنى للسر سوى ما بينت .

البوس والقبل والمضيفات :

بينما نحن في ردهة المطار ، مرت بنا فتاتان في زي المضيفات الرسمي ، فبادرهما مفتاح بالسلام باللغة العربية ، لأنه تبين من زيهما أنهما من طيران المغرب ، ولما بادلتاه الحديث وعرفتا أنني مصري ، سألتاني عن فرقة رضا ، وعن فريدة فهمي . لأنهما شاهدتاهما في الرباط ، فتبرع مفتاح باخبارهما أنني أبو فريدة فحدجتاه بنظرات قاتلة ظناً أنه كاذب أشر ، وأنه يريد اصطيادهما . لأنه ليس من المعقول أو المحتمل أن تكون الصدفة هكذا .. فخفت على نفسي من أن يلحقني من هذا (طشاش) من الأذى – ووليت وجهي شطر الباب تاركاً مفتاحاً ليخلص نفسه من هذا الحدث . ولكنه أقنعهما بحقيقة بنوة فريدة لي ، فهرولتا نحوي ، ترجياني أن أوقع أوتوجرافيهما (والاوتوجراف دفتر أنيق صغير يجمع فيه الهواة توقيعات المشاهير وهي هواية وافدة من بلاد الخواجات لعنة الله عليهم وعليهن) . وبينما أقلب في الدفتر تبسط مفتاح معهما تبسطاً خطراً خشيت منه .. إذ قال لهما « أوعو يا بنات تتباسو » وبدلاً من أن ينصرفا في خجل أو يصفعان هذا المفتاح قالت الكبرى « لن يبوسنا الا العرب » وجفلت الصغرى واستفسرت عن معنى (تتباسو) لأن لغتها العربية مش أد كده – فلما وضحت لها حقيقة الفعل قالت إنها لا تمتنع عن البوس أبداً مهما كان البايس أو المبيوس فكدت أصعق وشددت مفتاحاً منطلقين لئلا يحدث ما لا يحمد عقباه .. وكنت أجر مفتاحاً بالعافية لأنه كان معصلج أي يقاوم الشد وينظر آسفاً نحو هاتين الفتاتين (قليلات الحيا) – (اللي تندب في عينهم ميت رصاصة) .. وهذا فولكلور مصري .

(مليا ـ دن ـ بيبي) فندق الأثرياء جداً جداً جداً :

استقلينا سيارة أجرة (تاكسي) . سائقها بسيط الملامح مكتظ البدن مكور البطن قصير الساقين على شفتيه ظل ابتسامة جامدة .. تنبعث من فيه رائحة خمرية مخلطة برائحة التبغ . فتملأ التاكسي برائحة تشبه رائحة الخمارات التي تؤمها السوقه من سواقي عربات الكارو التي يجرها حمار أو بغل أو حصان عجوز وذلك في مصر .

اتجه بنا هذا التاكسي الى بلدة تسمى (ماربيا) بتسكين الراء وكسر الباء وتبعد عن ملجا ستين كيلومتراً وتقع على شاطئ اسبانيا الجنوبي الذي يسمى (كوستاديلاسول) أي شاطئ الشمس ، وبها فندق (مليا دن بيبي) بكسر الباء الأولى وتشديد الثانية بالكسر أيضاً ودن بضم الدال وسكون النون – ومعناه سيد عظيم أو لورد أو بيه .

الكشك بضم الكاف والكشك بكسرها :

كان شكرى قد حجز لى جناحاً مثل الذى حجزه لى فى مدريد ، به مستشرق أى بلكونة كبيرة تطل على البحر الهادىء الجميل وعلى حديقة لا أدرى كيف أصفها لجمال تنسيقها ، مليئة بالأزهار والشجيرات والجواسق (والجوسق معناه الكشك الجميل الذى يمت للقصور والسرايات) . والجوسق لفظ عثر عليه مجمع اللغة العربية فى طيات وثنايا المعاجم وأظن استخدامه قصد منه التفرقة بين الكشك بضم الكاف والكشك بكسرها والأخير يطبخ مع الدجاج فيقال فرخة بكشك .

الجمال والحب والمال

أنظر يا حبي فندق الدن بيبي :

« بيبي » بكسر الباء الأولى وتشديد الثانية بالكسر .. أسم الفندق في بلدة (ماربيا) بكسر الباء وتشديد الياء بالفتح .. على الساحل الجنوبي لاسبانيا بالقرب من جبل طارق ويسميه الأسبانيون (كوستا ديلاسول) وهو مقصد أغنياء السياح من كل فج عميق في العالم . وهذا الفندق مصمم ليستجم فيه أثرياء العالم .

عزة :

قابلني شكري بترحاب عظيم وقادني لجناحي الفخم بالفندق ، وقدم لي عزة ، وعزة سيدة مصرية بجمال ساحر فتان ، وتناهز الأربعين ،

حوراء عينـــاء عماشات قد سلمت   لا يشتكي قصر منهـــا ولا طـول

عيناها تشعان ذكاء قاتلتان داعيتان حانيتان ناعمتان رقيقتان قاسيتان لماحتان خطرتان . قدها غصن بان أنوثتها واضحة طاغية غالبة ، لمياء ميساء ، فإذا استطردت في وصفها لن أنتهي .

تلاقت نظراتنا لحظة أحسست خلالها بأني عرفت ما في أعماقها وعرفت ما في أعماقي ، فليس للفتنة الخبيثة والغوايه إلي سبيل ، فإني محصن من أسلحتها ، تفاهمنا دون كلام ، وشدت على يدي وكأنها تعرفني ، وكأني أعرفها منذ القدم ، وبلمحة من عينيها أفهمتني أنه سيكون بيني وبينها ود وصداقة عميقة وأني سأكون حليفها وستكون حبيبتي بحب أفلاطوني طاهر ما فيهش كلام فارغ . وقدمها شكري باعتبارها سكرتيرته ، وأنها سيدة قادرة ويعتمد عليها في كل أعماله الواسعة الهامة ، ولقد أحضرها معه من مصر مندسنتين . واكتشف فيها مواهب وقدرات نادرة .. وهو لا يعلم كيف يمكنه أن يدير أعماله بدونها ..

أقام مفتاح معنا في الفندق ، فأصبحنا بذلك جماعة (شلة) واكتشفت أن عزة تقيم مع شكري في جناحه ، وأنه يعاشرها معاشرة الأزواج ، وكان هذا أول سر

اكتشفته في حياته .. وتساءلت في نفسي عما جرى لزوجته الألمانية ؟

استيقظت في الصباح المبكر وجلست في الشرفة (البلكونة) أتمتع بالمناظر الساحرة والجو الجميل الممتع كأنه القطيفة ملمساً ومشعراً .. وتأملت وتخيلت وشاهدت مشرق الشمس .

البحروالشمس والجمال والحب والمال :

حديقة الفندق مصممة تصميماً فنياً رائعاً .. مليئة بالأزهار المنسقة تكويناً ولوناً وتنظيماً . الشجيرات والأشجار والبساط الحشيشي السندسي ، بها حمام سباحة على هيئة دائرة كبيرة ، بجوارها حمامات صغيرة نوعاً مليئة بالماء ، تعكس لوناً أزرق مخضراً تسلط عليها الأنوار ليلاً . والغريب أن البحر كالمرآة لا يعكر صفوه موج أو تموج .. والشمس تشرق منه وتغرب فيه تخرج عند شروقها مجلوة مغسولة مبللة كأنها حورية خارجة بدلال من الحمام عارية ، فيحمر أديمها خجلاً ، وتخرج تارة مقنعة وأخرى مستّرة أو محجبة . تخفي بعض مفاتنها بغلالات رقيقة ذات ألوان بين بياض الثلج وحمرة الورد فتتقدم وراء خمار من وشي السحاب . تسير تتهادى من المشرق ، ترسل قبلاتها الى الصبايا المتاحبين على الشاطئ وتداعب المارحين السائرين ، وتلاحق عشاق الجمال ويلاحقونها ، حتى تصعد الى الذروة ، أي الشمس عند الظهيرة ، ثم تنزل الى مستقرها البحر لتغتسل وتزيل عنها ما عساه أن يكون علق بها من غبار الشر الذي يطلقه عليها في مسيرتها الوئيدة الهادية المباركة ، أشرار البشرية ، الحقاد والطامعون والمارقون والمنحرفون أعداء الله .. والجمال .

فتعيد الكرة ، ناسية هؤلاء الاشرار لترجع وتزكي الحب وحرارة الحياة في الأبرياء الأخيار الذين ينتظرونها بفارغ الصبر ليمارسوا تحتها الحياة ، بعد ظلام الليل وظلم الأرق والسهاد ، أو بعد الهجوع وراحة البال ، أو لتحيي آمال الصابرين أو لتطلق ملائكة الرحمة من أعنتها في الصباح التالي فينتشر في الأرض السلام والحب .

المتفندقون سادة يستجمون :

قضيت الصباح أتمتع بالهدوء وبجمال البحر والحديقة التي توافد عليها نزلاء الفندق وغالبيتهم غادروا سن الشباب بمراحل ، جاؤوا يستريحون من عناء وشغب حياة الأعمال

يصحبهم مرافقوهم وأتباعهم من حشم يجلسون على أرائك وثيرة ويسهر على خدمتهم ، شباب كالورد ، وعلمت أن معظمهم من أصحاب الملايين من أمريكا وأوربا ، وليس بينهم عربي واحد .. حضر إليّ شكري وبصحبته عزة ومفتاح . وخرجنا معاً نستطلع . وبينما ننتظر المصعد رأينا سيدة مع زوجها . رحمها الزمن الطويل الذي عاشته فترك على وجهها جمالاً فتياً وقواماً تحسدها عليه الفتيات الشابات . افتر ثغرها عن ابتسامة تذيب الثلج .. وكانت هذه فرصتي فابتسمت لنا ، فبادرها شكري بتحية الصباح وقدمني لها بتقديم يناسب المقام ، فبادرتني بتقديم زوجها لي وتعارفنا وتصاحبنا الى البهو الكبير الفخم ، ولاحظت أن شكري يجعلني أتقدمه دائماً ويتصرف مني تصرف الاتباع وكذلك عزة ومفتاح ، وما استوينا جلوساً حتى تبادلنا الحديث ، ولم تمضِ لحظة حتى توافد علينا رهط من الناس رجالاً ونساء ، واتضح أنهم من أتباع زوج السيدة .. وبسرعة ولباقة استضاف شكري الجميع باسمي على مشروبات للجميع . ولم أتصور قط أن الحاضرين ظنوا أنني سيد قومي وأن شكري من أتباعي ، ولكنهم على ما يبدو اعتقدوا ذلك ، وعبثاً حاولت أن أرفع الكلفة وأضع شكري في مكانه الصحيح ، ولكن تصرفات الخبيث أكدت هذا الظن بما أظهره لي من احترام ونظرات وانحناءات ، وكدت أنفجر من الغيظ لأني لم أستطب هذا الأمر .. ولكن ما الذي كنت أفعله إزاء هذا ؟.. خطر على بالي أن أبدأ بمعاملة شكري بشكل يضعه في مكانه الصحيح ويخجله ولكن خشيت ما يمكن أن يحدث من هذا التناقض وخصوصاً ما قد يصيب عزة أو مفتاح .. وتركت أمري لله وفهمت أن زوج السيدة أميريكي من أصحاب الملايين ... وصادقني هذا الرجل وتودد الي لأمر لا أعرفه .

وراء الأكمة ما وراءها :

بدأت أتشكك في مقاصد شكري ، الذي جعل من هيئتي بوساطة مصفف الشعر ومن عنايته بمظهري وما يحيطني به من احترام لا لزوم له ليس من عادته ، وساءلت نفسي لماذا كل هذا ؟ .. ولأول مرة بدأت أنظر الى شكري نظرة الفاحص لهيئته ، فبدى قصور هيئته يبدو لي ... وجهه غير مقنع ، وملامحه لا تتوافق ... وصوته أجش ضعيف ... وقامته عوجاء في قصر ... والوسامة في عداء معه . عجبت كيف أنني لم ألاحظ فيه ذلك قبلاً . والغريب أنني عرفت «شكري» منذ سنوات عديدة ، ولكن عين الرضا عن كل عيب كليلة ، وعين السخط تبدي المساويا ، فلم ألاحظ هذا القصور ،

ويظهر أن «عزة» قرأت في عيني ما في خاطري .. وتلاقت نظراتنا ، وشعرت أنها عرفت ما يجول بخاطري فأطرقت . ومن هذه اللحظة أحسست بما في انعلاقة التي بينها وبين «شكري» من شوائب .

قبل . قبل . قبل : (بفتح القاف وتشديد الباء مع كسر)

صمم شكري على أن يتجول في البلدة وأصر على أن نقضي وقتاً في علبة من علب الليل (كباريه) عثرنا على واحدة منها ، عليها لافتة مضاءة بالنيون ، تعلن بحروف كبيرة ثلاث كلمات بالانجليزية مضاءة معناها « بوس . بوس . بوس » بضم الباء طويلاً وسكون السين وبعدها جملة « لغاية ما تشبع » فاستعذت بالله وأردت الانصراف عن هذه (المبوسة) بفتح الواو ، ولكن عزة أصرت وكذلك مفتاح الأذى .. وما ولجنا الباب حتى غمرنا (هبو) بفتح الهاء وسكون الباء – كباريهاتي – أنوار وألوان وضجيج وحفيف وقنعرة وشعوذة ، فالمكان أشعث أغبر (متنيل على عينه) ساحة الرقص في وسط البهو ، ومخمر أي بار على اليسار ، عليه زحام خليط بشري من كل نوع .

ساحة الرقص مزدحمة (لحبة عينها) بقفازين ... نطاطين ... هزازين ... رجارجة (بكسر الراء الثانية) في جنون ... وشعوذة ... مع خبط ورقع ... وصليل وصرير ، لا يختلف من حيث الوتيرة ، عن ضجيج الزار وتفقير النسوة اللاتي يسكنهن (بسم الله الرحمن الرحيم) .

إن جه العيب من أهل العيب ما يبآش عيب :

تتبارى الصبايا والفتيات والنسوة في هز مفاتنهن ويتبارى الصبية والفتيان والدكرة (بضم الدال والكاف) في الجمز واللمز والهمز كأنهم قردة أو غربان .

جلسنا في جانب من هذا البهو نراقب عن كثب هذا الجمع المجنون المتجنن ، نراقب شرذمة من الشباب على البار ، بينهم فتاتان شقراوتان يتناوب الشباب على مغازلتهن – لكنهما عنهم معرضتان ، وبجوارنا ثلاث نساء يتغامزن ويتهامسن ، سمعهن مفتاح (أليل الحيا) يتحدثن عن الشذوذ الجنسي بين الأناث وأن هاتين الفتاتين الشقراوتين من هذا النوع ، فأنبت مفتاحاً على التنصت أولاً وعلى الخوض في هذا أمام عزة ، فضحكت عزة وقالت (هو أنا صغيرة) ولم يمكني أن أتجنب مراقبة هاتين الشاذتين لغرابة هذا الأمر ولأني لم أقابل في حياتي مثيلتهما ولو أنني سمعت الكثير عنه ، وعن انتشاره في بعض

البلدان الشرقية ، وعزمت أن أستفسر ما اذا كان هذا جناح (بضم الجيم أي حرام) .

ولاحظت ما يحدث بينهما ، تتبادلان التلمس والتجب بالايدي والأكف ـ ولولا بقية من ضبط النفس لاندفعت كل منهما لمعانقة الأخرى فاستعذت بالله من هذا الشر الوبيل .

الدولار الدولار .. أس العار والشنار :

يجلس بجوارنا أميريكي عريض المنكبين فاره طويل ، بجواره فتاة صغيرة كأنها عصفور ، سمراء رقيقة ضئيلة الحجم يكاد يلتهمها التهاماً ، ورأيت في ملامحها .. وفي عينيها شيئاً يكاد يصيح .. الدولار الدولار .. الدولار (في داهية العار والشنار) وتكاد تنطق في هذا الرجل المناكب والأذرع والأكف والصدر والعجز ، بانه يستطيع شراء البشرية بالدولار . الدولار . الدولار .(الله يخرب بيت الدولار) .

تصورت وتخيلت ، أن الشيطان في هيئة هذا العلج ، وهذه الفتاة في هيئة هرة هزيلة جائعة ، وسوف يجثم عليها هذا المتدولر المكتظ ، فينتف فروتها ، ويقطع ذيلها فتصبح أزعرة زعراء ، وتذكرت ما مر بروما ، وكيف انتهت امبراطوريتها (العاقبة عند أصحاب الدولار إن شاء الله) بالتدهور والانحلال .

الزعراء والازعر والازعرون :

ولا أدري كيف خرجت من هذا الجو ، الى ميدان المعاني ، عندما تصورت هذه الفتاة زعراء ، والأزعر في الحيوان هو الحمار أو البغل ، أو الحصان المقطوع الذيل ، وذلك ليتعرف صاحبه عليه ، والمعلوم أن معظم الناس تعلم دوابها بعلامات خاصة وهي متشابهة كالكي بالنار أو الصبغ أو الوشم ، أما قطع الذيل ، فأسهلها وقليل من الناس يستعملها ، ويقال إن الرجل أزعر عندما يكون مقطوع من شجرة لا أصل له ولا أهل .. ولا ينتسب الى بيت .. ولعلي تصورت أن هذا الأميريكي يتصور أنه اشترى هذه الفتاة الصغيرة وسوف يضع علامته عليها .

نون النسوة :

مر بنا صبي اسبانيولي أي اسباني مقلوظ السروال نافر العجز ، هزيل قصير ، فكأنه نسناس ألبسوه بدلة ، يتقدم رتلاً من الفتيات يهيأ للرائي أنهم كثيرات العدد مع أنهن أربعة ، واحدة نحيفة كالبوصة ، شقراء ، والثانية قصيرة مدملجة ، سمراء ، والثالثة

طويلة ضخمة ، والرابعة باهتة الهيئة لا تتميز بصفة . كن يجلسن يتحدثن ويبتسمن وينظرن حولهن ، يا ويلتاه من نون النسوة التي تقطع انسياب الكلام على الحسان من الأنثيات وتذكرت ثورة نساء القاهرة على هذه النون (نون النسوة) التي ألصقت بأحلى نصف في البشرية ، ولكن أخواننا السوريون واللبنانيون ، أكرموا هذه النون فأبدلوها بميم الجمع (الرجالي) واستعملوها للرجال والنساء على السواء تكريماً لها واحتقاراً لميم (الرجاله) بكسر الراء وفتح الجيم مع تشديد .

وبعد قليل توافد عليهن الفتيان يدعوهن للمراقصة ، فرفضن وامتنعن عن اجابة أي من الفتيان . تقدم مفتاح اليهن فرفضنه ، ولكنه لم يخجل وداوم على دعوتهن .. وبهذه المناسبة لم يجسر أن يدعو عزة للمراقصة .. وبعد هنيهة لاحظنا أن الصبي المرافق هو الذي يتوسط في دعوتهن ، ويتقاضى على ذلك سمسرة من الأجر الذي يدفع اليهن وعلمت عندئذ انهن محترفات يعني (بروفشنال) .

كدت أنفجر من هذه الحال ، وتيرة واحدة ، ملل ضجيج ، جو خانق ، صبرت على مضض ، الى أن طلبت عزة الانصراف ، لصداع أصابها ، فخرجنا من هذه المبوسة (التي لا هي مبوسة ولا حاجة) .

الواقع أنني أكره علب الليل ، واعتقد أنها كلها مقززة ولا خير فيها ، وكثيراً ما دعيت الى هذه العلب وأكرهت على ارتيادها ، ولكني خبرت أنواعها في كل بلاد العالم ولم أجد فيها ما يبرر أن يقضي أي شخص فيها وقتاً ، الا اذا كان خالي البال ضائعاً لا يدري أين يقضي ليلته ، ولا يحس بالجمال الحقيقي ، وتثيره البذاءة والفسق والفجور والخمر والأنصاب والأزلام ويحب بعزقة فلوسه ويبذرها ، المبذرون أخوان الشياطين .

بلدة الحب والمتعة

الخضرة والماء والوجه الحسن : هنا لا يذهبن الحزن

الزمان يوم الجمعة ، والساعة الحادية عشرة ليلاً ، والمكان شقتي الفخمة في الفندق في بلدة «ماربيا» الصغيرة التي تكتب (ماربللا) ، لأن الأسبان أسوة بالفرنسيين يبتلعون اللامات ويقلبونها ياءات . اللامات تستتر وجوباً ... لماذا ؟ الله أعلم .. والراسخون في الفَرْنَسَة (بفتح الفاء وسكون الراء وفتح النون والسين) .

قضينا النهار نستمتع في حديقة الفندق الجميلة نتريض قليلاً ونستريح قليلاً .. نتبادل أطراف الحديث وحرصت ألا نتكلم فيما له صلة بالعمل ، الجو صاف والبحر مرآة والشجيرات والأزاهير باسمات هادئات ، والسحب منقشعة ، والحسان يستنقعن في الماء الأزرق الجميل ، ثم يخرجن من الماء لينشرن أجسادهن تحت الشمس ، مستعرضات مفاتنهن لتجف .. والشيوخ والكهول على الشاطئ ، على الأرائك مستلقين .. لا يبالون بالولدان الذين يطوفون عليهم بكؤوس من بللور وأباريق ، ونحن الأربعة مفتاح وعزة وشكري وأنا بين هاتيك وهؤلاء ، نصور بمصورات (كاميرات) شكري الغالية جداً ، ونرشف المرطبات ، ومفتاح دائب على وصف مخاليق الله بأوصاف لا تكتب والا احمر وجه الورق وانقصف القلم .

إن الطيور على أشكالها تقع :

وبينما نحن كذلك هب مفتاح قافزاً قفزة قردية ، وانطلق كالسهم ثم رجع بعد دقائق في صحبة ثلاث فتيات ، علمنا منه أنهن كن في المبوسة ، وكانت الفتيات في شكل وهيئة من هيئات الزهور والجعضيض (الجعضيض نبات ينبت شيطانياً بين المزروعات ويأكله الفلاحون بمصر ، بينه وبين الرقة والجمال خصومة) ، انجليزيات ، الجنسية لندنيات ، يقضين أجازة قصيرة في هذه الربوع الجميلة ، هن «ريتا» وهي فتاة لا بطول ولا بقصر شرقية الملامح صغيرة القد جميلة المحيا ، والثانية «جيني» طويلة هيفاء (تكنيكلور) أي واضحة الألوان ثعبانية القوام عيناها زرقاوان لطختهما بالماليشت أي الكحل الأررق وشعرها لون (شواشي الدرة) ، مهدل على منكبيها ،

والثالثة «ايلين» بين هاته وتلك ، سمراء ذات عينين زائغتين ، لا قبيحة فتنفر ولا جميلة فتجذب .

فتيات فاجرات واعيات داعرات :

جلسن بعد دعوتهن وظللن معنا الى المساء ضيوفاً علينا ، وكان مفتاح يدور حولهن ويلف مستعرضاً حركاته ، التي لا تمت للرشاقة الحقيقية بأي صلة فكأنه قرد يتجمز أو جرادة تتقفز ، آملاً متعشماً لعل وعسى ، ولم يتعد الحال مبادلة الحديث ، وكان مفتاح يود من صميم فؤاده أن نتهي إلى الملامسة وبعدها ما بعدها فكان يوجه الحديث دائماً إلى المواضيع التي لا تكتب وأن سمعت تتبادر إلى الوجوه حمرة الخجل (التي امتنعت هذه الأيام عن وجوه كثيرات من الفتيات) فانطلقت ألسنتهن وأوضحت كل منهن حالها ، قالت «ريتا» إنها لا تحب ممارسة الحب ولكنها تهوى مشاهدته ، وقالت «جيني» إنها على الحياد في هذا ، أما «ايلين» فقالت إنها تعيش لأجله وتهواه وتعشقه . وكاد مفتاح يجن وجلس صامتاً وعيناه زائغتان يفكر كيف وكيف الوصول إليها ؟.. هيهات هن زائرات وسيرحلن في صباح اليوم التالي .

جولة في ماربيا :

هكذا انتهى النهار ، وصعدنا للاستعداد للخروج والذهاب للتجوال في ماربيا هذه البلدة الجميلة ، النادرة ، ومشينا ، ومشينا خلال هذه البلدة الخرافية ، أزقة وحارات وشوارع مليئة بالمتاجر من كل صنف وهوية مكتظة بالبضائع الخلابة الملونات والتحف والسلع . ولاحظت أن عزة لم تترك هذه الفرصة تمر ، فاشترى لها شكري الكثير مما خف حمله وغلا ثمنه .. دفع فيه مبالغ طائلة غير معقولة أدهشتني جداً .. وكان مفتاح قد اختفى ولم يصاحبنا وكأنه فص ملح وذاب ، ولم نره الا بعد يومين في الفندق ولما سألته عزة أنت رحت فين ؟ .. غمز بعينيه وانفجر ضاحكاً ، ولم نعد نعاود مساءلته حتى لا يفيض علينا بأخبار فسقه .

المارد وابنته :

ولما كلت أرجلنا من السير الطويل ، والشراء من المتاجر ، رأيت باباً صغيرة عليه لافتة بالانجليزية تقول اتفضل كل واتهنا – وأرادت عزة أن نستريح فيه . كان مطعماً صغيراً غريب الشكل ، اخترنا مائدة فيه ، وما أن جلسنا حتى أطل علينا من عليائه مارد

طويل لا يقل طوله عن مترين ، غمرنا ظله ، شيخ يناهز السبعين من عمره بلحيته الكثة البيضاء ، برأس أصلع وعيون براقة ، من وراء نظارات أو عوينات سلكية الاطار يبتسم ابتسامة جادة أودت بالرهبة والفزع الذي اعترانا إثر نزول ظله علينا .. ولما سألته هل له معرفة بلغة أولاد التايمز أي (الانجليزية) أجاب بصوت أجش هاجته رطانه أميريكية ، إي نعم ثم هش وبش في وجهنا واقتادنا الى مائدة جانبية ممتازة ، ولما أطلقت عليه دعابتي التي أداومها (كتر خيرك أنت قعدتنا جنب السكة عشان توكلنا كويس) .. أجاب (لا ليس علي أن أطعمك علي أن أحبك وتحبني وعلى اللي جوا يطعموك بما لذ وطاب) — ثم هش وبش وكان طوله الفاره يتأرجح فوقي .. فخيل لي أنه طود شامخ لا يلبث أن يسقط على قمة رأسي ، ولعله أحس بما شعرت به فقفز كالقنغر (الكانجارو) مبتعداً ، ومشيراً بيده يودعنا ، وفي لحظة . دهمتنا مخلوقة في طوله وكأنها خيال المآتة — مفرطة الطول ، رفيعة كالبوص ، صدرها بساط وعجزها كأنه لوح من الخشب ، ذقنها متطرفة وعيونها تستتر وراء عوينات سلكية الاطار ، شعرها مدلدل لا موج فيه ولا اعوجاج ، بني اللون لا بالاصفر ولا هو بالأبيض ، باهت غير مصفف أطلت هي الأخرى من مرتفع هامتها ، أطلت علينا بابتسامة رقيقة أذابت قبحها ، فنسينا هيئتها وأخذت الطلب ويظهر والله أعلم أنها ابنة ذلك الصاري .. فهي صارية مثله ولا أقول نخلة .

بادرت بتوريد الخبز والزبد ، ثم الحساء اللذيذ جداً ، علمت أنه خليط من عش الغراب وهو نبات فطري ينمو في الأماكن الرطبة يشبه الشمسية ، وغيره من الخضروات ، ويلي ذلك اللحم المطبوخ بحذق ومهارة والسلطة مخلطة بذوق وفن عظيم .. وبينما كنا نلتهم هذه الطيبات جلنا حولنا بنظرنا فإذا بالمكان مأوى للطاعنين في السن من الأميريكيين مثنى مثنى — أمامنا شيخ وامرأة لا بد أنها سامته سوء العذاب وذلك واضح من نظراتها القاسية ووجهه الخانع في مذلة واضحة ، وبجوارنا شيخ وشيخة يتبادلان نظرات العطف والمحبة ، وخلفنا اثنان يتناقران ، وكان واضحاً أن المرأة تكاد تقلب صحن الحساء على رأسه وهو في خجل ظاهر وغيرهما اثنان يتهامسان ولعلهما يتفقان على أمر مبيت ومريب وغريب .

زوبعة في فنجان :

لم تمض لحظة ، حتى امتلأ المكان بالرواد ، وساد الهرج والمرج وتوافد علينا خلق كثير ، غالبيتهم شباب مخنفس ، وتكأكأ الجميع على المخمر (البار أي سماط المنكر)

يحتسون ابنة الكرم الحمراء والذهبية الخالص منها والمقطر الكحولي. يجول بينهم وحولهم هذا الصاري البشري كأنه مئذنة ، تتمايل ذات اليمين وذات اليسار . لم تمض لحظة حتى سادت المكان ضجة . يظهر أن فتاة المطعم الصارية الطول اشتبكت في شجار مع امرأة قصيرة القامة قبيحة الهيئة قردية الشكل ، وبالتحري علمنا أن هذه القردة البشرية دائماً ما تندس بين الخنافس الذين كانوا يلوذون منها بالفرار من المطعم خوفاً من حدوث ما لا تحمد عقباه .. ولما حمي وطيس الشجار جمعنا شملنا وحملنا مشتريات عزة ومرقنا من المكان بسلام لان الزحام حول الباب كان كثيفاً والناس مزنقه خالص . هذا بعد أن دفعنا الحساب والرضيخة(أي البقشيش) .

الأدب واللباقة شيمة النبالة : (أي صنعة النبل بضم النون وسكون الباء)

بحثنا عن وسيلة للرجوع للفندق الذي يبعد عن هذا المكان مسافة لا يمكن لأقدامنا المتعبة تحمل سيرها . فوجدنا حافلة (أتوبوس) ووجدت مقعداً خاليا بجوار سيدة حسناء . فاستأذنتها للجلوس على هذا المقعد ، فتعجب الناس وخاصة السائق الذي تساءل لماذا يستأذن هذا (الدن) أي السيد أو البيه بالجلوس ، ومن حقه الجلوس في المقعد بلا استئذان ، وأخذ يذكر أيام زمان ونبل وشهامة الدنادنة والسيانره (جمع دن وسنيور بتوع زمان) ولمظهري المنمق الذي رسمه مصفف الشعر الذي كان مكلفاً بتجميلي ، اشتبه أنه لا بد أنني أكون من بقايا عصر (دُن كيزوت دي لا منكا وسانكو بانزا) ، وهما شخصيات تخيلية في الأدب الأسباني .

وعندما استفسرنا هل سيمر هذا الأتوبوس على فندق دن بيبي أجاب بالنفي ، فنزلنا من الأتوبوس بخفي حنين . مع أسف السيدة على نزولي ، وهنا أخذت عزة تداعبني بقولها الست لعب في عبها الفار من ناحيتك ، وظنت أنك بتغازلها وفرحت . استمرت هذه المداعبة حتى عثرنا على سيارة أجرة أوصلتنا الى الفندق .

مفتاح والإسرائيلية وزوجها :

مضى يومان وعقدنا العزم على الذهاب الى طنجة ، وهي مدينة على الساحل الإفريقي تتبع بلاد المغرب عبر مضيق جبل طارق ، ولكن اتضح أنه يلزم لنا فيزا نحن المصريين (ليه يا سيدنا) اشمعنا احنا من باقي الناس .. أهه عشان كده ، فلعنت السياسة وما تسببه من تفرقة بين الأقوام العربية لذلك فضلنا الذهاب الى مالاجا ، وهي بلدة جميلة قريبة من ماربيا ، وقضينا جزءاً من الصباح في حديقة الفندق الساحرة نشاهد

المستحمين في حوض السباحة المستدير . ولاحظت «عزة» زيغات عيون مفتاح . وبالالحاح عليه أخبرنا أنه قضى السهرة ونحن نيام في صالة الفندق مع سيدة جميلة سمراء مع زوجها الألماني وهي اسرائيلية ، وأخبرنا أنها تجاذبت معه أطراف الحديث الى الثالثة صباحاً وألحت على زوجها أن يصعد لينام لأنه تعبان ، ولكن زوجها لم يتركها لحظة مع مفتاح وهكذا لم يتمكن من الانفراد بها ، ولكنه لم يفقد الأمل وخصوصاً أن السيدة كانت تبادله النظرات المداعبات ، ولما لم يفده الانتظار شيئاً ولا الخطط التي كان يرسمها لحرص الألماني ، قرر السفر الى مدريد مغادراً ماربيا عن طريق مالاجا ، في الساعة الثامنة من مساء اليوم لذلك قررنا أن نذهب الى مالاجا في الساعة الواحدة لنصطحبه معنا قبل سفره ثم يرجع الى ماربيا .

الجنرالزمو .. وإسبانيا :

اتجهنا شطر مالاجا وكان الطريق على طوله في غاية النظافة بضفتين منتظمتين عليهما مبان ناصعة البياض ، وتعجبت كيف أن هذه الطريق خالية من النفايات ، حتى من عيدان الكبريت أو أعقاب السجائر أو أوراق الشجر ، فلا بولة أو بصقة ، أين وكيف يتخلص هؤلاء القوم من النفايات (الزبالة) وفي بلاد أخرى الحرية مطلقة في ترك القمامة حيثما اتفق دون احتراس فتمتلئ الطرقات والأرصفة بها ، وعجبت كيف تعلم هؤلاء الإسبان الاحتفاظ بطرقاتهم بهذه النظافة والجمال .

مرت السيارة بنا في طريق معبدة جميلة ، وتجاذبنا أطراف الحديث حول إسبانيا وحالها ، وعلمت أن إسبانيا صنعها الجنرالزمو فرانكو وأن الإسبانيين شيء وإسبانيا شيء آخر ، فلا تزال فيهم سمات من سمات الشرق ولو تركوا دون ضوابط لكان لإسبانيا شأن آخر .

فكر جـديد

« الهبابة » و « الهبية » « فكرة صبية » :

الواضح أن الهبابه أو الهبية أو الهبزم أو كما تحب أن نسميها ، وهي ثورة فكرية واجتماعية وإنسانية . فلو قارنا بينها وبين غيرها من الثورات الفكرية في العالم كله ، لوجدنا أن جميع الثورات لم تتصف بالتقاتل والعنف واراقة الدماء . لقد كان لبوذا ثورة بيضاء وكانت المسيحية ثورة بيضاء بالرغم من الظلم الذي لاقاه المسيحيون في بداية المسيحية .. وكذلك كانت الكونفوشيوسية ثورة بيضاء ، وكانت لجميع هذه الثورات تعاليم وأفكار ومريدون ما زالوا حتى يومنا هذا .

فلو اعتبرنا المقارنة أساساً للقيام لوجدنا أن « الهبية » أو « الهبابة » بكسر الهاء بغض النظر عن آرائنا الشخصية عنها ، باعتبارنا شرقيين متحفظين ومتزمتين الى حد ما ، لوجدنا أنها ذات تعاليم وأفكار ومبادئ وأخلاقيات ربما لا تقل أصالة ولا وعياً عن غيرها من الأفكار التي جاء بها بعض الأقدمين . كما أن شيوع فكرتهم ومبادئهم في العالم القديم والحديث يجعل من هذه الحركة ثورة لم تسبقها في السرعة والانتشار أي ثورة أخرى . كما أن عدد مؤيدي هذه الثورة هم أكثر من مؤيدي أي فكرة أو مبدأ حديث آخر في العالم ، ولقد تحدثت مع كثيرين من الهبيين الحقيقيين من جنسيات مختلفة وفي دول متعددة كنت في زيارتها . فبهرت من صدق مقصدهم نحو الحرية والانسانية واصلاح البشرية واطلاقها من قيود الجهل والتعصب والعدوان والحروب .

تورمولينوس .. عاصمة الهبيين :

مررنا في طريقنا ببلدة تورمولينوس وهي بلدة أنيقة رشيقة باشة هاشة ، وكل سكانها هبيون أو أهبه (بكسر الهاء وفتح الباء مع التشديد) شعورهم مصففة ومرجلة باشكال وهيئات يخلط فيها الانسان فيما بين الأنثى والذكر في أزياء غريبة تلفت النظر وأوضح سائق السيارة لنا أن إسبانيا خصصت هذه البلدة الجميلة للهبيين الخنافيس أو الخنافسة من سائر أنحاء الدنيا . فهي مأواهم العالمي وعاصمتهم ، وتمتاز بالجمال والهدوء والقرب من الطبيعة ، وقد لاحظت أن نظافتها ونظامها لا يقلان عن المعتاد في إسبانيا . وسكان

هذه البلدة فرق وأشياع وهيئات وألوان فيهم السويدي والسويدية الشقراء كما أن فيهم الافريقي الأسود وغيرهم من أنواع البشرية الذين انطلقوا من القيود الحضارية وفقدوا الأمل في الناس . يرفضون الإيات (بكسر الهمزة وتشديد الياء مع الفتح) على أنواعها . أي الأسماء التي ألحقت وراءها الملحقة (ية) مثل (الرأسمالية – الشيوعية – العقائدية) مما ابتلتنا به السياسة هذه الأيام الغبراء – غالبيتهم شباب كالورد مثقفون شجعان يدعون الى الأخوة العالمية ورفض الحروب والدعوة الى البساطة وتجنب الرفاهية والكراهية غير أنه بمزيد الأسف كالعادة تشكل بهيئتهم بعض الأشرار الذين اتخذوا المظهر دون الجوهر فأساءوا سمعة هذه الجماعة وشاع عنهم السوء والشر والقذارة .

الاسبان خبراء في اعداد الطعام :

سارت السيارة بنا من هذه البلدة الغريبة حتى وصلنا مالاجا الحسناء ، وهي مدينة كبيرة على البحر تزيد في الحجم كثيراً عن ماربيا ، وتوجهنا نحو مطعم على البحر وذكرني هذا المطعم بما رأيته على ضفاف البسفور في تركيا ، يجلس رواد المطعم على الشاطئ ، يأكلون ويحتسون ويشربون ويتضاحكون وهم في حبور .

وعندما تصفحنا قائمة الطعام وهي مجلد ضخم ، ولست أبالغ أن عددت أنواع الطعام حوالى خمسة وأربعين نوعاً من الأسماء وستين نوعاً من اللحوم ومائة وعشرين نوعاً من السلطات وطبيعي أن أتشكك في هذا الأمر ، وتذكرت ما حدث لنا في مصيف ، قضيت فيه اجازة صيف في مصر حيث كانت قائمة الطعام تحتوي على تفاح الغرام ، وخد الجميل وسرة الهانم وفتافيت للعشاق وعصيدة الهيام وسمك الشوق وفتنة النغم .. الخ واتضح بعد أن قدمت لنا هذه الأصناف أنها خليط مما تعافه الأغنام ولا تقربه الكلاب الضالة مما (يقفل النفس) ويغري على الصيام والامساك عن الطعام (الله يقرفهم) .

وعندما بينت خشيتي لشكري ولمفتاح أكدا لي أن ما في القائمة مختلف واسماء على مسميات وأنه لا غش ولا احتيال فيها خوفاً من أن أقع في المحظور مثلما وقعت في القهوة الأيرلندية رجوت عزة أن تختار لي ما يناسب ، وبعد هنيهة حضر فتى الموائد يدفع أمامه بعربة الطعام (التروللي) وعليها أكوام من الطعام المنوع ووضع أمام كل منا نصيبه ، ولعل وفرة ما وضع أمامنا يذكرنا بالخاليات من الأيام في مصر في بيوت العمد والباشوات فلا بد أن باسبانيا مزيد من الاغذية وقلة من الآكلين وليس عندهم وزارة تموين حاجرة حاجزة مقترة .

سانكو بانزا عصري :

اكترينا عربة تجرها فرس ، على هيئة حناطير القاهرة غير أنها ملونة . ولما كان الوقار قد نض والحياة قد خبا ، والعقل قد عفا من سكرة التخمة ، ركبت عزة بجوار الحوذي وهو في شكل سانكو بانزا ، وسانكو هذا إن كنت جاهله رجل لطيف المعشر بسام ، في الأدب الاسباني كما سبق بيانه ، وهو في هيئة كرنبة كبيرة على رأسه قبعة إسبانية كان يلبسها ميتادور حتى قربت من البلى (الميتادور هو مصارع الثيران) وعلى رأس فرس العربة ثبت قبعة غريبة الشكل ، تنفذ منها اذنا الفرس ، مدندشة مزركشة ، ويتدلى من عنق الفرس جلاجل وأجراس تدندن أنغاماً مع وقع حوافره على الارض ، ذكرتني بالقطعة الموسيقية (دونكي سيريناد) أي سيريناد الحمار ، وهي قطعة مشهورة عالمياً .

محاولة هبية : (بتشديد الباء المكسورة)

سارت هذه العربة بنا وعزة بجوار السائق ، وبدأت بدعاباتي كالمعتاد ، فتلقفها الحوذي بذكاء وأخذ يبادلني دعابة بدعابة ، أولى دعاباتي كانت حول البلكونات أي المستشرفات في المباني والبيوت التي نمر بها ، ولاحظت أن أسوار البلكونات مصنوعة من أسياخ الحديد ، وكان بأحداها سيدة رأيناها من أسفل ، فأرخيت نظري فوراً لهول ما رأيت ، حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه ، لأنها لم تكن محتشمة أو محجبة الأسفل تصنعت الغضب ، وقلت له إنني لن أعيش في هذه البلدة لحظة ، حتى لا أودي نفسي وأخدش حيائي بهذا القبح – فأخذ يلومني بلطف ، ويصف محاسن الأناث وأن هذا ليس فسقاً بل ضرورة من الضروريات ، فقلت له غض النظر يا رجل ، وهكذا تتابعت الدعابات وأصبحنا موكباً يصيح فيه هذا العربجي أي الحوذي الذي انطلق يحادث المارة .. ويبادلهم النكات وخصوصاً عندما دخلنا الأزقه والشوارع الجانبية حيث (الفيللات) وبيوت علية القوم ، وقليل من المارة ، ولعجبي ودهشتي بادله المارة دعاباته نساء ورجال ومنها أنه صاح في سيدة جميلة بكلام لم أفهمه ، فردت عليه السيدة بالإيجاب واتجهت نحونا ، وبالسؤال عما قاله لها ، قال إنه أخبرها أن هذا الدن مشيراً إليّ يرغب أن يتزوجها ، فزجزته وألهبت ظهر الفرس بالسوط ، فانطلق بالعربة مسرعاً ، والا كان ما لا يحمد عقباه ، لأني أعلم أن الإسبانيين ما يعرفوش الهزار .

سعر الظأطله غالي :

وهكذا قضينا ساعات في مرح وفرح وظأطلة ، وذكرني ذلك بأيام الصبا عندما كنا نفعل مثل هذا بمصر . وصلنا الى وسط المدينة أمام كنيسة جميلة ، ونزلنا لنسير على الأقدام ، فاذا بهذا العربجي يتصرف تماماً كما يتصرف العربجية المصريين . لأنه طالبنا بسبعمائة بستو أي سبعة جنيهات مصرية ، ولما كلمه مفتاح بدأ في الصياح كما يفعل أرباب صنعته بمصر عندما يقع في براثنهم زبون ، فبادر شكري بايقافه عن هذا الصياح ومنحه ثمانمائة بستو ، وزجر مفتاحاً لمحاولته مقاولة الرجل وقال له (إننا ظأطلنا وفرحنا وانبسطنا والفسحة تبقى حلوة لما تتكلف غالي) .. فتعجبت لهذا المنطق .. وتذكرت القول (اللي معاه حنا يحني ديل جحشه) والحنة عند شكري تلال .

سرنا نتأبط أذرع بعضنا البعض ، نتفرج على الدكاكين فملأت الحسرة قلبي لأني وجدت أنها مكتظة بالسلع وغيرها من منتجات الصناعة والزراعة والتكنولوجيا وغير ذات فاقة أو ضعة ، (اللهم رد علينا رفاهيتنا وثراءنا وأغن مصر ، واقصف عمر اللي كان السبب في اللي احنا فيه) .

اخترنا مقهى يشبه قهاوي باريس ، وذكرني هذا المكان بالمكان الذي ارتدناه في البيجال الذي جلسنا فيه في باريس ، وكاد أن يحدث ما لا تحمد عقباه ونجونا من القوم الظالمين فيه .

ظن أثيم :

ولما أردت ومفتاح التوجه لغسل أيدينا وقضاء حاجتنا حاولنا دخول دورة المياه ، فاعترضت طريقنا امرأة خنضرف (بسكون النون وفتح الضاد أي الضخمة الكبيرة الحجم) حيزبون (نكريشة) ورجل مثلها يدققان النظر في الداخلين والخارجين حتى لا يدخل الذكور دورة مياه الإناث ، وبالعكس فسألته ماذا لو تشككا في أمر داخل أو داخلة ، والفرق هذه الأيام غير واضح ، فأجاب أن لهم طرقاً خاصة ، ولعب الفار في عبي خوفاً من أن يتخذاها حلوانه في سلوانة ويتلمسونا ، فرجعت دون الدخول مفضلاً الحسرة عن التعرض لهذا الأمر الوبيل ، وحوقلت وتعوذت ، ثم أخذنا مفتاحاً الى الطيارة وسافر الى مدريد .

مهما تبطن تظهره الأيام

لمسة من المنكر :

أصبحت بخير وعافية ، ولسوء الحظ كانت السماء هذا الصباح مكفهرة والشمس غاضبة مستترة وراء الغيوم والبحر يزمجر غاضباً ، وعجبت كيف انقلب حاله بين ليلة وأخرى من بحيرة كالمرآة الى بحر غاضب ، ولعل رهطاً من الأشرار أغضبوا (نبتون) إله البحر عند الاغريق – وهو يحمل دائماً حربه بثلاث شعب ، وكان الجو مشوباً ببرودة غير مريحة .

طفنا بالحديقه فاذا بها خاليه من الناس الذين تقوقعوا في غرفهم ، وتركوا هذه الحديقة خالية ، ليس فيها ديار ولا نافخ نار ، فآوينا الى صالة الفندق نتجاذب أطراف الحديث ، ونرشف المرطبات ، وهي بالنسبه لي خليط بما يسميه الانجليز (جن تونك بكسر النون) وهو شراب عودتني عليه الملعونة تريزا سكرتيرتي هذه الخبيثة ، وهو شراب أفضله لأنه ناعم على الحلق أثره خفيف منشط مذهب للأوجاع فأقنعت نفسي أنه غير ذي سكر ، شفاف لؤلؤي البريق به دائماً شريحة من الليمون الذهبي اللون في كأس بللوري بنقوش يخيل لمن يرتشف منه أنه محفور من ماس ، لذلك في رأيي أنه لمسة من المنكر وليس منكراً خالصاً ، ولو أن العديد من هذه الكاسات يقربه من الويسكي أو ما يشابهه والعياذ بالله .

شكوى أو تحذير :

استأذن «شكري» وترك «عزة» في صحبتي ، وكانت هذه أول مرة تنفرد فيها بي ودار بيننا حديث تطرق الى علاقتها بشكري ، وقالت أنا حبيتك زي أخويا وعايزة أقول لك حاجات كتير بس ده مش وقته ، فحاولت بلطف أن أخبرها أنني لا أريد أن أعرف أسرار الناس ، ولكنها قالت إنها محتاجة لصديق (تفضفض له) لأنها وحيدة غريبة فتعجبت لذلك .. وسكت فأخبرتني أن شكري وعدها بالزواج وبطلاق زوجته الألمانيه فقلت لها أنتي بتحبيه ؟ . فقالت أنا كنت بفتكرك راجل مجرب وفاهم ، فقلت لها هوا بيحبك ؟ ، فقالت هو ده يحب حد ؟ . ده غرقان لشوشته في لم الفلوس – أنا عايزه

أقولك خد بالك – فلم أفهم ما تعني (ولكن لعب الفار في عبي أوي أوي خالص) . ولاحت مني التفاته فوجدت سيدة جميلة جداً بجوارنا ، وكانت تناهز الأربعين في سن عزة ولم أشأ أن أستطرد في الكلام مع عزة وبادلت السيدة الابتسام ودعوتها لمشاركتنا الجلسة ، فقامت الينا وجلست ترشف قهوتها ، وكانت بلجيكية بسامة الثغر ملفوفة القوام (بهكنة) سكون الهاء أي حسنة الجسم والخلق والمشية – أخذت تتقبل دعاباتي والدعابة داء عندي عضال – وسألتها هل انت حرة أم متزوجة ، فضحكت وقالت إنها متزوجه وزوجها في بلجيكا وهي تستجم هنا وحدها ، فتأسفت وقلت لماذا لم تنتظريني وكنت أحلم بك طوال حياتي ، فاستغرقت ضاحكة . وغازلتها بغزل بريء أضحك ، الحاضرين وهكذا قضينا وقتاً مرحاً حتى استأذنت وانصرفت ضاحكة .

ولاحظت عزة أنني لا أرغب في مزيد من الكلام عن شكري خوفاً من أن تكون عزة قد كلفت باستطلاع رأيي في شكري .. صعدت الى جناحي الفخم الفاره بالفندق – وحيداً أفكر في فريدة ابنتي وزوجتي خديجة ، وجلست أكتب لهما رسالة طويلة .

هواجس وأحلام :

ولما أمسى المساء دعاني شكري لجناحه في الفندق .. لأول مرة حكمني في شجار بينه و بين عزة . فتوخيت الحياد ، ونصحتهما بالوفاق . وبعد العشاء انصرف كل لجناحه واستلقيت على فراشي أستعرض في ذهني ما مر علي منذ أن دعاني شكري لمرافقته من أفكار وهواجس .. هل وراء الأكمة أشياء لا أعرفها .. أعمال المكتب كما أراها ليس فيها عيب أو مأخذ ، لماذا يرسمني «شكري» بهذه الصورة ، فاستغرقت في نوم مليء بأحلام مزعجة تمنيت فيها أن أكون بمصر أعيش في قناعة ولم يفتنني قط ما أعيش فيه من بذخ لا أستريح إليه .

دعابه حتى مع نفسي :

استيقظت ومارست طقوس الصباح التي كان أطيبها الحمام واستنقعت في البانيو أي المغطس الأوربي أو الحوض الذي يستعمل المصريون بدلاً عنه الطشت ، الذي قال لها .. (يا حلوة أومي استحمي .. والله ما استحما يا بيه ، الا ان جبتلي فستان لا ميه .. الخ في الأغنيه المصرية الحديثه) .. والبانيو هذا مغر جداً في هذا الفندق به من وسائل المتعة الكثير ، المرايات والمناشف الحانية الناعمة والأنوار والصابون والشامبوه . (وهو سائل مستحدث تستعمله الهوانم) والعطور والسجاجيد والصور . مما يدعو

الإنسان للمكوث فيه والتمتع به (ملحوظة : استهلكت من هذه المنعمات الشيء الكثير الذي لو صرف في فندق الوطن في سيدنا الحسين رضي الله عنه لأفلس) .
وبهذه المناسبة على ذكر سيدنا الحسين ... لو أننا صدرنا ليالي الحسين إلى إسبانيا ، لا بد أن نختار لذلك أمبراساريو أي متعهد اسرائيلي وذلك لينال من العلق والضرب والأذية بالصرم القديمة ما يهلكه ، لما في ليالي الموالد من أشياء مؤذية من مسلوقات الترمس ومياه اللفت والمخللات ، وغيرها من القواتل من مآكل ومشارب وأطعمة ومشويات تختلط بدخان الفحم الذي يدخل رئات الخلق ، هذا غير الضجة الكبرى التي تشبه كثيراً أصوات الاتانات (الاتانة أنثى الحمار إن كنت جاهلها وقيل في أشرف القول أن صوتها أنكر الأصوات) . وانتهت طقوس الصباح كلها ونزلت إلى صالة الفندق لاستقبال اليوم .

التغيير توابل الحياة

الفكاهة والتندر المثقف يثيران البهجة مع الاحترام :

لما امتلأت الى القمة من نوع هذه الحياة التي أصبحت مليلة ، لوتيرتها الواحدة أبديت رغبتي في الرجوع الى مدريد معتذراً لعزة التي أظهرت هي وشكري أسفهما لأنهما زعْماً أنني كنت سبباً في سعادتهما وفى الجو المرح الذي نشرته في الفندق . والواقع أن في هذا شيء من الصحة لأنني كنت دائماً مصدراً للحديث والتندر والدعابة الذكية . وكان يجتمع حولنا عديد من النزلاء من كبار رجال الأعمال في الدنيا ولم يفتأ شكري أن يضعني في صورة خيالية ، لم أرضَ عنها بتاتاً ، ولم أدر بما كان يشيعه عني بين الناس .. ولطبيعتي في التصرف دائماً في المجتمع دون تكلف أترك لنفسي العنان ، كأنني شاب لا أتجاوز الثلاثين لا أشعر برهبة نحو هؤلاء الناس بل كنت في ضميري أشفق عليهم لحرمانهم من التمتع بالحياة الحقيقية التي لا يزيفها المال . وكان أثر ذلك تأكيد ما يشيعه شكري عني بدلاً من أن يغيره . وامتدح الجميع حريتي وانطلاقي خصوصاً أنني لم أنزل بمداعباتي عن مستوى الثقافة والحضارة والعلوم ، وقررت «عزة» و«شكري» السفر معي ومغادرة «ماربيا» إلى «مدريد» .

العودة :

في الصباح المبكر استعددنا للرحيل وذهبنا الى مطار ملجا ، واضطررنا للانتظار في المطار . فطفت فيه واستعرضت ما فيه من سلع ، اشتريت منها هدايا لعائلتي وأصر شكري على دفع الثمن ، وكان من بين ما اشتريته .. دميات تمثل ما في إسبانيا (ميتادور) و (راقصة فليمانجو) و (سانكو بانزا) و (دون كيشوت) ونماذج لسيوف إسبانية ، وغيرها مما يرمز لاسبانيا الحديثه والقديمة ، والواقع أن فريدة ابنتي هوايتها جمع مثل هذه التحف من مختلف بلاد العالم ، وعندها مجموعه تمثل غالبية دول العالم التي زارتها ورقصت فيها مع فرقة رضا .

المطار يقول مرحبا :

وصلنا مطار مدريد والنظام فيه أن يدخل المسافرون ردهة المطار ، وينتظرون بجانب نضد طويل متحرك بشريط عريض يحضر الحقائب ، وكل مسافر يلتقط أمتعته بنظام محسوب فلا ازدحام ولا ضوضاء ، ولا تساؤل ، والمكان نظيف للغاية ، ومريح ولا يدعو الى هرج أو مرج ، فاين هذا مما يعانيه المسافرون في المطارات الأخرى .. ولا أريد أن أعينها .

السيارة سجني :

كانت سيارتي السيارة التي بلاني بها شكري .. التي يسوقها سائق ببدلة رسمية وكاب - أي قبعه - التي كانت سجني طوال اقامتي في مدريد وكان سجاني تريزا والسائق وكثيراً ما كان الفارز أو مريانو أو ماريا في مرافقتي ويتصنعون أنهم خدمي وحشمي لعنة الله عليهم وعلى أسيادهم .

استقبال العائد :

ركبنا السيارة شكري وعزة وأنا .. وتوجهنا الى فندق (ميليا كستليا) وهو فندق من الدرجه الأولى وأودعنا فيه (عزة) بحقائبها ، ثم أودعت أنا في فندق (ايروبلدنج) حيث كان جناحي محجوزاً طول الوقت . ولا داعي لوصف الاستقبال الذي قوبلت به . والواقع أنني عشت حياتي عادياً كأقل الناس ، وكنت أشعر أن ما أراه ، رياء في رياء ، (وضحك على الذقون) وليس لشخصي فيه أي دور ، بل هي فلوس (شكري) .. وكان يقشعر بدني وينتابني ما يشبه الغثيان .. ولولا بعض الوفاء (لشكري) لانطلقت في هؤلاء الناس سباً وشتماً .. وقفلت راجعاً الى مصر .

(ملحوظه : يستعمل العرب كلمة قفلت أي عدت أدراجي ، وكلمة قفلت ليست مشتقه من اسم القفل الذي يفتح بمفتاح بل هي كلمه مشتقه من اسم - القافلة - وهي وسيلة السفر القديمة عند العرب فيقال قفلت راجعاً أو رحلت مع القافلة) .

جناح الفندق الذي أشغله .. دخلت فيه فاذا به مرتب ، وكل ملابسي معدة ، وحاجياتي مرتبة ترتيباً جيداً ، (وتريزا وماريا) ينتظرانني .. واستقبلاني كأني عريس . وحضر شكري متأدباً واستاذنني للسفر الى (ليبيا) بعد ساعات (شوف الراجل .. آل بيستأذن مني أنا) .. وودعناه وانصرف .. وتركني بين براثن موظفي المكتب الذي لا هو

مكتبي ولا حاجة .. الذي أنا فيه دمية لا أعرف فيه أولاً من آخر .. وكأنني أطرش في زفة . واستأذن الآخرون . وتركوني وحدي في هذا الفراغ المهيأ بكل وسائل الترف .

نويت أن أقضي وقتي هذا المساء والليلة في كتابة مذكراتي ، والراحة والتفكير في هذه الأحوال الغريبة .. شكري ومفتاح وعزة - وتريزا وماريا والفارز وماريانو .... وأصحاب الملايين في (دن بيي) والأحوال غير العادية التي أقحمت علي وأقحمت فيها .

الفصل الخامس

كفاح امرأة

مغامرة نسائية مثيرة

قاتل الله الوحدة والغربة :

شعرت بوحدة غريبة لسفر « شكري » . ومن يتكلم الانجليزية في إسبانيا قليلون ولم أكن أترك وحدي لحظة . حتى أتعرف على « مدريد » ، وتعذر علي إيجاد خريطة ، أو دليل منشوراً بالانجليزية « لمدريد » وأظن ذلك كان مقصوداً لأنه لا يعقل أن بلداً سياحية كاسبانيا لا تنشر مثل هذا الدليل . ونويت أن أدبر الأمر معتمداً على نفسي بعيداً عن معونة « تريزا » أو غيرها من أتباعي الذين هم في الحقيقة حراسي .

المرأة .. والاغراء :

وبينما أنا في ملكوت الخيال . أكتب وأفكر .. وأدبر .. رن جرس التليفون فاذا « بعزة » في الناحية الأخرى منه .. تكلمني وترجو مني أن أستقبلها في جناحي في الفندق فواعدتها بمقابلتي في صالة الفندق الساعة الثامنة مساء – وطبيعي أن تنتابني الشكوك والأفكار .. « شكري » تركنا وسافر .. ولقد قصد دون شك أن يدع « عزة » في فندق غير فندقنا .. وكذلك لاحظت أنه لم يتح لي الفرصة للإنفراد « بعزة » طوال الفترة التي عشناها معاً .. علماً أنني لست فتى غراً دون خبرة ... كما أنني جاوزت سن الفتنة والإغراء .. ولست أبلهاً حتى يتطرق الى ذهني .. ما يتطرق الى ذهن الأغرار .. و (رحم الله امرأً عرف قدر نفسه) .. « وعزة » ليست غرة بريئة ، بل هي مجربة ماكرة عارفة .. قناصة رجال ماهرة .. تواردت هذه الأفكار علي بسرعة .. وعقدت العزم على أن أخوض التجربة بقصد استطلاع ما وراء عزة من قصص ، ربما توضح لي مركزي الغريب في هذه الشبكة .

*

طلع البدرعلي :

انتظرت في ردهة « ايروبلدنج » .. وما أن دقت الساعة الثامنة حتى بدت .. « عزة » في حياتي الطويلة .. وفي شبابي .. ورجولتي المجربة .. رأيت الكثير ومارست الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً ، فلست أخدع بسهولة .. بدت لي « عزة » في أكمل زينة .. أتت

لتقتل بعينيها . وبجمالها ، وبأنوثتها ، وتسلحت بكل وسائل الاغراء والاثارة ، التي تعرفها حواء شرقنا وحواء الغرب الأوربي .. دخلت تهادى .. وعودها الطري يتمايل كغصن البان ، سارت مختالة كالطاووس يطأ أديم السحاب . .. وبدت لي كأنها حورية أرسلت لتبعث الفتنة فيما حولها ، وتُنشر السحر على جانبيها .. ودنت .. فاقتحمتني عيناها الفاتنتان . وغمرني أريجها العطر ... وأرجوانية شفتيها . . ووردية أذنيها . وعنبرية شعرها .. وانسجام ملبسها .. وشموخية هامتها ..

نظرت اليها مندهشاً .. مشدوهاً ، لأني لم أظن أن لها هذا السحر والجمال . وكدت أنسى الدنيا ومن فيها ، وأنسى مركزي وتملكتني الفتنة ، ودب في عروقي نشاط الشباب ولولا حكم العمر والتجربة ، وضبط النفس الذي تعودته منذ الصغر وتذكري (رجل دعته امرأة ذات مال وجمال ... الخ) لتسيبت وحدث ما لا يحمد عقباه . .

في صالة الفندق :

استقبلتها بترحاب .. وطلبت من الساقي ما يناسب المجالسة في صالة الفندق ، وأنا مسحور بجمالها لا أدري كيف أتصرف . وبعد قليل قالت لي .. ليه ما انتظرتنيش فوق ؟ أنت خايف مني .. ؟ .. قلت لا .. مين اللي يخاف منك .. ده انتي مجلبة للسرور ده أنا كنت عايز أخرج وأتفسح معاكي في « مدريد » .. قالت نروح فين ؟ « .. قلت » أنا معرفش « مدريد » « قالت ولا أنا » .. وتذكرت محاولتها في « ماربيا » للافضاء لي بأسرار « شكري » .

أسلحة الاغراء والفتنة :

أخذت تنظر الي من بين أهدابها وهي ترفرفهما .. وتطلق من خلالهما سهام لحاظها وحاولت جاهداً أن لا تلتقي عيناي بعينيها ، غير أنها قيدتهما بمغناطيسية شخصيتها ..

قاومت جهدي حتى لا يتطرق الحديث نحو « شكري » أو نحوها .. أتى الساقي وأخذنا نرتشف العصير الذي طلبناه .. فأحسست بذكائها إنني أرغب في تجنب هذه المواضيع .. فبادرتني بالسؤال عن فرقة « رضا » وعن « فريدة » .. ولاحظت أنها تتجنب ذكر زوجتي من قريب أو بعيد ..

وكان صوتها .. غير صوتها العادي الذي أعرفه ، بل غيرته .. إلى ما يشبه التغريد ..

ولعل هذا كان في خيالي .. وذكرني مظهرها وسحرها وتغريدها بأغنية المرحومه « أسمهان » ..

* أسقنيها بابي أنت وأمي ، أسقنيها لا لتجلو الهم عني أنت همي

الى أن تقول :

* غني واسكب غناك ولماك في فمي فديت فاك

الحزن الدفين :

وحانت مني التفاتة الى وجهها الجميل .. ولمحت في عينها حزناً دفيناً ، حاولت جهدها إخفاءه .. فذاب قلبي بإحساس وتمنيت أن أرفه عنها لأزيح ذلك الحزن .. ولعلها شعرت بإحساسي فترقرقت في عينيها دموع .. حاولت إخفاءها بالنظر جانباً .

دعوة الى خلوة مع حورية :

صمتنا لحظة .. ثم قلت لها « إيه الحكاية ؟ .. قوليلي .. أنا مش فاهم حاجه ! ! » فضحكت ضحكة فاضحة وقالت .. « هو أنا مولودة امبارح يا حسن .. وأنت فاهم كل حاجة .. وقامت وقالت لي « يا للا على فوق نتكلم بحرية » .. وعجبت لمناداتها باسمي المجرد ، والحقيقة أنه بدأ في نفسي صراع عنيف .. فيما بين أن أطيعها أو أرفض طلبها .. ولرغبتي الشديدة في معرفة حقيقة ما تريد .. ولأني واثق أن وراء هذا الاغراء ما وراءه .. وكان حبي للاستطلاع قوياً .. ولا أنكر (ولعنة الله على الشيطان) أن .. كانت هناك عوامل خبيثة أخرى حاولت جاهداً تجاهلها ، وكنت في مركز لا يحسد عليه انسان .. عراك بين المروءة والشهامة .. وبين الشيطان ..

معركة بين ملاك وشيطان :

وكنت أعلم بطبيعة الحال أنها ستفضي لي بأشياء وأسرار تضر « شكري » الذي لهذه اللحظة لم أر منه الا كل خير واحترام ، كيف أخونه ولو بالاستماع المجرد « لعزة » .. وكنت بين نارين . نار معرفة موقفي الحقيقي من « شكري » ومطاوعة إغراء « عزة » الواضح القصد ، وهي فتاته وخطيبته حسبما عرفت منهما .. وكأن عراك بين شيطان الخيانة ، وملاك الولاء والوفاء ... واغراء الأنوثه العارمة ... والخيانة جرم عظيم ...

ومرتعها وخيم ... وكلما تذكرت مصير الخائنين اقشعر بدني .. . وأتذكر « أبا رغال » « ويهودا الاسخريوطي » وما آلا اليه بعد خيانتهما ...

أبو رغال

وكما يعرف القارئ أن (أبا رغال) الخائن العربي الأول في عام الفيل ، عندما قاد جيش «أبرهة الأشرم» الحبشي وأدله على الكعبة كي يهدمها بفيلته ... الا أن الله قد خيب فأل (أبي رغال) وأرسل على (أبرهه) وجنده وفيلته طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول وانقذ بيت الله .. ومني « أبو رغال » بالفشل والخيبة والخذلان . ولم تحمله أرض ولم يكلمه أحد ، وصوبت نحوه اللعنات التي لاحقته حتى يومنا هذا ، وستبقى لعنات العرب والمسلمين تلاحقه الى يوم الدين ...

يهوذا الاسخريوطي

هو أحد حواري السيد المسيح الاثني عشر .. فقد غرر به لقاء ٣٠ قطعة من الفضة ليوشي بمكمن المسيح ، كي يلقى القبض عليه ، ليصلب .. وفعلاً خان أستاذه ، وصديقه وصاحبه ونبيه لقاء هذه الدريهمات .. وكان مصيره ، رغم أن المسيح قد عفا عنه وأوصى به خيراً بعد أن يصلب .

قاطع المسيحيون جميعاً « يهوذا » هذا ، فعاش منبوذاً محتقراً يؤنبه ضميره فأعاد الثلاثين درهماً الى قتلة المسيح ، ولكن لم تحمله أرض ككل خائن مثله ومثل « أبي رغال » حتى وصل الى عدن في جنوب الجزيرة العربية ... وفي ساعة تأنيب ضمير وقلق وضيق نفسي ، لم يطقه ، صلب نفسه على شجرة تسمى « شجرة المرجان » .

ونويت أن أقاوم (عزة) ما استطعت ، ولا أرتكب أي خيانة لتلميذي وصديقي ومضيفي ...

أول القصيدة كفر :

اتجهنا نحو المصعد : وكلي خوف أن يعلم انسان أن لي بفتاة « شكري » (أي علاقة) ، وتصورت ما كنت أشاهده في روايات العصابات .. كيف أن فتيات زعمائهم يكن تحت رقابة من عيون بالمرصاد .. وتصورت «شكري» زعيماً من هؤلاء ..

وما أن احتوانا المصعد .. حتى سألت « عزة » إيه لو «شكري » عرف أنك جيتي هنا ؟ .. فضحكت وقالت « خليه يعرف .. لما أشوف يقدر يعمل إيه ... ما يغركش شكله ده ، ما يفلحش الا في المؤامرات والنصب . ده بيخاف من خياله ... فقلت في نفسي .. يا نهار زي بعضه أول القصيدة كفر » ...

الخلوة الحلوة :

ما أن دخلنا جناحي الفاخر .. حتى تولت القيادة واقتحمت المخمر « البار » ، وبدأت تعد مائدة خطيرة .. بينما أنا جالس أشاهد حركاتها الفاتنة الرشيقة المتعمدة . جلست بجواري وأمامنا أطابيب المشهيات والمسترشفات ... وبعد برهة صمت قلت (أحكيلي يا ستي مشكلتك) وهكذا بدأت « عزة » تحكي لي قصة حياتها .. بعد أن أطلقت من مصادر الموسيقى العديدة .. التي بالغرفة موسيقى حالمة .. وخفضت النور وخلقت جواً ساحراً ... ولم أرغب أن أتدخل .. حكت لي قصة حياتها بتفصيل وصراحة نادرة ، بصوت مؤثر رخيم .. بنبرات متغيرات حسب المواقف الدرامية في قصتها ... وكان يتخلل هذا القصص انحدار دمع على خدها الأسيل .

ديك الجن :

لم أتمالك وهي تقص عليَّ قصتها إلا أن ألاحظها وأعيش في أعماقها .. ويلتهب في فؤادي أجيج الرغبة فيها ، فأخذت أرنو اليها .. وهي لا شك واعية بما يحدث لي فتذكرت ما قاله ديك الجن الشاعر العربي :

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت السهاد
كي أستريح وتنطفي نار تأجيج في الفؤاد

وجال بخاطري .. قصة « ديك الجن » عندما غادر بغداد متوجهاً الى بلاد الشام .. وكان « ديك الجن » قد ذاع صيته وانتشر شعره .. وتغنى به المغنون ...

دخل غوطة غناء ، فاذا بصبايا كحور العين يتراقصن ويتغنين من شعره .. فلما أبصرنه .. استقبحن تخفيه وتلصصه عليهن .. فقال لهن .. «إنني بريء مما تظنون بي فلقد سمعت شعراً نظمته على ألسنتكن ... وهذا ما دفعني للمجيء والتقريب الى صوتكن .. فلم يصدقنه .. وقالت إحداهن إنني سأختبرك .. إن كنت حقاً الشاعر « ديك الجن » أم

أنك كاذب ... وقالت إن ديك الجن قال هـذا البيت ، فابن بيتاً عليه بعد أن .. تسمعه .. وقالت ..

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت السهاد
كي أستريح .. وتنطفي نار تأجج في الفؤاد

فأجاب ديك الجن قائلاً :

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت الهجوع
كي أستريح وتنطفي نار تأجج في الضلوع

القصة المثيرة

يتيمة حائرة مظلومة :

كان والد « عزة » من كبار موظفي الدولة .. حاصل على رتبة البكوية ميسور الحال ذا حول وطول ... ماتت والدتها وهي في السابعة من عمرها فرعاها والدها وكان لها أباً وأماً .. وكان لها ثلاثة أخوة وأختان .. وتوفي والدها وهي في الخامسة عشرة ، وكانت ذات جمال أخاذ .. عاشت في كنف أختها الكبرى وزوجها ، وكان لتربية والدها أثر كبير .. لأنه أحبها حباً جماً ، وكثيراً ما كان يقول لها إن الله عوضه فيها زوجته المتوفاة .. ولم يتساهل في تربيتها بل رباها أحسن تربية . تربية استقلالية ، أكدت فيها شخصيتها وحرية فكرها . فعانت من هذا غاية المعاناة من أشقائها ، وخاصة أختها الكبرى التي كانت تأويها .. مرت السنون ونضجت أنوثتها وزادت فتنتها وجمالها ، ولكنها لم تشعر بذلك .. غير أنها ذات ليلة في أثناء غياب أختها دخل عليها زوج أختها وحاول اغتصابها ... فدافعت عن نفسها دفاع المستميت ، ولم ينل منها هذا الوحش غرضه .. غير أنه ناصبها العداء .. ولم تجسر أن تفضح هذا السر الخطير .. ولكن أختها شعرت بأن هناك ما هناك .. بما عند المرأة عادة من حاسة سادسة . فناصبتها هي الأخرى العداء ، وصار البيت الذي تعيش فيه جحيماً .

انتقام دنيء :

واتهمها زوج أختها في عفتها ، وضيق هو وزوجته عليها الخناق ، وعندما فاض بها الحال .. أسرت الأمر لعمتها .. التي عطفت عليها .. ولكن العمة لم تتمالك وأخبرت غيرها ، وانفضح الأمر .. فأشاعت أختها بأن «عزة» هي التي راودت زوجها .. وتلى ذلك أحداث ومشاكل واجهتها هذه اليتيمة بشجاعة منقطعة النظير وعاشت في معركة دائمة بينها وبين أشقائها .

أخلاق الأنذال :

وانتهى الأمر بأن تقرر أن يزوجوها ، وعثروا لها على خطيب ، وامتدت الخطوبة

مدة كرهت فيها عزة هذا الخطيب كراهية شديدة لبخله ، وجهله وضعف شخصيته ..

وقابلت شاباً مثقفاً من عائلة طيبة .. وسيماً .. مثال للشباب المصري المهذب .. فعرف بذلك أهلها .. فحاصروها محاصرة قاسية غير انسانية . وقصة حبها هذه (قصة كلاسيكية يجب أن تسطر بماء الذهب على آماق البصر ، ولكن ليس هنا مجال هذه القصة) ومن حسن حظها أنها بلغت سن الرشد .. واستلمت شئون نفسها الاقتصادية ، وأرادت أن تتخلص من خطيبها السمج الذي أقحم عليها .. وكان مفتوناً بجمالها ، مجنوناً بها .. وبطبيعة الحال رفض فصم الخطوبة .. وسلك كل الطرق والوسائل الدنيئة للاحتفاظ بها ، فطلب كل ما أنفقه في أثناء الخطوبة ، حتى ما أنفقه مقابل تذاكر الترام . وغيرها من تفاهات لا يمكن تصورها .

ولما كانت سيدة نفسها فضلت أن تدفع له ضعف ما يطلب ، وهنا انحدرت به السفالة أن يدعي أنه اختلى بها .. وفض عذريتها ، وأشاع ذلك بين العائلة .. مما أدى الى أن يكشف عليها طبيب لأثبات كذبه .. وثبتت دناءته ..

قيس وليلى عصريان :

استمرت قصة حبها مع حبيبها فترة بعد ذلك .. ثم قررا أن يتزوجا .. ولكن أختها وزوجها ، وأشقاءها ، وقفوا ضد هذا الزواج موقف المعارض العنيف ... وتكررت قصة قيس وليلى .. كيف يتزوجها بعد حب ؟ فهربت . وتزوجت ، فقاطعها أشقاؤها (شوفوا الجهل والعنت والقسوة يا ناس ..) .

بسمة في غيبة من الدهر :

عاشت مع زوجها الذي كان بوزارة الخارجية ، وشغل منصباً في السفارات في الخارج .. وصحبته ومارست الحياة الدبلوماسية وتعلمت منها الكثير .. واتقنت الفرنسية والإنجليزية ، وكثيراً من ثقافات البلاد الأجنبية .. ولم تضع وقتها .. بل داومت على الدراسة . وأنجبت بنتين .. ثم دعي زوجها الى القاهرة . تمهيداً لنقله الى سفارة أخرى ولكن القدر لم يمهله ، وتوفي إثر إصابته « بالتيفوئيد » وترملت وهي في سن الخامسة والعشرين .

مجابهة الحياة :

لم يرحمها أشقاؤها ولم يمدوا لها يد المساعدة .. وعطف عليها شقيقها الأصغر ،

وانتقل ليعيش معها .. وبحثت عن عمل ، وعثرت على وظيفة مناسبة في أحد المصارف الكبيرة ، وهكذا بدأت حياة عمل وكفاح من نوع آخر .. بعد حياة السفارات .

نظرة جديدة الى الرجال :

داوم على زيارتها قريب لها .. وأخذ يبث لها غرامه .. وأغراها بكل الوسائل ووعدها بالزواج .. ثم غرر بها ونالها .. وعاشرها معاشرة الأزواج معتذراً بعذر أو آخر عن عقد القران فوراً ، ذات يوم ضيقت عليه الخناق ، وأصرت على معرفة نيته الحقيقية نحوها ، وتأكدت أنه لا ينوي عقد هذا القران . فثارت وطردته شر طرده .. ومما قالته له «مش عايزة أشوفك أبداً لا في عزا ولا في هنا» .. وخرج من حياتها .. وعاشت حرة طليقة وفقدت إيمانها بالرجال . وبدأت تتمتع بشبابها دون قيد أو شرط . برغبتها المطلقة لا يغريها مال أو مركز وأخذت تعامل الرجال كما يعامل الرجل النساء . . ورفضت حتى في كلامها أن تعترف بحق الرجل على امرأة .

وكانت هي التي تختار . ولا ينال منها الا من تشعر نحوه بميل معتبرة نفسها القطب الموجب ، فجن الرجال عليها .. ولم تحد قيد شعرة عن هذا .. ولم تنزلق أبداً إلى قبول مقابل أو هدايا من الرجال وكلما مر الوقت عليها زادت أنوثتها حتى قربت من « أفروديت » آلهة الغرام والأنوثة في الأساطير الاغريقيه .

حب كله عطاء :

كان من معارف زوجها رجل ناضج ، كان يعتبره زوجها أخاً أكبر .. وكان وزوجته من أصدقائها .. الحميمين .. ولم يخطر على بال هذا الرجل أن هناك بينه وبينها إلا الأخوة الصادقة وعمى عن جمالها .. ولم يتطرق الى ذهنه أي فكر غير طاهر .

ولما توفي زوجها .. طلبت زوجة الرجل منه أن يمتنع عن زيارتها منعاً للقيل والقال . وهكذا انقطعت العلاقة بين العائلتين مدة طويلة ... ولعلها شعرت بخطر استمرار العلاقة بين العائلتين أو شعرت بحاستها السادسة ما يمكن أن تؤول إليه هذه العلاقة .. والأرملة في جمال فتان ومعبودة للرجال .

القبلة القاضية :

ذات يوم رن جرس التليفون في بيت هذا الرجل وسمع صوت « عزة » فرد عليها . وبدأته بعتاب ولوم لعدم زيارتها . فلم يشأ أن يخبر زوجته .. وزارها بعد ظهر أحد

الأيـام .. وما أن قابلته حتى ارتمت بين ذراعيـه باكيـة بـكاء مراً .. فقبلها ليهدئ من روعها وكانت القبلة القاضية .. اذ هب في جسده حب ما كان يدري به .. وجلسا يتحدثان .. وأظهرت له حباً طالما كبتته .. وكان رجلاً فاضلاً عفيفاً .. ولكنه لم يردها . مرت الأيام .. وداوم هذا الرجل على زيارتها .. وتطوع لقضاء حاجاتها وساعدها على مشاكل حياتها وتربية بنتيها .

وذات مساء ، رغبت في أن تخرج معه وتقضي السهرة في ملهى من الملاهي .. فخرجا معاً في سيارته ، وقضى الأمسيه يراقصها في ضوء الملهى الخافت وموسيقاه الحالمه وتأجج في صدريهما لهيب كاد يودي بعقليهما .. لأنها كانت تحبه ، واكتشف أنه كان يهواها ، وفي أثناء رجوعهما في السيارة عندما توقف على جانب طريق خال .. تبادلا القبل ولكن هذا الرجل الفاضل تذكر فجأة ابنته المريضه وزوجته الكريمة .. وأن حالته المالية لا تسمح له بزواج زوجة ثانية وان نشأت بينه وبين «عزة» علاقة سوف يقضي على مستقبلها .. ويعجز عن اسعادها ، وهي فتاة في مقتبل العمر وهو رجل ناهز الأربعين .. وفي أثناء لجة الغرام في السيارة ابتعد فجأة ، وقال لها (يا عزة) أنا منفعكيش .. أنا أهواك وأحبك حباً جماً . والحب عندي عطاء .. ومعنديش حاجة أقدر أديهالك وحبي الصادق يمنعني من تدمير حياتك .. أنت شابة جميلة يتمناها كل راجل أنتي لازم تتجوزي راجل يربي بناتك ويؤمن مستقبلك .. فجمد وجهها وعلته حمرة واضحة وصمتت صمت القبور .. وانطلق بالسيارة الى منزلها . وودعها وانصرف وكانت الساعة الثانيه بعد منتصف الليل . لم ينم هذا الرجل لحظة تلك الليلة .. وفي الصباح ، تذكر أن أحد أقرانه لم يكن قد تزوج بعد ، وكان قد فاتحه في أن يجد له زوجة .. فبادر بالاتصال به .. واتفق على أن يقدم (عزة) له ليتزوجها .. واتصل « بعزة » ووافقت على أن ترى هذا الخطيب ، وخصوصاً بعد أن أفهمها أنه رجل فاضل مليء .. بالاختصار تم زواجهما وانقطع الرجل عن زيارة صديقه وزوجته « عزة » فلاحقاه وعتبا عليه ولم يتبلا اعتذاره . فعاود زيارتهما .. وقاسى الرجل الأمرين وزاد هواه بها .. كما أنها زادت به هياماً ، ولكن لأخلاقه ولصداقته ولشرفه كتم حبه في نفسه ولم يبده لحظة .. والحق يقال كان ذلك حال « عزة » ... وسافر الرجل سفرة طويله ليبتعد عن هذا الكفاح النفسي المرير .. ورجع ليجد « عزة » قد طلقت . لأنها لم تتمكن من حب زوجها بأمانه ، وهي المرأة التي لا تستطيع خداع نفسها وطلبت الطلاق بصراحة ونالته لنبل زوجها وانسانيته .. وأصبحت هي وطليقها صديقين دون حقد أو غضب .

سبق السيف العذل :

لم يطق الرجل . صبراً على هيامه وغرامه .. وتأثر عمله ونظام حياته .. وفي أحدى زياراته (لعزة) أخذ لأول مرة يبثها غرامه وحبه ، وأنه لا يطيق العيش دونها فبكت ، وقالت له سبق السيف العدل (الواقع أن هذا المثال يحكى بشكل (سبق السيف العذل) حيث أن أحد الأعراب قد قتل أعرابياً ظناً منه أنه غريمه ، ولما عاد الى أهله أخبر بأن .. الشخص الذي يظن أنه غريمه بريء مما ينسب إليه فقال (سبق السيف العذل) أي أنه قتله قبل أن يعرف ذلك .. وصار مثالاً للتسرع والتهور) .. أنا في هيام بك وأنت أعز مخلوق عندي . ولكن لن تكون بيني وبينك علاقة رجل بامرأة .. « ليه يا ستي أنا ؟ .. ليه بس ، أنا في عرضك » .. ولكنها لم ترد وصمتت صمت القبور .

مضت شهور ، يداوم فيها على زيارتها وقضاء أمسيات في منزلها ، ولم يتطرق الحديث مطلقاً لما حدث .. وذات يوم أصر على معرفة سبب عنتها هذا ، فقالت له « بقى أنا اللي بيشتهيني كل الرجال تكون أسمتي معاك ؟ .. أعرض عليك نفسي وأحطها في حضنك تقوم تروح تجوزني لصاحبك .. ده أنت أهنت أنوثتي وكبريائي ده أنت قتلتني .. يا راجل هو أنت ايه .. حجر .. » وانخرطت باكيه . بدأ الرجل يوضح لها أن حبه كان دون إثرة .. وكان يفضل أن يحرم منها عن أن ينالها منه أذى . وخصوصاً في مستقبلها .. فقالت وهي تجفف دموعها « مين قالك إني كنت عايزة حاجه منك ، أنا باشتغل ومكيفة نفسي وأنا يا راجل كنت مستعدة أن أشحت عليك لو كنت لا سمح الله تعجز وتبقى عضم في أفه » ..

وقص لها قصة «سيدني كارتون» بطل قصة مدينتين « لتشارلس دكنز » وهي من الأدب .. الإنجليزي الخالد ، وكيف أن حب « سيدني كارتون » كان تضحية لنفسه الى أن وضع رأسه في المقصله بدلاً من زوج المرأة التي كان يهواها ويعبدها ، وقال لعزة إنه رغم هيامه بها وولهه كان يريد أن يتمثل بـ « سيدني كارتون » فقالت : (أنت عارف أنا بموت فيك ليه ؟ أهو علشان — الكلام الفارغ ده .. بس كنت بفتكر أن حبك لي أقوى من كده بكتير ، ده أنا مقدرتش أعيش مع جوزي علشان خاطرك .. ولكني صممت على أن ما أوهبش نفسي لك ، لو حطيت لي القمر في ايد والشمس في الإيد التانية .. بس أعمل معروف خلي حبك لي صاحي زي ما حي لك حايكون طول العمر ..) .. وكان الرجل يعرف قوة شخصيتها .. ويعلم أنها لن تغير فكرها .. وفقد الأمل فيها ..

اليأس في الحب قاتل :

فاتت الأيام وكلما زارها الرجل .. زادت نيران هواه .. فقرر أن ينقطع عنها عله ينساها .. وغرق في أعمال مضنيه لتشغله عن التفكير فيها .. وأهمل صحته .. حتى فقدها .. ووافاه قدره ومات . ولبست عليه « عزة » الحداد سنوات .. ولم يفارقها خياله .

انغلاق القلب :

مرت الأعوام وقابل (شكري) « عزة » وعرض عليها أن تترك عملها وتعمل سكرتيرة له .. فطاوعته وسافرت معه .. وغمرها بالمال والهدايا .. وعاشت في بذخ ورفاهيه لم تعهدهما .. ولكنها دأبت على العمل الحقيقي وتملكت ناصية أعماله .. وأصبح لا يمكنه الاستغناء عنها .. ووقع في هواها .. ولما كان قلب « عزة » وفؤادها قد أغلقا عن الحب والعاطفة .. وخصوصاً بعد وفاة شقيقها الذي كان يعيش معها أصبح كل أملها في الحياة تربية ابنتيها وتأمين مستقبلهما . وقد تركتهما بمصر في رعاية عمتها تعيشان في رفاهية بما ترسله لهما من مال .. فكان همها أن تحتفظ بمركزها عند « شكري » .. وهكذا كان أن نالها وهو في نظرها دميم ذميم .. بعد أن وعدها بالزواج وطلاق زوجته الألمانية .. وكانت على يقين أنه يغرر بها .. كما غرر بها في شبابها المبكر قريبها .. فأخذت تؤمن نفسها بكل الوسائل الخبيثة .. ومنها الاحتفاظ بوثائق وأوراق تدينه ، كما تصنعت الهيام به ، وهذا سلاح المرأة الطبيعي .

ولكن ذكاء « شكري » وخبرته ولؤمه جعله يأخذ حذره ، ولكن بعد فوات الوقت وأخذ وعده بالزواج منها يتأرجح .. ولكنها لم تفقد الأمل .. وأعدت العدة لابتزاز الزواج منه .. وشعر « شكري » بمقصدها .. وأخذ يعمل أقاصي جهده لمراضاتها بالمال والهدايا وغير ذلك من مغريات ، ولم يجسر قط على ابداء تشككه فيها . وأخذ يفكر في الخلاص منها .

وهكذا كانا يعيشان كالقط والفار .. تزداد « عزة » تغلغلاً في أسراره ، وأخذت تهدده بطرف خفي بما عندها من أوراق . وكان لا يجسر أن يغضبها .. .. ويود أن ينتهي الأمر بان يتزوجها غير أن زوجته الألمانية ابنة صاحب المصرف « البنك » الذي كان أصلاً في نعمته .. وهي الأخرى في مركز خطير بالنسبة له ، وهكذا وقع « شكري » فريسة لسوء تدبيره ورغم ذكائه وقدرته على إدارة الأعمال والتجارة وغيرها

لم ينفعه هذا فتيلاً في مواجهة هاتين المرأتين ، المصرية المجربة حجرية القلب .. والألمانية الرهيبه كلتيهما يمكنهما أن تدمراه تدميراً .. أو على الأقل يزعجاه في أعماله جداً .. ويدخلاه في ميدان خطر عليه جداً .. وربما انتهت حياته العملية ... ويتعرض للمؤاخذه والعقاب لما عساه أن يكون جناه في ميدان الأعمال القذر .

عزة .. وأنا :

كانت عزة تحكي قصتها .. وتتلمس في الوقت نفسه كفي .. وترنو إلي بعيون دامعة ولما انتهت ، رجوتها أن تذكر لي أسم الرجل الذي أحبته هذا الحب الجارف ، لأنني كنت قد سمعت من صديق عزيز لي توفاه الله قصة تشبه هذه القصة وبعد الحاح ذكرت اسمه وترحمت عليه .. ومن غرائب الصدف كان هو الصديق العزيز نفسه .. فتأكدت من صحة قصتها .. صمتنا لحظة نفكر ، وبعدها قالت لي « أنت تعرف ليه أنا جيتلك ؟ .. أنت تشبه له كتير » وبدأت حملتها الانثوية العارمة علي ..

معاهدة غير مكتوبة :

وفي نهاية السهرة ، قالت لي « أنا متكله على الله وعليك تعاونني واعرف أن « شكري له غرض خبيث بالنسبة لك .. مانيش عارفاه لغاية دلوقت .. لكني حتني وراه لغاية معرف وأقولك .. أنا مقدرش أستنى طول العمر أكافح .. أنا عايزه أستريح بقى وأنا أأدر أطول اللي أنا عايزاه « وشكري » مش حيقدر يضحك علي » ..

أزعجني هذا الكلام جداً .. ولكنني لم أكتشف فيما مضى من تصرفات أو أعمال « شكري » ما يدعوني للتأكد من خبث أو شر .. ومقدار ما يتعرض له « شكري » من خطر . ولم يهن علي مطلقاً أن أترك « شكري » وأنسى جميله .. وما يظهره لي من حب وتقدير وأنسى أنه كان من طلبتي الذين لم أنسهم فقلت (لعزة) .. شوفي بقى .. أنا حا أعمل جهدي لمساعدتك .. ولكن اسمعي يا « عزة » أنا مقدرش أدخل في مؤامرات ولا في أسرار « شكري » وكتر خيرك أنا من اليوم حاخذ بالي .. وأساعدك .. فقبلتني بشوق — عظيم .. وأحسست أنها تود أن تقضي الليلة في جناحي .. فارتعبت .. لا عن عفة .. بل عن خوف من أن يصل الخبر « لشكري » وأبديت لها مخاوفي .. فقالت « معلهش ليلتك سعيدة .. وأحلام لذيذه » والأيام بيننا يا حبيبي . أنا مسافره بكره « ليبيا » وتركتني فريسة لهواجس ومخاوف لا حد لها .. « يا ترى فيه إيه .. كل أعمال شكري واضحة أمامي .. ولا يبدو لي منها شيء غير قانوني .. بس ليه شكري داير ينفخ

فيا كده ؟ أنا عارف أني معروف لكثير من المهندسين المصريين اللي مالّين أوربا .. ولا يمكن أن يصيبني مكروه لأني ولله الحمد أحترم القانون جداً جداً ، ولن أحيد عن الخط المستقيم ولم أوقع بامضائي على شيء البتة » ..

ولم أستطع النوم .. فاستعنت بقرص منوم واستسلمت لنعاس مخدر .. لا أحلام فيه .

الفصل السادس

بندورا

أو

مفتاح صندوق البلايا

مفتـاح الأذى

مهزرة تودى في داهية :

ذات مساء ، بينما كنت جالساً وحيداً ، أفكر ، كيف وصل الحال بي الى هذه الوحدة القاتلة في هذا القفص الذهبي ، وكيف أنني في الواقع محاصر لا يمكنني الخروج وحدي أهيم على وجهي دون هدى .. وليس عندي وقت لأي دراسة لما حولي من أمكنه أو ناس .. وكل من أعرفهم انصرفوا الى مآويهم المعتادة ، وبينما أنا غارق في هذا الفكر استأذنت علي فتاة ذات قد مياس ، جميلة المحيا ، مليئة بالنشاط . ودون أن تتكلم .. أو تشير ، اندفعت نحوي تعانقني ، وتكلمني بالاسبانية ، فدفعتها عني بلطف وأنا مرتعب ، لأنني ظننت بها الظنون ، وخشيت أن تكون هناك مكيدة مدبرة للابتزاز ..

ولكنها انفجرت ضاحكة .. وفي لحظة دخل علينا مفتاح .. وشاركها في الضحك وأنا في دهشة .. وفهمت أن هذه الفتاة اسمها (برو) . بكسر الباء وضم الراء ، وأنها صديقة « مفتاح » وكانا قد اتفقا على هذه المهزرة .. فبادرت الفتاة بقولي .. « اذا كان لك أم فهي أصلح لي » فقالت « إن أمها في غاية الجمال ، ولكن أباها غيور جداً » .. وضحكت وقالت .. « لو رأتك أمي لوقعت في حبك .. » وهكذا تبادلنا النكات والتندر .. ثم دعاني « مفتاح » للسهر في مطعم مكسيكي مشهور .. فأجبت الدعوة .

دم المسيح :

توجهنا الى المطعم المكسيكي ، وجلسنا في غرفة واسعة مكتظة بالناس .. مختلفي الهيئات والجنسيات .. وهلت علينا شابة جميلة رشيقة في زي جميل متناسق ، لتأخذ تعليماتنا عما سنطلبه .. وكعادتي التي تلازمني في هذه المواقف ، حيث أتندر بغزل خفي رقيق عفيف يسر الأناث (والغواني يغرهن الثناء) بدأت بإطراء جمالها فكادت الفتاة تطير فرحاً .. وبدأت تتهادى وتبدي رشاقتها . ولولا نظرة حادجة وجهها لها مقدم الفتيات (المشرف عليهن) لأبدت لنا مفاتناً أخرى .. وهكذا أحضرت ما طلبناه ، ومعه نبيذ أسمته (دم المسيح) .. فحوقلت وتعوذت لهذه التسمية وقلت لمفتاح إن هذا الأمر لا يتوافق مع الذوق أو الإيمان ورفضته باباء وأخذنا نتناول باقي طيبات ما رزق الله

هذا المطعم من طعام وشراب .. .. طبيعي كان هذا للتندر والفكاهة – (وحقيقة الأمر .. ومصدر التسمية .. أن السيد المسيح كان معه في العشاء الرباني الأخير المعروف عند أخواننا المسيحيين . اثني عشر تلميذاً أو حوارياً .. فكانت المائدة تضم ثلاثة عشر شخصاً .. فيهم السيد المسيح .. وهذا هو سبب تشاؤم غالبية الناس من رقم (١٣) .. وكان السيد المسيح يعرف أن هذا الاجتماع بحواريه هو آخر لقاء له معهم .. وأن أحدهم هو يهوذا الأسخريوطي سيوشي به في الغد ليصلبوه .. لهذا قطع رغيفاً من الخبز ووزعه على حواريه قائلاً .. « هذا جسدي فكلوه » ثم صب النبيذ وقدمه اليهم قائلاً « هذا دمي فاشربوه» ومن هنا جاءت التسمية لبعض أنواع النبيذ المعتق الفاخر .. ويسمى «دم المسيح » دلالة على عتقه إشارة إلى أنه من القدم بحيث شرب منه السيد المسيح وحواريوه قبل أكثر من ألف وتسعمائة سنة) .

فتاة المطعم (الجرسونة) أو الندلة :

كانت هذه الفتاة (الجرسونة) فتاة المطعم حلوة شهية تشبه الى حد كبير « جين أليسون » بكسر اللام وضم السين .. وهي نجمة سينمائية أميريكية مشهورة بخفة الدم والجمال .. وكلما أعدت عليها كلمات المديح والاعجاب .. تأرجحت .. وتمهمزت .. وتشخلعت .. وترقصت وغير ذلك مما على وزن « تفعللت » .. ثم لازمت هذه الفتاة مائدتنا وتوالت على خدمتها برقة ورشاقة .

حورية هاربة من رضوان :

وبينما نتبادل أطاييب الحديث ونحن نتناول الطعام .. لمحت في ركن مقابل لمائدتنا سيدة تشع جمالاً ساحراً . في عينيها بريق سماوي .. سمراء . تجلس كأنها ملكة على عرش ... نظراتها سهام غرام قاتلة ... تطلقها على الناس فتراهم صرعى ... غير واعين .. فأصبحوا « قهر » « عزل » « عجز » (على وزن فعل بضم الفاء وفتح العين مع تشديد) .

ومن سوء حظي دون وعي مني ، لفت نظر « مفتاح الأذى » اهتمامي بهذه الحورية التي لا بد وكانت قد هربت في غفلة من « رضوان » لتزور الدنيا .. عينة لترغب الناس في الجنة (يقال إن الملاك المكلف بحراسة الجنة ، اسمه رضوان ... فيقول الناس رضوان حارس الجنات ويقال إن الملاك المكلف بحراسة جهنم اسمه « مالك » ... فيقول الناس « مالك » سادن النار) ... ولما علم هذا « المفتاح » الخبيث انني معجب بجمالها ، (والاعجاب بالجمال فضيلة إذا كان بريئاً ، كالاعجاب بالورود وجمال الطبيعة) ..

قفز قائماً ، واتجه نحو المائدة التي كانت هذه السيدة تجلس عليها مع زوجها وعائلتها .. وكانت ترتدي فستاناً أسود جميل القطع ، فتاناً ، وشالاً مزركشاً عليه نقوش فنية ، زادت في جمال هيئتها . صدرها شجاع متقدم ، ووسطها رقيق نحيل ، وعيونها عيون المها ، ولكن أجمل وأحور .. وتذكرت الأوصاف الفولكلورية القاهرية حيث تقول (عيونها عيون غزلان ، وأنفها نبقة من الشام ، وبقها خاتم سليمان ، وصدرها بلاط حمام ، وبطنها عجين خمران .. والى أخره حتى يصفوا السيقان بأقماع السكر) أين هذه الأوصاف من الغزل الرقيق الذي قاله الشاعر العربي .. في قصيدة .. « اليتيمة » التي لا يعرف قارضها .. ونورد هنا بعض ما جاء بها لرقته وجماله .. تحية لهذه السيدة الجميلة .. لعربية ملامحها ولشرقية حلاوتها ولسحر عيناها ..

غزل عربي رفيع

كما جاء في القصيدة اليتيمة

لهفي على دعدٍ وما خلقت — الا لطول تلهفي دعدُ
بيضاء قد لبس الأديم أديـ — ـمَ الجلد فهو لجلدها جلد
ويزين فوديها إذا حسرت — ضافي الغدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيض — والفرع مثل الليل مسود
ضدان حين تجمعا حسنا — والضد يظهر حسنه الضد
وجبينها صلت ، وحاجبها — شخت المخط أزج ممتد
وكأنها وسنى إذا نظرت — أو مدنف لمَّا يفق بعد
بفتور عين ما بها رمد — وبها تداوى الأعين الرمد
وتريك عرنيفاً به شمم — وتريك خداً لونه الورد
والجيد منها جيد جازئة — تعطو إذا ما طول الرد
وكأنها سقيت ترائبها — والنحر ماء الحسن إذ تبدو
وبصدرها حقان خلتهما — كافورتين علاهما ند

جرأة ما بعدها جرأة :

اتجه « مفتاح » هذا (مفتاح باب الشيطان) نحو زوج السيدة .. وهو رجل أشيب قصير القامة . له شارب يشبه شاربي .. ولكنه يتمتع ببطن مستدير منبعج فحمدت الله وشكرت فضله .. لأنه إذا كان هناك مجال للمقارنة بيني وبينه . لكان نصيبي قصب السبق .. أنحنى مفتاح أمام هذا الدن (بضم الدال مع تشديد) أي السيد ، وأستأذن منه أن يخاطب زوجته .. تقدم نحو السيدة ، وانحنى انحناءة .. (دن كيزوتيه لامنكاوية) نسبة الى (دن كيزوت دي لامنكا) ، وقال مشيراً نحوي « هذا الدن ذو الشارب الجميل يضع شجاعته وسيفه تحت قدميك » .. وكان قد قدم نفسه لزوج السيدة على أنه رجل أعمال ليبي .. والعجب العجاب .. أن تقبل الجالسون هذا وتضاحكوا . وبدت على

وجه السيدة علامات السرور والفرح .. وقدمت يدها بدلال عظيم « لمفتاح » فلم يفهم وترك يدها تسقط من يده ..

فأسرعت نحوهم ، والتقط يدها ولثمتها .. فانبعثت من يدها زوبعة عطر كادت تخدر « مفتـاحاً » ثم وجهت حديثي للسيد زوج السيدة واعتذرت له عما بدر من « مفتاح » فإنه شاب مرح لم يقصد سوى التلطف ، وقد أعجبتنا جداً عائلتكم الكريمة فأجاب السيد ضاحكاً لا بأس ، ودعانا لمجالستهم ، ولكني اعتذرت خوفاً مما قد يرتكبه « مفتاح » من حماقات وقلت للسيدة « جمالك يا سيدتي جمال إسبانيا .. وهو لا يقاوم فعذراً إن لم نتمالك أنفسنا حياله » .. وصافحت السيدة ولثمت يدها وانصرفت .

بندورا ومفتاح شر انفتاح :

عدت ومفتاح حيث « برو » تنتظرنا ... تتابعني نظرات شافعات ، غارقات ، مستحيات ، داعيات ، ظالمات ... ناعسات ... مسترحمات ... فتاكات ... مستفيضات ... متفاخرات ... متأملات ...

فحوقلت وتعوذت ... وطلبت الرحمة والرضا من صاحب الرحمة والرضا .. عندما شعرت بنظرات أخرى ذكرية ... قاسية .. ظالمة ، متفجرة ... متوعدة .. لها سن ورمح وقنا .. وسهام .. وقوس ووتر .. ودعوت الله أن يخسف الأرض بهذا « المفتاح » الذي فتح عليّ باباً مغلقاً .. فكأنه (بندورا) التي فتحت صندوق الشرور والبلايا على الدنيا .. واسطورة بندورة .. أسطورة إغريقية ، تحكي أن شرور الدنيا وبلاياها كانت معبأة ومحبوسة في صندوق محكم .. وكانت بندورا فتاة جميلة ، حذرت من فتح هذا الصندوق .. ولكن حب الاستطلاع .. ورغبتها معرفة ما يحتويه هذا الصندوق غلبتها ففتحته لتعرف ما فيه .. فخرجت الشرور والبلايا وانتشرت في الدنيا .

ولا أظن الا أن « مفتاحاً » هذا « بندوري » النزعة .. مفتاح للشر والبلايا دون احتراز .. ولا أظن أنه سيئ بل هو صبياني النزعة ... مهزار .. دنياه نساء وإناث في إناث في إناث .. يتعشق الجنس ويعيش لأجله ولا أظن أنه عليه قادر .. وهو كالطبل الأجوف ، عالي الصوت فارغ الدماغ .. والكلاب النباحة غير عضاضة لكنها فضاحة .

الغزل فن بريء :

لعل القارئ يعجب من ادماني الغزل .. والغزل فن رفيع ، وخاصة إذا كان اعجاباً بالجمال ، بريئاً عن الغرائز الدنيا ، وأجمل ما في الأرض .. الانسان .. فالرجل جميل التكوين ، جماله قوته ، فهو دوح شامخ وبناء عظيم ، والمرأة جمالها في رقتها — فهي زهور يانعه لها عبير ..

وما الغزل الا تمتع بجمال ما خلق الله .. روائع التصوير والنحت غزل واعجاب . وخالدات القصائد غزل .. ومن يتعامى عن جمال ما خلق الله ، في رأيي ، كافر بنعمة الله جلّ شأنه .. ونظافة الخيال وطهره وبراءته تظهر في الغزل .. والغزل يكون في المرأة وفي الزهرة وفي القمر وفي النغم . والغزل طبيعة .. من يمارسه يتطهر .. فهو من العبادة ..

ولن أقلع عنه مادمت حياً ، وسأغازل ملاك الموت عندما يجيئني بعد عمر طويل بإذن الله ولم تنج من مغازلتي فتاة المطعم .. « الجرسونة » أو « الندلة » ولما ناديتها لأدفع الحساب .. أخذت تبدي اعجابها بي وبألفاظي وغزلي الرقيق التي لم تسمع مثله أبداً من أحد من قبلي .. وكان « مفتاح » يترجم لها ألفاظي .. ولا أدري طبعاً ما قاله لها بالإسبانية ، غير أن « برو » كادت تستلقي على ظهرها من الضحك ، وطبعاً لا أدري كيف عبر « مفتاح » عن الألفاظ العربية التي استعملتها .. ولم أقصد طبعاً أن تصل لها معانيها ... « آل إيه .. عيونك حلوة كده ليه ... شفايفك بينقطو عسل نحل .. هو أبوكي زرع فدان قصب على أمك أنتي باينه بتكلي لوز وتشربي ماورد .. أنتي يا بت رحتي « الأوليمب » وشربتي « نيكتار » مع « أفروديتي » ... أوعي يكون « زيوس » عمل عمايله معاكي » وهكذا تسحر الأوربيات بهذا الكلام الغريب بالنسبة لهن .

أيقظت الحورية العواطف والخيال :

تهيأت الحورية ومن معها لمغادرة المكان ، وكانت فرصتي لأنظر اليها ولأتأملها عن قرب ، دون خجل لأنها كانت تنظر نحونا ... عيونها زرقاء رمادية ، واسعة رطبة ، يترقرق منها ماء الحياة ، يمسحه جفن ناعم ساتر ، له من الأهداب ما يعطل انطلاق سهام الفتك قليلاً ، إذا تنفست انفرجت قليلاً منافذ العطر فكأنها نسمة الورد .. عرنين الأنف به شمم ، على شفاه ياقوت رقاق ، تنفرج عن رتل أراك من لؤلؤ .. لا يكاد تتفارق حتى ينفذ البشر من بينها ، كأنه غيث يحيي الزهر والورد . فاذا ابتسمت تألقت واستحت .. واستقطرت الزهو ورحيق الدلال ... قامت فاهتز نهداها .. فاطرقت خجلاً .. يا ليت شعري لمَ الخجل .. فالنهد والجفن والهدب والشفاه والعين والأذن والشعر .. والمنكب .. والردف .. معاميد لها شهدوا بالجمال العفيف الطاهر .

أصل غرامي الطارئ :

أطرقت .. أفكر وأردد في ذاكرتي ما رأيت ، وما تمتعت به مع رفيقة عمري الحبيبة المكافحة الجميلة العاقلة « أم فريدة » خديجة زوجتي .. وشعرت أن هذه الحورية

ذكرتني بزوجتي عندما قابلتها لأول مرة (.. زمان .. زمان .. أوي) وكان هذا سر فتنتي بهذه الغادة . ولعل ما كنت أفكر فيه بان على وجهي .. وما كان يتدفق في خيالي غيبني عما حولي .. فاذا « برو » تربت على كتفي وتقبل جبيني بحب كأنها ابنتي ، وقالت بابا « أنا بحبك جداً جداً أنت أب رقيق خالص » .. فاحمر وجهي خجلاً .. لأني لم أكن أريد أن يشعر أي أنسان عما أنا فيه .. وتضاحكت وبدأت أتندر معها بخصوص أمها .. وهل يصح في إسبانيا أن أتزوجها إذا تركت أباها ... ، ... أو هل يمكن أن أختطفها على صهوة جواد أبيض .

أميريكا في مدريد

المقعد المزيف (بضم الميم)

خرجنا من هذا المطعم لنقضي بقية السهرة في مكان آخر اقترح مفتاح مكاناً اسمه « سان فرنسسكو » (وقبل أن ندخل هذا المحل حذرت مفتاحاً أن لا يعاود سيرته القديمة أو أعماله الخبيثه ، بحيث يخجلنا أمام الناس ، وخاصة علية القوم منهم كما فعل .. وحلف مفتاح لي الايمان أنه سوف لا يعاود مثل هذه السيرة أو الفعلة في المستقبل ..)

سان فرانسسكو هذا مقصف مخمري على النمط الأميريكي . وهو مأوى للأميريكانيين .. فيه حيز بونتان وأربعة أجلاف طوال القامة عريضو المناكب وبين هؤلاء رجال ونساء قصار القامة ، شاحبو الوجه زائغو العيون .. وهؤلاء إسبانيون ..

جلست (برو) على مقعد طويل وجلست بجوارها .. بينما مفتاح يتسلل بين الحاضرين .. طلبنا « جن تونيك » وهو شراب لطيف نصف منكر .. (يعني مش حرام أوي) ويحيط بنا واغش انساني به صلف وكبرياء أميريكي النزعة .. يتجاهل الموجودين .. وكان بينهم أميريكيون سود وملونون ..

ما كدت أستقر وأرشف « الجن تونك » حتى اختطف قدمي صبي يجلس على قدميه كما يجلس مدمنو الصلاة .. اذ يكاد الساقان تختفيان بين مغرق الردفين ، فلا ترى له قدماً ولا ساقاً ، فيبدو للناظرين كأنه مقعد مبتور الساقين .. بدأ الصبي ينظف الحذاء بمهارة ودون هوادة .

الإمبريالية الأميريكية الأمازونية :

وبينما نتحادث ونرتشف هذا الشراب الذي هو نصف منكر ... توافد على المكان عديد من « الهبيين » أو « الأهبه » أو « الهبابيه » يتخاصرون وهم خليط من أنثيات أميريكيات .. وذكور إسبانيين .. ولم أدر مَن من الفريقين سيفتك بالآخر فتكاً ذريعاً .. وتذكرت إناث فرس النبي (المانتس) وإناث العناكب ، وإناث العقارب اللاتي يلتهمن الذكور عندما تنتهي مهمتهم معهن .. فترحمت على الفتية الإسبان . (الأمازون نسوة من هذا النوع) .

محاضرة في ممارسة الجنس :

زاد رواد هذا المقصف المخمري الأميركي .. أي « الحانة » وأخذت تعج وتمج بالوافدين . بيض حرمهم المولى من نعمة السمرة ، وغير بيض تتلألأ وجوههم بسمرة الصحة والفتوة .. وبينما نحن في غمار هذه الضجة إذا بصوت شيء سقط على الأرض .. وكان اطاراً كبيراً للوحة عليها رسوم وكتابات واضحة جداً بالإنجليزية ، كان معلقاً فاحتك به مفتاح الفرج بفتح الراء (ياأبيح) .. فسقط (واتلم عليه خلق كثير) يقرؤون ما فيه من حكم . وتطوعت أميركية « هيبية » أو « هيباء » أو « هيبانة » بقراءتها بصوت مرتفع . وكان ما تحتويه هذه اللوحة عبارة عن وصف العلاقات الجنسية ومقوماتها ، ووصفات لتقويتها بألفاظ غير علمية ، بل بأسماء سوقية شوارعية .. تحمر لها أوجه من جانبهم الحياء .. فما بالك فيمن في نفوسهم بقية من حياء .. واتضح أخيراً من اللوحة ، أن هذه المخمرة معهد للدعوة والارشاد والعلاج لهذه الأمور .. المستقبحة والعجيب أن الصمت كان تاماً عند قراءة هذه اللوحة ، والقارئة كانت ذات صوت داعر خليع مثير . وبعد أن انتهت هذه الرقيعة « الهيبانة » تكاكأ حولها خلق كثير يستفسرون ويستوضحون ويقصون القصص .. فأخذت « برو » وأردت أن أنصرف وحاول « مفتاح » الأذى استبقاءنا فرفضت ، وكذلك « برو » وانصرفنا كل الى مأواه .. وغالب ظني أن « برو » رافقت « مفتاحاً » وقضت باقي الليلة عنده في شقته الفاخرة في مدريد والله أعلم .

الفصل السابع

التجوال في أدغال الأعمال

القفص الذهبي

إسبانيا :

قضيت الأيام التالية في زيارات للمصانع والشركات التي يتعامل المكتب معها ، وكالمعتاد ، قدمني « ماريانو » بما يليق بمركزي المزعوم .. والواقع أنني دهشت جداً لما وجدته في هذه المصانع والشركات من تقدم تكنولوجي ونظام لا يقل عما في ألمانيا .. بل ربما يفوقه ، وكذلك دأبت على زيارة المعارض الصناعية ، وتعرفت على مدى تقدم الصناعات الإسبانية ، التي كانت منذ سنوات قليلة لا تزيد عما كان بمصر في شيء ، وتعجبت كيف سبقتنا هذه البلاد وتخلفنا ..

السكة قياسة أي « الذهاب والإياب المستمر » :

وكان شكري يتصل بي تليفونياً كل صباح مرة من طرابلس وأخرى من « آخن » ، ومرة من « برلين » وغيرها من « باريس » متتبعاً أخبارنا . وكثيراً ما كان يقول .. من فضلك يا ريس عايز أشوفك في باريس مثلاً .. اليوم .. ولا أدري إلا و «تريزا» و «ماريا» و «الفارز» قد حضروا يعدونني للسفر ، وأرى نفسي دون أي اجراء من ناحيتي قابعاً في كرسي من الدرجة الأولى في طائرة الى باريس ، حيث أستقبل هناك وأوخذ فوراً الى اجتماع كالذي وصفته سابقاً ، وأدعى للعشاء والمبيت في فندق فاخر ، وأرجع الى مدريد في الصباح ، وهكذا كانت هذه السفريات تتكرر كل يوم وآخر . وقد تمرست على رياسة هذه الجلسات وصارت « عنجهيتي » وكبريائي الرئاسية طبيعة .. ولكني كرهت السفر والطيران .. وخاصة وأني كنت دائماً أشعر بأن هناك أشياء .. لا أعرفها ولم أرغب في الاستفسار عنها ، حتى لا تبدو مني بادرة غباء أو جهل .. ولله الحمد نجحت في تبوء مركزي المزعوم بجدارة .. غير أنني كنت مرهق الأعصاب .

انفتاح باب القفص الذهبي :

كنت دائم التفكير في الغرض الحقيقي الذي يدعوني الى سفرياتي العديدة هذه .. التي في رأيي أنه يمكن أن يستغنى عنها ، وكنت أقضي الوقت في المكتب أقابل عديداً من

الناس بالطريقة نفسها .. « ماريا » .. « ماريانو » .. « البطاقات » .. وكدت أشعر فعلاً أنني أداة لا ارادة حقيقية لي .. فأبديت رغبتي ألا أستعمل سيارتي الفاخرة ، وأكتفي بصحبة « تريزا » كباقي خلق ربنا حتى أتعرف على مدريد ، وقد كان ... رغم معارضة « ماريا » و « ماريانو » .

قضيت خمسة أيام ، عشت فيها طليقاً مع « تريزا » في « مدريد » ، فزرت المتاحف والجامعة وكثيراً من الأمكنة التي يزورها السياح .. وأحببت « مدريد » جداً .. وتمتعت بركوب الأتوبوس والتسوق البسيط .. وعشت وكأنني بمصر ، لولا هذا الجناح الملعون في الفندق « ايروبلدنج » .. القفص الذهبي الذي أبيت فيه كأني (كناري) .

فتيات الترفيه .. بائعات الهوى :

ذات صباح وأنا بالمكتب .. أرشف « جين تونك » ، استأذن « ماريانو » ليجالسني . وأخذنا نتحدث في أمور شتى ، ولم أتمالك أن أخوض في مجالات التندر والهزر .. وأخذت أشكو له وحدتي ورغبتي في رجوعي الى مصر .. فانفجر ضاحكاً وقال لي .. (أنا عارف أنت متضايق ليه .. ؟ أنت بقالك أكثر من شهر ولا عرفتش صاحبة واحدة ..) فأجبته (يا سجان أنت و « ماريا » و « الفارز » والبت المفعوصه « تريزا » هـو أنـتم بتسبوني لحظة ؟) وقال (أبداً أحنا كنا عايزين نبسطك) ... قلت له (يا راجل أنت فاكرني مولود امبارح .. أنا بس ما حبيتش أعمل دوشة وخصوصاً أن كل طلباتي كانت مجابه) .. قال لي (كل طلباتك ... ..) فضحكت بدوري فقال لي (إن كنت عايز بنات أجيبلك أجمل بنات إسبانيا بس أأمُر) وبالاستفسار والمساءلة والمحاورة علمت أن من مهمات المكتب أن يستحضر فتيات جميلات يرفهن عن بعض الزبائن المهمين .. الى أي حد يرغبون فيه .. فتصنعت الدهشة ، وسألته ، (كم تتكلف السهرة مع فتاة من هذا النوع) . فعلمت أنها تتراوح فيما بين خمسمائة وألف جنيه حسب نوع السهرة والعشاء والهدايا ونوع الفتاة أو السيدة ... !!!

الحب والجنس والغرام لا تشترى بمال اذا كانت حقيقية :

حوقلت وتعوذت .. وتقززت حقيقة .. لأن طول حياتي منذ شبابي المبكر لم تكلفني صحبة أنثى مبلغاً يدفع لها .. لأني كنت أعتبر أن دفع أي مبلغ مقابل الحب إهانة لي لمصاحبتي لأنثى مهدرة الانسانية .

وتعجبت جداً لوجود رجال يشترون الحب .. ومن يشتري الحب ويبيعه لا بد أن يكون أو تكون فاقدة الإنسانية كاذبة خادعة .. والحب مهما كان نوعه عطاء متبادل لا أثمان تدفع والعياذ بالله ..

الرشوة والجنس

المتعة الجنسية مزلقة للعملية :

وطبيعي أن أستفسر عن مدى ممارسة هذا العمل بالنسبة للمكتب .. فعلمت أن هذا أمر روتيني وله متعهدون ، وهو نوع من أنواع الأعمال المعترف بها في أواسط أعمال المكاتب أمثال مكتبنا .. وتدخل في ذلك السهرات وحفلات الفنادق والرحلات البحرية .. كذلك مبالغ العمولة . وكلها مزلقات للعمليات المالية والتجارية وكذلك المصاريف السرية المختلفة ... والهدايا .. والمغريات الأخرى على اختلاف أنواعها ، في هذه اللحظة فقط عرفت أنني دخلت في مستنقع أخلاقي نتن . وعقدت العزم على الخروج منه ، والاحتراس ما أمكن .. حتى لا أتلوث بمثل هذه الأعمال البذيئة الدنيئة . ولكني عزمت أن أنصرف بحيث لا أسيء الى « شكري » وقد عاملني الى اليوم معاملة كريمة ، طيبة ، ولم يورطني في شيء من هذه الأشياء .

دنيا الكفتريات

كان بالمكتب جهاز الكتروني « جروندج » يملي عليه ويسجل الاملاء مع آليات للتعديل ، والمسح والاعادة .. وكان معطلاً فأرسلته مع « تريزا » للاصلاح . ورجعت به بعد اصلاحه . وأمضيت الوقت أجربه وأملي عليه بعض الأعمال المكتبية

انصرفت من المكتب الساعة التاسعة .. ولما كنت مجهداً ، لم أطق دخول الفندق والانفراد في جناحي . عزمت على الخروج وحدي أبحث عن صاحب أو مرافق أتكلم معه .. تسلحت (بجن تونك) وخرجت لأول مرة أطوف فيما حول الفندق فاذا « ببارات » وكفتريات الواحدة تلو الأخرى .. وكأن بين كل كافيتريا وكافيتريا ... كافيتريا .

كفتريا المعلقات الحيوانية :

دخلت كفتيريا كبيرة جذبني اليها غرابة ما تحتويه ، ومعلقات كثيرة مدلاة (مدلدله) من السقوف ، كافخاذ حيوانات مملحة ، خنازيرية أو بقرية .. أو خروفية . وأظن أن بعضها بغلياً أو حصانياً ..

والجدران مزينه بعناقيد الثوم بكرة تلفت النظر .. وفي وسط المكان جدار مستدير حول ما يشبه البئر وعليه (بكرة) وحبل ودلو .. وكراسي وأرائك غريبة المنظر قصد مصممها أن يكسب المكان بها مظهراً غير مألوف .

صم بكم فهم لا يفقهون :

كان المكان مكتظاً بالناس .. حاولت دون جدوى أن أتفاهم مع خدمة البار أو المسقى .. فلا مجيب .. وعجبت كيف أن خدمة المسقى أغبياء لا يعرفون القصد من دخولي هذا المكان ، وطبعاً كان واضحاً أنني دخلت لأطلب طعاماً أو شراباً . ولكنهم ظنوني عابر سبيل ، ولما أخرجت نقوداً كثيرة من جيبي نشرتها على كفي المفتوح .. مشيراً إلى قنينة نبيذ . وصحن مليء بالشرائح (الساندوتشات) ... نظر إلي الساقي وهز كتفيه وانصرف ، وانقض على كفي رجل وأخذ عشرة بستات – ودفعها للساقي ،

واشترى بها نبيذاً وسندوتشات وانصرف ، وتبعه آخر ثم آخر .. دون أن .. ينبسو ببنت شفة .

ولما كنت في خشية من ان يزيد سوء التفاهم .. ولربما حدث ما لا تحمد عقباه .. استعوضت الله في خسارة المائة بستو التي كانت في يدي ، وأخذها هؤلاء الناس وأطعموا أنفسهم بها ، كما سكروا بالنبيذ على حسابي لعنة الله عليهم اللصوص .. النهابون .

البحث عن زوجة « لبكرة فضة » :

خرجت من هذا المكان .. غير آسف .. بل سعيد بهذه التجربه التي لا يمكن أن تحدث في أي مكان آخر أعرفه .. طفت .. وجلت في الشوارع والأزقه أتفرج على الدكاكين والمحلات المختلفة .. ولمحت محلاً لبيع الحيوانات الأليفة من كلاب وهرات .. وببغاوات .. وغيرها .. وكان للمكان رائحة غريبة مميزة ، به فتاة شقراء ناعسة الطرف ناهد . كاعب .. ورجل كهل يجوب أنحاء المكان متفحصاً هذه الحيوانات .. بينها كلب ضخم « سان برنار » وبجواره كلب صغير جداً .. « مكسيكي عاري » ويصر هذا الكلب اللعبة أن يداعب الكلب الضخم . ويحاول لعق مؤخرته « والسان برنار » يحاول التهرب منه وهو في منتهى الخجل ، كأنه بشر . والفتاة تتبادل النكات مع شاب « هبي » يحمل كلباً غريب الهيئة . لا أعرف نوعه ولما كنت أريد أن أشتري « كلبة » أنثى من نوع « بكرة فضة » عروسة له .. وهو كلب زوجتي مامي » بمصر وهو من نوع « الكانيش » القزم جداً .. يطلق على نوعه (كلب لعبة) .

ولما سألتها عن أنثى من هذا النوع .. أجابت أنه يمكنها أن تجدها فوراً ، والثمن ثلاثون ألف بستو أي ثلثماية جنيه . الواقع أن هذا النوع من الكلاب زيادة عن جمال فتان ووداعة ، يكاد مما فيه من ذكاء أن يكون من البشر .. حبوب متفان .. نظيف .. أعطانا من الحب والمتعة ما يعجز كثير من البشر أن يعطيه لغيره . وكدت أتفق على هذه العروسة الا أنني تصورت ما سوف الاقيه في الكورتينات (المحاجر الصحية) .

الامبراطورية الرومانية المعاصرة

السخرية والتأليس تغيظ المتاعيس :

قادتني قدماي الى مقصف مخمري أي « بار » مائدته طويلة ، مهيأة بمقاعد عالية . جلست على واحد منفرد أتأمل الساقي ، وكان شاباً لطيف الهيئة ببسمة تلو الأخرى .. وطلبت الشراب الذي هو نصف حرام « الجن تونك » وما كدت أرتشف من كوبه الأسطواني الطويل .. حتى جلس الى جواري جلف ضخم طويل عريض أميريكي الصفات .. وفاتحته الحديث فأجبني بابتسامة .. وأخبرني أنه أميريكي من « سان فرنسسكو » وبعد تبادل أطراف الحديث .. لا أدري ما الذي كان في هذا الرجل مما أثار في غيظاً .. وأظن ذلك كان لاسرافه في استعراض ما في أميريكا من أشياء حرمت منها بقية بلاد الأرض ، فانطلقت أعدد مناقب وفضائل الأميريكيين وكنت من غيظي أبالغ الوصف .. وأتكلم عن « يوتوبيا » أي عن « مدينة فاضلة متخيلة » لا تمت لأميريكا بصلة .. فقلت « أميريكا » .. يا أميريكا يا بلاد العدالة والأمان .. مأوى الأمم المتحدة ، مصدر العدل الدولي .. يا كثيرة الخير (اللي الأكل من كترته بيترمي في البحر) .. يا حامية العالم من وحوش الدنيا .. يا ذات .. المعونات .. يا مطعمة الجياع . يا مطلقة القنبلة الذرية ، يا من لها الفضل في بناء « هيروشيما » الجديدة «ونجازاكي» الحديثة .. فقال لي « من علمك هذه الحكمة ؟ » .

الكلام بالمقلوب يريح القلوب :

فأجبته بأني أستاذ اقتصاد سياسي بجامعة القاهرة ، ودراساتي واسعة ، وأني أطوف العالم لأكتسب خبرات واقعية من سفرياتي . وسوف أغادر أسبانيا بعد أيام للبرتغال .. فأصر على أن « يعزمني » أي يشتري لي مشروباً على حسابه « تحية لي » .. ثم استطردت في إعجابي بهذه الأميريكا .. وكيف أنها تحمي الضعفاء وأن ما يحدث في « فيتنام » دليل على ذلك ، ولولا أميريكا لالتهمتها جيرانها وأن .. « شيكاغو » و «دترويت » بها مجاميع من البشرية يسمونهم جيوش الخلاص ، يحملون الرشاشات والأسلحة النارية ، ليحموا المارة من السطو عليهم من الأجانب الأشرار .. فاذا مررت مثلاً في شارع من شوارع

المدن تشعر بالأمان .. ولو كنت تحمل خزنة فلوس ، لا يعترض في طريقك أجنبي شرير .. وكذلك تسير النساء والفتيات والصبايا الحسان في ظلام الليل وهم في أمان ولن يغتصبهن أحد البتة .. وتترك أبواب البيوت والشقق فلا يدخلها لص لانعدام وجودهم في أميريكا ، ولقد قيل لي مرة أن بعض الناس يخرجون من بيوتهم ، ويرجعون من السهرة فيجدوا بها هدايا غالية الثمن .. من جيوش الخلاص التي تسمى « سلفيشن آرمي » وهم فئة لها زي خاص يسيرون في الشوارع بموسيقى يوزعون على الناس أطاييب الأشياء وهكذا أخذت أصف لمن حولي هذه المآثر .. ولاحظت أن عيني هذا الأميريكي تجحظان.. وقال لي .. ما هذا الكلام .. أنت بتهزأني ؟ .. فقلت معاذ الله .. هذا ما قرأته في نشرات أميريكية من الدعاية ولم أظن قط أنها غير حقيقية .. وخصوصاً ما قرأته عن جهاد كوكلكس كلان جمعية الاحسان والعطف التي تحارب القتلة وتعطف على السود ..

عقبالك يا روما العصر الحديث

وأنا معجب بأميريكا جداً وأظنها تعيد عظمة الأمبراطورية الرومانية وعهد « يوليوس قيصر » .. واكتافيوس (أغسطس) أمبراطورية العدالة والميسرة .. .. ..والعاقبة إن شاء الله عند أميريكا في المسرات عندما يولد فيها « نيرو » أميريكي وترى نيويورك ما رأته روما في عهد « نيرون ».. وبجهله .. شد على يدي شاكراً وقال لي (لولا أنني « بايلوت » طيار لأقضيت الأمسيه أسمع حديثك الطلي) وانصرف ..

الذكاء الاسباني أصله غُرباني (بضم العين) :

وكان يسمعنا كهل اسباني على وجهه سيماء الذكاء والثقافة ، فتقدم الي مصافحاً وقال لي بانجليزية سليمة ما معناه « يسلم فمك » وقال لي « أنت تعرف تقول الحاجات بالمقلوب فتصنعت الهبل .. وقلت أنا بقول الحقيقة .. الكلام ده قريته في كتب أميريكاني .. هي الحاجات المطبوعة مش بتبقى حقيّ .. ؟ فحدجني هذا الإسباني بنظرة .. وقهقه ضاحكاً .. وانصرف .

اتجهت نحو الباب خارجاً ناسياً أنني لم أدفع الحساب ، فناداني الساقي وأشار لماكينة « الكيس » ، فاعتذرت وعرضت عليه نقوداً لينتقي منها ما يريد .. وكان في طرف المائدة (البار) امرأة أكل الدهر عليها وشرب .. وملامح البؤس تغطي بعض ما تبقى من آثار جمال خبا .. فأشرت الى الساقي « البارمان » بأن يعطيها كأساً على حسابي .. فقبلته

شاكرة .. ولما لم أكن أعرف مقدار الحساب لجهلي الاسبانية ، ولجهل الساقي بالانجليزية .. لاحظت أنه لطش أو أغتصب ٤٠٠ بستو أي أربعة جنيهات ثمن كوبين من « الجن تونك » ومشروب واحد للحيزبونة .. ولم آسف لذلك بل كان المبلغ يساوي (اللي فشيت غلي بيه في الأميريكاني) .

اللي تغلب به .. إلعب به

الى الهندسة أخيراً في « فيتوريا » :

استيقظت على رنين التليفون بجوار سريري .. وذلك بعد يومين . وكانت المكالمة من « طرابلس » يكلمني « شكري » ويرجوني أن أسافر مع « ماريانو » الى مدينة « فيتوريا » اليوم . لأقابل المهندسين الذين يقومون باعداد مصنع كبير لصناعة مواسير لخط لنقل البترول .. وهو مشروع ضخم ، ويرجوني أن أراجع معهم ما تم من أعمال وتخطيط .. وقال لي : (« عزة » بتسلم عليك وهي سعيدة معايا جداً) فتعجبت للجملة الأخيرة ؟.. (كانت لزمتها إيه ... ؟) .

أجول وأصول في مواسير البترول :

فرحت غاية الفرح ، لأن هذا سيكون أول عمل في اختصاصي ، وسوف أطيح في المهندسين ، وأعرف أربيهم ، وما كدت أن أنتهي من الاستعداد للخروج ، حتى حضر « ماريانو » و « تريزا » وأخذاني الى محطة السكة الحديد ، وقام القطار بنا وكانت هذه أول مرة أسافر بالقطار في اسبانيا .. وكانت الرحلة طويلة ، استغرقت أربع ساعات ولم نكد نصل حتى عقد الاجتماع فوراً ، لأنهم كانوا ينتظروني .. وتمتعت جداً في الخوض في العمل الفني الهندسي .. ولم تمضِ برهة حتى كان جميع المهندسين في رهبة وحيطة مني ، لما أظهرت لهم من معرفة ، ولما وجهته لهم من أسئلة فنية ، عن أمور كانت تغيب عنهم .. ولأول مرة في اسبانيا ، شعرت أنني أستحق ما أتكلفه ، لما حققته من نفع فني حقيقي ، في المشروع الكبير واقتصاد في الوقت .. وتوجيه فني سليم .. ولم أدر كيف ضبطت شعوري الجميل ، لأنني أخيراً وجدت نفسي وخرجت من ضباب المضاربات المالية وأدغالها لأسدد ديني « لشكري » .

مضيف دون علمي لأن الدعوات كانت باسمي :

وكان الاجتماع في صالة خاصه بالفندق الفاخر ..وكانت « تريزا » تهيئ لي ما يلزم في جناحي به .. وعندما صعدت بعد الاجتماع لأستريح أعلمني « ماريانو » أنه أعد

مأدبة دعى رجال الأعمال والمهندسين باسمي .. وطبيعي لم تنس « ماريا » أن تعد بطاقات لتعريفي مسبقاً بمن سأقابلهم ، وتولى « ماريانو » في أثناء السفر دراستها معي .. ولعل مناداتي لمن اجتمعوا بالاسم ومعرفتي بشئونهم أدهشهم جداً .. وكذلك عكفت على دراسة مواضيع الاجتماع .

الفتيات الجميلات مزلقات لمجريات الصناعات :

كانت الوليمة أمراً ذا بال .. ولم تقل في الترف عن التي أعدت لاستقبالي عند وصولي مدريد وكان حاضراً معنا عدد من الفتيات الجميلات جداً .. التي لا أدري كيف دبرهن «ماريانو» . وكان يخدم المائدة اثنا عشر شاباً وشابة . تحت امرة (متردي أوتيل) أي رائد فتية المائدة ، والكل في ملابس قرمزية . مثلا ثمة مع أجسادهم النحيلة . . . ويشبهون في ذلك « الميتادورات » أي مصارعي الثيران .. وكنا نختار الطعام من دفتر كبير .. وحاولت أن أتعرف على أصنافها .. فلم أستطع .. وأتى لمسعوني « فوجلة » وهو مهندس ألماني من برلين .. لطيف المعشر مداعب هذور .. وذكر أسماء أطعمة بانجليزية فهمتها .. فاخترت أصنافاً فيها كما أفعل في أي مطعم دخلته .. وبعد برهه حدث أمر غريب ، لأن الفتيان حضروا يدفعون أمامهم عربة طعام غريبة الشكل ، عليها مواقد كحولية (يعني بوابير سبرتو) وأوعيه وسكاكين وغيرها وأخذوا يطبخون (يعني يسخنوا العشا) .. فتصاعدت روائح (فتح النفس) مختلفة النوعية .. وبين لحظة وأخرى ، تصعد لهاليب زرقاء جميلة .. تهب وتخبو ، ويتخلل هذا همهمة كأنها تعاويذ ساحر . ثم يتقدم الفتيان بقناني وزجاجات جميلة . هذه بها نبيذ ، وتلك بها نوع من أنواع الكحوليات العتيقة الغالية ، ودارت مناقشة حول الفرق بين الكونياك والبراندي ، وبين أنواع الويسكي العديدة . وحكموني في هذه القضية .. (والله أعلم أنني بهذه الأمور جهول) . فكان لا بد لي أن أتخلص بلباقه فغيرت الحديث .. بدعاباتي المعتادة .. الى المشروبات المصرية ..

البوظة :

تكلمت عن العرق الصعيدي ، ومقطرات الأديرة القبطية المشهورة ، وخاصة التي تقطر من جمار النخيل .. وعرجت منها الى « البوظة » (والبوظة مشروب .. يخمر من الخبز وغيره) ويشربه السفرجية وسائقو العربات الكارو ، التي تجرها الحمير وهي لبنية اللون والشكل واللزوجة .. لها رائحة نفاذة خاصة .. ثم بينت للحاضرين بأن البوظة

« مْليثة بالفيتامينات .. وهي صحية جداً ، وغالباً ما يتدرع بها سائقو العربات (الكارو) ويشركون حميرهم فيها .. وأخذت أعدد منافعها ، وقلت لهم إنه لا بد أن تكون منحدرة الى المصريين من أجدادهم الفراعنة ثم بينت لهم أنها لا بد أن تكون من . « الأفروديزيات » أي مقويات الرجولة والصحة وإلا ما كان يقربها هؤلاء السائقون وكل واحد له أربع زوجات شابات .. فأنصت الجميع باهتمام ، وأخذوا يسألونني أسئلة عنها وعن أساليب صنعها .. (سرحت بهم تمام) .. وأخذ بعضهم يتكلم عن مشروعات تجارية لإنتاجها في المانيا ولربما أرسلوا خبراء لمصر لدراستها ، وحظي هذا الخبر باهتمام الفتيات أو بمعنى آخر النسوان » ...

وتوالت على المائدة أصناف الطعام .. ولكن معدتي المسكينة عندت .. ولم تشجعني وأخذت أخفف مما أدخله فيها . ورفضت تناول أي من المشروبات فداعبني الألماني « فوجله » بقوله (ليه ؟ انت عايز بوظة ؟ هوّا عندك حد الليلة ؟ ..) فضحك الجميع .. ودارت الكؤوس والمغازلة بين الرجال والفتيات حتى الساعة الواحدة حتى جحظت العيون واحمرت الأنوف وعلت الأصوات .. وساد المكان دنين وزنين ، وتاهت العقول .. وتلامست الأكف .. و .. و .. وخوفاً مما لا تحمد عقباه .. تعللت بالعلل الواهية منها والحقيقية ، واستأذنت بالانصراف راجياً منهم أن يستمروا ويتمتعوا بأنفسهم .. وليلة سعيدة .. وصعدت الى جناحي الفارغ الفاره ، الذي بلا أنيس أو جليس .. (الجنه اللي من غير ناس) واندسست في الفراش وما لبث أن غلبني النعاس – تاركاً الخبص على قدم وساق في خلوة أو في اجتماع .

اللهو لهو . والعمل عمل . والدراسة عقل :

استأنفنا الاجتماع في صباح اليوم التالي .. والمدهش العجيب أن سهر البارحة وإفراط هؤلاء في الشرب وغيره من المتعه .. لم تظهر على وجوههم أي علامات إجهاد .. بل بدأوا العمل بجد ونشاط وذكاء ودقة .. دارت مناقشات حامية بين المهندسين الألمان والمهندسين الأسبان .. ولم أرض أن أتدخل حتى تنتهي المناقشة وتفرغت لتفحص هؤلاء الناس فرداً فرداً .. لأتبين شخصياتهم من حديثهم وهيئتهم ومقارنة ما قد تبينته مما سجلته « ماريا » على بطاقة كل منهم .

كان يوماً متعباً جداً غير أنه كان عندي لذيذاً جداً ، وتلا ذلك يومان آخران كأنني فيهما رجعت الى الكلية ، غارقاً في الرسومات والخرائط متفحصاً مدققاً ، ولم تمضِ مدة

قصيرة حتى كان كل واحد منهم يستشيرني في أمر أو آخر .. مضى يومان على هذا النمط أجهدت فيه العقول .

وكان الجميع يقضون الأمسيات يجولون في مدينة « فيتوريا » ويسهرون في علب الليل وغيرها مما لم أرغب أن أعرفه .. وكنت آوي الى الفراش مبكراً ولا يترك خيالي أكوام الكتالوجات ، والنشرات والرسومات والأرقام والحسابات .. ولكنني كنت سعيداً جداً .

وليمة أخرى :

وفي آخر المساء ، دعينا الى مأدبة أعدتها الشركات لي .. وكانت تفوق الوصف . غير أن السيدات فيها كن كثرة يستعرضن جمالهن ومفاتنهن ، ويسحرن بالنظر وبالكلام والابتسام وبكثير مما خلق الله لهن من مناقب ومميزات ..

كان البادئ في الدعابة هذه المرة « فوجله » الألماني الذي سميته « فجله » بكسر الفاء وأفهمته أنها نبات مليء بالفيتامينات الهامة جداً (وهذا حقيقي) منها (حامض الفوليك) وهذه الفيتامينات ، أغنت المصريين عن المقويات وغيرها من عقاقير وقلت إنها تشبه « الكرات » بضم الكاف مع تشديد الواء بالفتح .. ولم أبين له طبعاً أن من يتناولونهما .. لا يلبثوا حتى يتجشأوا .. (وريحة بقهم يا حفيظ) النهاية .. أبدى ارتياحه لهذه التسمية والحديث ذو شجون ولكني وجهته نحو الفن والأدب والفلسفة وخضت فيها .. وجلت في بساتينها مع الحاضرين .

والحق يقال ، أدهشتني معرفة وثقافة هؤلاء المهندسين وتمنيت لو كنا بمصر نهتم بالمعرفة العامة والثقافة بجوار ما نحصله لمعارفنا المتخصصة .. وكانت السيدات والفتيات .. هن الأخر يجلن ويصلن معنا في هذه الميادين بمعرفة ومتعة حقيقية

صعدنا إلى حجرة الاجتماع لآخر مرة .. لتشطيب الأعمال ووضع آخر لمسات ودام هذا إلى منتصف الليل .. ورغبت أن أرجع إلى « مدريد » في نفس الليلة لأني مللت « فيتوريا » التي لم أتمكن من رؤية شيء فيها .. لسعادتي بالعمل الفني ورجوعي لمهنتي الحقيقية .. وأمرت « ماريانو » ليحضر سيارة لنسافر بها ليلاً ونصل مدريد في الصباح لأني لم أطق ليلة أخرى في الوحدة القاتلة ..

ودعني الجميع بحرارة حقيقية .. بالأحضان والقبل وكان نصيبي منها ما يزهق — الأنفاس .

الجنس المصطنع

رحلة ليلية فيها أسرار جنسية :

أحضر « ماريانو » سيارة فارهة جميلة .. ولكن لم يحضر لها سائقاً .. وكان سيسوقها بنفسه .. وأصر « ماريانو » أن أبقى في المقعد الخلفي .. مظهراً التأدب . وقال لي .. لعل سيادتك تستريح وتغفو إن أردت .. ولو أن الجو كان بارداً جداً ، الا أن السيارة كانت مكيفه ودافئة .. دلفت السيارة بنا في طريق ممهد سوي . مزين منمق منار .. تتوالى فيه المباني بترتيب وتناسق .. والأرض كأنها الرخام الأسود ، بشرائط على طوله ، كأنها من فضة مركب عليها فصوص كبيرة من الماس المتلألئ ..

الواقع أني رغم إيماني بمهارة « ماريانو » في قيادة السيارات الا أنني لم أطمئن ، لأن « ماريانو » هذا الرجل السمين الضخم ، لم ينم منذ ثماني وأربعين ساعة وأنا يغالبني النعاس فأغفو لحظة . ثم أفيق مفزعاً .. ولا ألبث حتى تأخذني سنة (بكسر السين) من النوم ثانية .. فأناجي السهاد وأدعوه فكم كان هذا السهاد يلازمني عندما كنت لا أريده .. فيا له من شرير أطلبه فيجفو وأطرده فيرنو ..

انتصف الطريق ، ووقفنا عند « موتيل » وهو استراحة مبنية في القفار وهو مبنى عظيم هائل . وهو خليط بين الفندق والقهوة والبار ، وكانت الساعة الثالثة بعد الليل ، دخلناه نبغي المنعشات .

بالبهو غلامان يساقيان المسافرين .. والبهو رحب واسع .. به عديد من الناس ، مع أن الليل بهيم .. وكأن الدنيا نهار ، وعجبت لذلك جداً .. ولعل الإسبان مغرمون بالسفر ليلاً .. أزواجا .. أزواجاً كما لاحظت ، .. لأمر لا أعرفه ..

حيلة لطرد النعاس :

وخوفاً من أن يغفو « ماريانو » في الطريق ، ويحدث لنا ما لا تحمد عقباه ، أخذت أداعبه و (الدعابة عندي مثل التدخين عند الذين ابتلاهم الله بعشق السجاير) وتجاهلت حتى ظن أني جاهل .. وسألته هل مسموح لفتاة وفتى في سيارة أن يتباوسا أي يقبل

أحدهما الآخر .. ؟ وهل يتداخل الشرطة كما في مصر . ويقبضون عليهما فقال هذا يعتمد على نوع القبلة . فاذا كانت حارة ساخنة ، فمأواهما السجن .. فقلت وكيف يعرف الشرطي مقدار برودة أو دفء أو سخونة القبلة ؟ ودارت مناقشة تافهة نصحت « ماريانو » بعدها بأن ينشئ شركة لصنع « مبواس » للشرطة لقياس القبلات . ثم سألته ماذا لو ارتكب رجل وامرأة الفاحشه في سيارة .. قال مآلهم السجن لا محالة ، فقلت له اذن ما معنى العدد العظيم من «الكوبلات» بمعنى أنهم مثنى مثنى ، الذين يفضلون السفر ليلاً بالسيارات في ظلام القفار .... وقد لاحظت أن معاملة الرجال .. لمرافقاتهم لا تدل على أنهم أزواج وزوجات ؟ .. فتصنع الدهشة .. وقال إنه يفضل الفنادق .. وأخذ يندد بالناس المغفلين الذين يقومون بمثل هذه الأعمال في السيارات ..

رأي القانون :

فسألته .. إن ضبط اثنان في سيارة .. هل في القانون الاسباني شيء بخصوص السيارة .. فقال إنه لا يعرف ولكنه يمكن أن تصادر السيارة .. أو تدمر أو تحرق لأنها كانت وسيلة للغواية .. فنهرته وقلت أتستغفلني يا رجل .. فانفجر ضاحكاً .. ثم قال لي ألا تعلم أن هناك أمراً خطيراً جداً ، وهو أن بعض المصانع المنتشرة في العالم تصنع نساء من الكاوتش أي المطاط .. يقتنيها البحارة وغيرهم ، ممن لا يجدون رفيقات وهاتيك النسوة الفالصو بها أجهزة إلكترونية بالصوت والحركة والدفء ، فيستغنون عن قرف وعذاب الأنثيات الآدميات .. فاستعذت بالله من هذا الأمر الوبيل .. وسألته ما رأي الدين .. فتجاهل سؤالي .. وسألته ما رأي القانون ؟ .. فقال إنه يعلم أن هذا الأمر موضع بحث ومناقشة قانونية عميقة . فسألته ماذا إذا وضع فندق في كل غرفة من غرفهِ واحدة من هذه الكاوتشيات ؟ .. هل يعتبر هذا الفندق ماخوراً ؟ ففكر برهة وقال هذه مسألة تستحق النظر . لأن هذا شيء يخلص الرجال من الأسبانيات فهن غيارات ، منتقمات مستحوذات .. مستبعدات .. قادرات .. غالبات .. رغم أنهن شهوانيات ، يرقصن ويغنين بما يفتتن الرجال ثم يهلكن الرجال ، ثم أخذ يدعو الله بان يرحم الاسبانيين منهن بهاتيك الكاوتشيات .

حرية اسبانية شرطية :

وأخذ يبين لي أن في اسبانيا هذه الأيام حرية عظيمة ، وكثيراً ما يتغافل رجال الشرطه عن مرتكبي الفحشاء ، وذلك لتشجيع السياحة .. وقال إن رجلاً قص له ما

حدث له مرة .. كان الرجل في سيارة مستغرقاً فيما لا يصح الاستغراق فيه ، في طريق خلوي .. مطفئاً أنوار السيارة كلها .. وبينما هو غارق فيما هو فيه انتبه على نقر قوي على شباك السيارة .. ففزع ورأى شرطياً .. وبادره الشرطي بالأمر بفتح أنوار السيارة .. فأضاء نور السيارة الداخلي وانكشف كل شيء .. فاشاح الشرطي بوجهه وقال له النور الخارجي يا غبي .. أنت خطر على المرور في الظلام وتركه وانصرف .

وهكذا مرت الرحلة في سلام دون أن يغفو « ماريانو » لحظة .. وكان ثمن هذا الأمان .. هذه البذاءات .. وفي رأيي أنها (تسوى والا كنا في خبر كان وجرالنا اللي يجري عالناس اللي بينامو وهما سايقين) .

أساليب غريبة في أمور مريبة

مفاجـــأة :

استيقظت على رنين التليفون الساعة العاشرة صباحاً ، وسمعت صوت « تريزا » تكلمني من المكتب .. وتخبرني أن عندنا موعداً بعد الظهر .. وترجوني لو أمكن أن أشرفهم لاطلاعي على ما يلزم وآمر بما يناسب وأستعد لجلسة ... اليوم مع رؤساء الشركات الذين حضروا خصيصاً لمقابلتي ..

عجبتُ جداً من أن « شكري » لم يخطرني بذلك .. وكان لا يصح مطلقاً أن أفاجأ هكذا .. .. توجهت الى المكتب في سيارتي الفارهة .. واستويت على كرسي مكتبي ... وكانت تحية الصباح . وجاءت « ماريا » بملف يحوي أوراق تخص بعض الأعمال الفنية ومع كل ورقة مذكرة مختصرة بالموضوع والرأي فيه .. معدة إعداداً فنيّاً رائعاً .. وقدمت لي قائمة بمن سأقابلهم هذا الصباح وقدمت لي مجموعة من البطاقات .. باسم كل واحد منهم ...

البطاقات والتسجيلات أسلحة في المقابلات ..

البطاقة عجيبة الشكل .. على كل واحدة صورة فوتوغرافية للشخص ، وملخص عن حياته العائلية .. ومختصر لتخصصه وعمله .. باللغة الإنجليزية وميعاد مقابلتي له .. ملحق بالبطاقة قصاصة عليها ملخص قصير جداً عن الموضوع .. وما يلزم عليّ أن أقوله للزائر .. من الناحية الفنية .. والإجابة مقتضبة جداً ..

ولما سألتها من أين أتت بصور الزوار .. ولو أن المعلومات الأخرى لا صعوبة في ايجادها .. رجتني أن أقوم معها لتريني كيف حصلت على الصور ..

أخذتني لمدخل المكتب ، وأرتني ، اللوحة الزيتيه التي في مقابل الباب .. فاذا وراءها « كاميرا » مصورة تلقائية ، تلتقط صورة الداخل بمجرد دخوله وقطع شعاع ضوئي خفي ، كذلك ميكروفون يسجل منه ما يدور من حديث في غرفة الانتظار .. وأرتني بعض صور أخذت لي وقالت لي ، إنه من المعتاد أن يحدد ميعاد المقابلة قبل أربع

وعشرين ساعة على الأقل .. وغير مسموح بمقابلتي دون ميعاد .. لإعداد البطاقة بعد بحث الموضوع بواسطة «ماريانو» .. وقالت إن أهمية العمل ، وخطورته ، تدعوان إلى هذا الاحتياط .. وإنه من الواجب عليّ أن أنطق باسم الزائر نطقاً صحيحاً ، وأقدر مواقفه ومركزه وأن أكون ملماً بشخصية الزائر قبل مقابلتي له .. وستتولى هي إرشادي ، وكان كلامها بصوت جاد .. لأن هذه المرأة لا تعرف الابتسام وصرامة وجهها .. « تعلم العفة » .

وبعد أن قدمت لي « تريزا » « الجن تونك » أخذت تعرض علي البريد الذي لم أفهم منه شيئاً .. ودخلت « ماريا » تلخص لي بعض الموضوعات والمشاريع التي بالمكتب . . . وحضر « ماريانو » بعد ذلك يجالسني واستسمحني في أن يشرب شيئاً من البار ثم بدأ يتبسط معي ، ويتندر ويتكلم عن نساء إسبانيا وجمالهن ، ولكني طلبت منه أن يريني « مدريد » لأزور معارضها ومتاحفها . وتواعدنا على ذلك ، وطلبت دليل « مدريد » بالإنجليزية .. فأخرجه من المكتبة ، التي تغطي الجدار كله .. وقال لي لماذا لم تطلبه مني أنا . حضرت « ماريا » بالبطاقات وقضت وقتاً غير قصير في توضيح محتوياتها وقالت عليك بالضغط على أي زر من الأزرار التي تحت المكتب بقدمك إن أردت شيئاً ما ، وأفهمتني الغرض من سبعة أزرار تحت المكتب مرقمة وأرقامها وما تدل عليه في لوحة صغيرة أمامي لا يراها إلا أنا .

استراتيجية تستخدم الجاسوسية :

وهكذا بدأت أتعرف على ما بالمكتب ، وعلى الأساليب المتبعة فيه ، وكان المكتب الذي أجلس أمامه .. موضوعاً وضعاً استراتيجياً ووراءه نافذة مضيئة ، فلا يرى الزائر ملامح وجهي بالتفصيل ، ولا يعرف من ملامحي ونظراتي ما يجول بخاطري .. فأبدو للناظر لي لغزاً غير مفهوم ، هذا غير الأجهزة المكتبية المتخلفه ، من جهاز للإمـلاء ، ومسجلات لما يجري من حديث في المكتب أو عن طريق التليفون ، هذا غير كاميرات تليفزيونية موضوعة في أمكنة مختلفة .. يكفي الضغط على زر مما تراه الكاميرا في أي مكان من المكتب فسألت لماذا هذا كله .. فقال لي « ماريانو » هذه أجهزة « ستاندرد » في كل مكاتب الأعمال الهامة التي لا يسمح فيها بالخطأ أو التهاون الذي عقوبته خسارة مبالغ طائلة .. « هي الأعمال الكبيرة كلها كدة » .

وبعد برهة بدأت المقابلات ، وأقول الحق إنني تمتعت جداً بما كان يبدو على وجوه

الزائرين من انفعالات .. وكأني أمامهم قاض على وشك النطق بالحكم عليهم . ولكنني تلطفت ما استطعت مع الكل .. وساعدتني البطاقة كثيراً .. وكان يبدو على وجوه الزائرين الدهشة ، وهم يعلمون أني حديث العهد بالعمل وكيف عرفت كل هذا ! !

الاستعداد لمعركة مكتبية :

أعدت لي « تريزا » غذاء بسيطاً حسب طلبي .. حتى لا أغادر المكتب . وقضيت بعد الظهر كله في حفظ ما في بطاقات الأشخاص الذين سألتقي بهم في المساء في (المركز القومي الإسباني للصناعة) .. هذا «والجن تونك» داير على ودنه .

ولما دقت الساعة السادسة الا ثلثا بالضبط .. بدأت تريزا في تجميل هيئتي بعناية وحرص .. ولو لم أكن في همّ مما عرفت من « عزة » ومن « ماريا » .. لكثرت دعاباتي .. ولكني شغلت بما يجب أن أقرره بالنسبة « لشكري » مما حدا « تريزا » الى أن تسألني .. « هل أنت بخير ؟ » .

وهكذا خرجت ترافقني « تريزا » و «الفارز» يحملان ملفات وأوراق كنت تصفحتها وعرفت منها الغرض من الاجتماع وكيف أتصرف فيه .. ولجنا باب البناية ، وكنت على باب غرفة الاستقبال الساعة السادسة بالضبط وخلعت عني « تريزا » المعطف ودخل « الفارز » يعلن حضوري ..

تهويش ومبالغة تدعو للمساءلة :

تقدمني « الفارز » وصاح معلناً اسمي ونعتني بصفات كادت تصعقني خبير عالمي .. حجة في الشرق الأوسط .. وغير ذلك .. « الله يخرب بيتك يا ابن الأمة (بفتح الميم) » ..

دخلت وتقدم الموجودون لتحيّي ومصافحتي وتعرفت عليهم بما عرفته من البطاقات التي درستها . ونطقت أسماءهم وألقابهم بصوت هادئ رصين نطقاً صحيحاً .. وجلسنا نتحادث .. وقدمت الينا المرطبات .. « الكوكتيلية » .. وبعد لحظة لم أتمالك من أن أكون نفسي ، وخضت بدعاباتي .... وانطلقت الألسنة والضحكات .. حتى كسر الثلج أي رفعت الكلفه في حدود .

قصة من إنجلترا تؤكد المهاترة :

وفوجئت « ببيكر » وهو رجل كهل حسن النبرة بسام قال لي .. « أنا أعرفك أنا قابلتك في لندن في « وندسور » عند مستر « مراد المصري » .. فتذكرت الليلة التي كنت

مدعواً فيها مع « فريدة » و« علي » وزوجتي عندما كنا في لندن .. والواقع أن رجال الأعمال الكبار .. يحبون أن يدعوا المشاهير في بيوتهم ، (علشان يتمنظروا) . ولكني كنت أجهل حينذاك هوية الداعي ومركزه الاجتماعي أو المالي .. وبادرت بمجرد دخولي قصر « مراد » هذا بدعاباتي وهذري ، دون احتراز .. ولم أتوان في مغازلة السيدات ... مغازلات المداعبة .. « فاتلم » على الضيوف ، وأصبحت نجم الاجتماع .. وكان لسوء الحظ هذا الرجل زميلاً « لمراد » وافتكرتي واحد من إياهم أي من بتوع الفلوس الكتير « .. مراد بهذه المناسبة ، كان قد عرض أن يهدي سيارة « رولز رويس » للسفارة المصرية في لندن تحية لمركز مصر » .

وعندما كنت أحادث بيكر .. قال لي ما معناه بالإنجليزية « أنت حتة نتفة راجل ما فيش منه » . وهكذا قضت الصدفة أن يؤكد هذا الرجل التهمة الشنيعة التي ألصقها بي « شكري » و « الفارز » وهي أنني من أصحاب الأعمال الكبار .. .. (ياويلتاه انحطيت يا حسن يا مسكين في شبكة نصب والعياذ بالله .. وبقيت نصاب محتال .. بالرغم عنك) .. وحوقلت وتعوذت ودعوت بالويل والتبور على « شكري » ولعنت اليوم الذي عرفت فيه « شكري » ... ثم دعينا لعقد الاجتماع الموعود .

ادارة الاجتماعات تحتاج لخبرة وممارسات :

دخلت حجرة الاجتماع .. ودعيت لأتصدر منضدة الاجتماع الفاخر ، وجلس الباقون حولها . وبجانب من الغرفة ، جلس شاب وشابة يقومان بأعمال السكرتارية ، وقام هر « اشتامر » وهو الماني من مدينة آخن يرتدي بدلة سوداء ورباط عنق أنيق أصلع الرأس ، معتدل القوام ، رصين هادئ .. ورحب بي بلغة انجليزيه سليمة ..

بدأت الجلسة كالمتبع في مثل هذه الجلسات .. وكنت قد ألممت بما سيعرض بالجلسة .. ولم تكن مثل هذه الجلسات غريبة عني ، فقد كنت أقوم في مصر بادارة .. اجتماعات لجان فنية عديدة ، وأعرف كيف أدير وأضبط مثل هذه الجلسات على المستويات المختلفة .. وكان المجتمعون خليطاً عجيباً من الرجال ، فيهم ألماني وإفريقي وأميريكي وتركي وإسباني وإيطالي ، .. وكنا عشرة .. الواقع أنني لم أتهيب الموقف مطلقاً لاعتيادي التدريس لرجال كبار في الدراسات العليا ، كما كنت معتاداً رئاسة وقيادة وإدارة مجاميع الرجال .. غير أن عدم إلمامي بظروف الأحوال إلماماً تاماً دعاني أن آخذ حذري وأبالغ في تصرفاتي بشيء من الصرامة

واعتدال الوجه وجموده . ولم أبد أي ملاحظات ، بل جلست في منتهى الانتباه أخطط في ورق أمامي كعادتي في مثل هذه الأحوال . نظر المجلس في مواضيع الجدول ، وكنت أتتبع المناقشات .. بصعوبة .. الى أن عرض موضوع هام جداً ، وهو توريد نصف مليون طن من الأسمنت لليبيا وكان الثمن المتفق عليه سبعة عشر دولاراً للطن . على أن تسلم الكمية في خلال خمسة أشهر أي بمعدل مائة الف طن في الشهر ، وهذا معدل صعب التنفيذ من جهة النقل وما يتبعه من مشاكل ... وتبادر لذهني فوراً ما يعتري هذه العملية من صعوبات وأخذت أفكر فيها بطبيعة حاستي الهندسية .. ولم يكن الموضوع قد عرض علي قبل الاجتماع مع غيره من المواضيع .. ولم تكن المشكلة في هذه العملية هندسية .. بل كان المعروض هو الارتفاع المفاجئ في سعر الأسمنت الذي نشأ من قرار من الأمم المتحدة ، بخصوص تلوث الجو من فضلات ونفايات الصناعة « الذي نشأ عنه تعطيل في إنتاج الأسمنت لما يلزم من تعديلات في مصانعه » .

لهذا ولغيره من أسباب حدث صعود مفاجئ في السعر العالمي للأسمنت ولاحظت أن المناقشة كانت تدور على غير هدى .. فلم يسعني إلا أن أتدخل لأول مرة موجهاً المناقشة وأبديت ملاحظاتي .. عما يلزم من بيانات إحصائية لمعرفة معدلات الارتفاع في الأسعار وما هو الحد الأقصى المنتظر له .

وهذا بطبيعة الحال ما يلزم أن يكون معروفاً نتيجة لدراسات إحصائية . . .. فصمت الجميع يفكرون .. وفجأة قام الأميركي « استيوارت » وأخذ يبدي إعجابه بي بشكل مسرحي لم يعجبني ، وظننت أنه يهزأ بي .. فصحت فيه آمراً له بالصمت ، كأنه واحد من طلبتي بالكلية قد أخطأ خطأ شنيعاً ، وتكلمت بعنف شديد قائلاً « إنني لم آتِ هنا لمشاهدة مسرحية .. وإن المقام كان لا يدعو الى مثل هذا الكلام .. » .. وتصنعت الغضب وقلت « إنني سأنصرف وأرجو أن يستمر الاجتماع بدوني ، وسوف أطلع على ما يتم في الجلسة في حينه » وحاول هر « اشتامر » أن يستبقيني واعتذر « استيوارت » ولكني انتهزت الفرصة وخرجت ، لأتخلص من هذا العناء .. وانصرفت مع حشمي ... بعد أن طلبت من سكرتير الجلسة بموافاتي بنتائج الاجتماع بمجرد الانتهاء من تسجيلها .

النوم والأكل عورتان فاستروهما :

كانت معيشتي في الفندق في جناحي الخاص مملة جداً .. ولو أنني كنت أحياناً أدعو أصحاب الأعمال فيه .. وكانت « تريزا » تقوم بإعداد مستلزمات السهرة ولكنني كنت أود أن أعيش في حجرة واحدة صغيرة أشعر بملئها ، وانتمائي لها في وحدتي ، فلا أشعر أنني في فضاء لا أشغل الا جزءاً صغير جداً منه .. فيزداد شعوري بالوحدة .. ولم أكن أدري كيف أتعرف بالناس فأدعوهم ، وأستفيد من هذا الجناح الفاخر لانقطاعي عن المجتمع وجهلي الأسبانية ، وكان « شكري » مصراً على إقامتي في هذا الجناح الذي يتكلف أكثر من خمسين جنيهاً استيرلينياً في الليلة الواحدة (في ذاك الوقت) وكان هذا الجناح مهيّأً لإعداد الأكلات الخفيفة والمشروبات على اختلاف أنواعها .. والفواكه في مقصف خاص . وكان ذلك مفيداً لي جداً لأني كثيراً ما أحب أن أتناول بعض الطعام في أواخر الليل منفرداً . دون أن أزعج خدمة الفندق ولكن المكتب رغم ما فيه من رفاهيات ، ليس فيه أدوات أو غيرها مما يسمح بتناول أي طعام أو مغليات كالشاي وغيره ، رغم أن به غرفة فيها موقد كهربائي وثلاجة ، وكثيراً ما كنت أحتاج لتناول وجبة الغذاء في المكتب لأني كنت لا أحب أن أزعج نفسي بالتوجه الى المطاعم وغيرها في أثناء النهار ، والمكتب خال من الطعام وكانت « تريزا » تطلب القهوة أو الشاي من مقصف مجاور اذا أردت أن أتناول شيئاً منها .. ولو أن بار المكتب كان مليئاً بأنواع المشروبات الروحية وما يلزم لاحتسائها .

وعندما تأتي الساعة الثامنة ، ينصرف من في المكتب وأترك وحيداً .. فأبقى على الطوى والواقع أنني كنت طول حياتي لا أقطع النهار وأنا في العمل ، وأتناول طعاماً خفيفاً وسط النهار في مكتبي بالكلية بمصر .

طلبت من « تريزا » أن تستكمل غرفة المطبخ ، الذي بالمكتب ، حتى لا أضطر كل يوم للخروج إلى المطاعم .. منفرداً أو بصحبتها ، كما أنني كنت أحب بعض

أنواع الطعام الخفيف ، الذي لا أجده في المطاعم ، ولم تكن التكاليف هي المشكلة فإني كنت أعوم في بحر من الفلوس .

في طقم الصيني راغبة ومن إعداد الطعام هاربة :

طلبت من « تريزا » أن تتولى استكمال المطبخ بالأدوات البسيطة التي تلزم لإعداد الشاي أو القهوة ، وأبسط ما يلزم لطعام خفيف جداً .. يمكنني بها أن أخدم نفسي بنفسي في غيابها ، وأمرتها أن تصحبني حتى أرى المتاجر .. وتشتري هي ما يلزم .

ذهبنا معاً بعد ظهر يوم من الأيام الى متجر كبير واسع فاره . يسموه « كورت لنجليز » وهو على نمط متاجر لندن وباريس . يبيع كل شيء تقريباً .. تركتني أطوف لأول مرة أشاهد ما في هذا المتجر .. وذهبت هي الى قسم أدوات الموائد والمطابخ رجعت بعد ساعة محملة بصندوق كبير .. يرسل بواسطة المتجر الى المكتب .. سررت جداً منها ظناً مني أنها اشترت كل اللوازم التي سوف تجعل الحياة في المكتب هنيئة .. وتغنيني عن الخروج والتجول وسط النهار من المكتب ..

خرجت معها وقضيت معها وقتاً طيباً .. طفنا قليلاً « بمدريد » بعد أن صرفت السيارة ، ورجعنا بعد أن تناولنا غذاء طيباً وبعد أن ذهبنا الى السينما وأنا في شوق لرؤية ما اشتريت .. وعندما فتحت الصندوق . كدت أصعق .. لأنني وجدته يحتوي على طقم صيني فاخر جداً ، وليس فيه شيء واحد يصلح لاعداد الطعام أو لتسخينه .. مع طقم معالق وسكاكين وغيرها وأطقم للشاي والقهوة .. فكأنه جهاز عروس من العرايس المغفلات اللاتي يحشدن بيوتهن بأشياء لا نفع لها .. غالباً « للمنظرة » « وتحنيس » الضيوف .

ولما سألتها ، ما الذي سنفعله لاعداد الشاي أو القهوة أو حتى اعداد شطائر « ساندويتشات » .. وما لزوم هذه الأدوات الفضية وهذا الحشد من الصيني ..

فأجابت دون حياء « دول حلوين أوي خالص » .. فنسيت خدماتها العديدة لي ، واعتناءها بي .. وأخذت ألومها .. فانخرطت باكية .. وقالت « بفتكر أنك حتحبهم ، وكنت عايزة أبسطك » ولأول مرة بانت هذه الفتاة لي كأنها أفعى . ابنة شيطان ، « دراكيولاية » .. ألعبانة .. خروبية .. كأمثال بنات جنسها الجاهلات اللاتي لم تربيهن أمهاتهن .. اللائي لا يصلحن زوجات أو أمهات فهن سرطانات في جسد مجمع النسوان .

وترحمت على الأيام التي كانت الأمهات فيها تعد بناتهن لتدبير المنازل والقيام بواجب المعايش في البيوت .. وأخذت أفكر فيما سيكون مآل هذه الفتاة ، فهل ستبقى كل حياتها سكرتيرة شغالة تشبه خادمة في مكاتب رجال الأعمال حيث الفسق والفجور .. والزيف .. والنصب والضحك على الدقون ولما كنت أحببتها كابنتي .. طيبت خاطرها ، ورجعت معها لأشتري ما يلزم .. ولكنها داومت على القول برقة وعيون دامعة .. هذه الأشياء قبيحة المنظر . أنا أحب المطاعم ، والكفتريات والتجول في الشوارع .. أنا لا أحب عمل القهوة أو الشاي من المعقول أن نشتري المشروبات هذه من البوفيه الذي بجوارنا ، ونعطي له هذا الصيني الجميل ليضع فيه ما نشتريه جاهزاً ..

كدت أن أصفعها أو أرقعها شلوتاً لتثوب الى رشدها (والشلوت تعبير مصري يعني ركلة أو رفصة قوية في المؤخرة . وأصل الكلمة « تشلاق » التركية ومنها كلمة – « شلق » أي الذين يرقعون « بالشلاليت » .. والله أعلم) . ولكنها صعبت عليّ فكفكفت دموعها وطيبت خاطرها .. « ارحمهم يا ربي فهن لا يعلمون » ..

وهكذا عرفت لماذا توالي هذه الشيطانة مدي (بالجن تونك) الذي لا يكلف الا فتح سدادة الزجاجة ولربما شاركتني هي أيضاً في قربعته (قربع يقربع قربعة .. هو بلع المشروبات بسرعة وبصوت عالٍ) دون مص .

العفريت الالكتروني والبواب البرموني :

تركني « ماريانو » ، وكذلك باقي موظفي المكتب وحيداً فيه ، وكانت الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل ، أنتظر رجوع «ماريانو» ومندوبنا الألماني بعد الاجتماع الذي وصفته لاحضار محاضر الجلسات والتقارير .. فكنت وحيداً في الشقة التي هي المكتب أو بالأحرى في البنايه التي كلها مكاتب .. الشقة مقفرة .. ولما لم أكن خوافاً في أي وقت من الأوقات من الوحدة . أو من الأرواح أو من العفاريت .. لم أهتم بالوحدة .. وكنت أحاول كتابة بعض المذكرات ، وأردت أن أبري القلم .. و بمجرد أن أدخلت القلم في البراية وأدرت يدها ، سمعت « وراً » غريباً .. ولما توقفت وأخرجت القلم سكت « الور » ولما أدخلته ثانية ، عاد « الور » عالياً ، ولما أخرجت القلم سكت « الور » ولما أدخلته عاد بصوت أعلى ، ولما أخرجته سكت .. ولم أطق الصبر وأدخلت القلم في البرايه فسمعت وراً عظيماً .. أخذ في الازدياد ولم ينقطع .. ولم أتمكن من معرفة مصدره .. وهيئ لي أنه آت من كل جهة .. فانتابتني الهواجس ، وتخيلت سحراً اسبانياً

أو عفريتاً أو جناً خوجاتي أيقظه بري القلم .. واستمر « الور » .. بإصرار عجيب وبوتيرة واحدة .. فهرب الدم من رأسي وسقط قلبي في حذائي ..

لكنني استعقلت واستفكرت أي راودت العقل والفكر وطردت الاستخواف وعن لي أن أبحث عن مصدر هذا « الور » أخذت أستطلع هنا وهناك ، تحت الأرائك وفوق الدواليب ، وبينما أنا منهمك في البحث ، صاعداً على كرسي مكتب دوار لأرى ما وراء مجموعة من الملفات والصناديق في غرفة الملعون « الفارز » انزلق الكرسي من تحت قدمي فاستمسكت بالدولاب ، فسقط علي وأنا مستلق على الأرض وسقطت الملفات ، والصناديق وبعض علب من الصفيح ، وأدوات أخرى كان « الفارز » يكومها دون نظام فوق هذا الدولاب ، وكان لهذا السقوط دوي عظيم .. ويظهر أن سقوط هذه الأشياء أحدثت مساً كهربياً صهر (الكوبس) فانقطع نور الكهرباء ..

مرت لحظة وأنا طريح الأرض مغطى بالأكداس ، مع صمت وظلام رهيب ، وسمعت « خرفشة » على الباب .. فلم أنبس ببنت شفة .. فاذا بالبواب وبيده بطارية قوية ، يستطلع ويتسقط السمع والنظر من الشباك بنور بطاريته الساطع ، وينظر الي بدهشة . بالجهد والمثابرة تخلصت من موقفي الحرج ، وفتحت له الباب .. فدخل منزعجاً .. وأخذ يتكلم بسرعة وتأثر لم أفهم منه شيئاً .. غير أنني تصورت من تلويحاته بيديه وانفعالات وجهه أن لصاً سطا مرة على شقة كان هو بواباً لها ، وقبض عليه ونال وساماً .. لذلك العمل .. وأنه ينتظر وساماً آخر ، وخاصة أن بأسبانيا و بمدريد هذه الأيام بعض أفراد العصابات الذين فروا من أمريكا « شيكاغو » بالذات ، وهم يحترفون سرقة الشقق ، ولكنه لهم بالمرصاد .. فطيبت خاطره وأعطيته زجاجة من النبيذ .. وبعد أن انصرف – وأغلقت الباب أصلحت (الكوبس) المصهر الكهربي .. فعاد « الور » واستمر دون انقطاع . فأضأت كل الأنوار ولم ينقطع « الور » وتتبعت الصوت بهدوء وصبر الى مصدره .. الذي اتضح أنه من ماكينة الطباعة الإلكترونية .. وبعد فحصها عرفت أن الملعونة « تريزا » خرابة المكاتب .. شراية أطقم الصيني .. عدوة المطابخ عشيقة المطاعم والبوفيهات .. تركت التيار الكهربائي يدخل الماكينه حتى شحنت لآخرها .. « فطبنجرت » .. فتزاحمت الكهيربات حتى هاج بها المقام .. وأخذت الماكينه المسكينه تطلب الغوث بهذا « الور » ولكني الى يومنا هذا لم أعرف لماذا كان « الور » له توقيت مع بزي القلم ومع انصراف البواب .

الاستمتاع بنهاية الاجتماع :

رجع « ماريانو » بعد ساعة ، يهز ذيله فرحاً ، لأنه على حسب قوله خبط المجتمعين مقلباً هو « واشتامر » الألماني مندوب مكتبنا ، ثم أخذنا نكتب برقية أو « كابل » لليبيا بما حدث و بملخص القرارات وشغلنا « التلكس » والتليفونات .. حتى يصلنا قرار شكري من « طرابلس » وهكذا انصرفت الى الفندق الساعة الثالثه صباحاً . اندسست في السرير الواسع الذي يكفى أربعة بين الملايات المكوية ذات الملمس البارد .. وجال .. بخاطري متعة سريري بمنزلنا بمصر وبدفء الحب فيه . وقفزات بكرة فضة كلبي اللطيف .. وما لبثت حتى غبت عن الوجود ..

الفصل الثامن

أصل الحكاية غدرٌ وخيانة

ليس كل مرة تسلم الجرة

تطوع غير محمود :

عندما دخلت المكتب . صباح اليوم التالي وكانت الساعة : العاشرة ، وجدت ماريانو ينفخ كالثور .. وجميع من في المكتب في وجوم ، وبادرني « ماريانو » بقوله .. لم نتمكن من الاتصال بالدكتور « شكري » في « طرابلس » .. لأن البرقيات والتلكس معطلين . وباكر الجمعة إجازة في « ليبيا » واسبانيا كلها في عيد وطني . ويتعذر الاتصال « بطرابلس » اليوم ... « وإن ما كناش نتصل بيه حانروح في داهية » وطبيعي لم أعرف تفاصيل المشكلة ، غير أنني فهمت أنها تتعلق باجتماع البارحة .. ولا يوجد حل إلا أن يسافر « ماريانو » فوراً الى « طرابلس » وتأشيرة دخوله لليبيا لم تستخرج بعد .. والطائرة الوحيدة إلى « ليبيا » تقوم الساعة الحادية عشرة والربع .. وبكل نفس ذائقة الموت ، أخذ يرجوني أن أسافر بدلاً عنه ، لأن جواز سفري جاهز ... فقلت له متغنياً « ماذا أقول له لو جاء يسألني ؟ » .. وكأنه يبدو أن هناك ما هنالك ، مما لا يمكنني معرفته . أو يمكنه الإفضاء به الي .. واقترح « اشتامر » الألماني أن يسجل ما يريد وأن يوصله « لشكري » في كاسيت . وأتكرم أنا بتوصيله الى « شكري » .. وفعلاً أخذ المسجل « الكاسيت » وانتحى في غرفته يسجل فيه ما يريد . وبدأ « الفارز » و « ماريا » يتصلان بالمطار .. واتجهت مع « تريزا » للفندق لأجمع أوراقي وما يلزم للسفر ...

العجلة من الشيطان :

وصلت الفندق وفي عجلة جمعت ما يلزم .. ورجعنا الى المكتب .. وأعطاني « ماريانو » حقيبة صغيرة بها الكاسيت وربطتين ، اتجهت السيارة بي الى المطار مع « تريزا » ولما اقتربنا من المطار ، تحسست جيوبي ففوجئت بأنني من عجلتي لم أنتبه وارتديت المعطف الثقيل دون أن أرتدي السترة « الجاكتة » وفيها جواز السفر وحافظة نقودي وغيرهما ... ولما أخبرت « تريزا » ، أسقط في يدها ... وكلمت السائق .. فنظر الى ساعته ، وقفل راجعاً يسابق الريح .. وصعدت الى جناحي في الفندق ، وارتديت السترة « الجاكتة » . سارت بنا السيارة تسابق الريح كأن الشيطان يطاردنا .. وخالف

السائق كل إشارات المرور ، وأنا أنظر الى عقارب الساعة التي تتسارع الى الحادية عشرة والربع ... ولست أدري كيف صعدت الطائرة وهي على وشك الإقلاع .. وشعرت كأن ألف يد كانت تحشرني فيها .. ولما استويت جالساً على مدي ... وأخذت ألتقط أنفاسي .. .. هاجتني الهواجس . «ما هذا الذي أنا فيه ؟» «هل أصبحت مرسالاً أحمل ما لا أعرف ؟» .. «ماذا إذا كان في هذه الحقيبة شيء يخالف القانون .. أو يفضح شيئاً غير شريف إذا ضبط معي .. ولست أجرؤ على فتح الحقيبة وتفتيشها وأنا في الطائرة ؟» فبت كأني أحمل أفعى لا يمكنني التخلص منها .. ولعنت الدقيقة التي وافقت فيها على هذه الرحلة .. لماذا لم يفصح لي «ماريانو» عما في الكاسيت والحقيبة ؟ لماذا هذا الغموض ؟ ألست المشرف على عمليات المكتب .. ؟ لم أقضِ في حياتي وقتاً أشق من الوقت الذي قضيته في هذه الطائرة . مع أنني كنت أحمل حقائب مثلها في سفراتي لشكري .

- **في مطار روما الحال هوا والطبيب الله**

توقفت الطائرة في مطار روما كالمعتاد .. وما حدث لي في مطار «روما» هذه المرة «زي الزفت بس شكل تاني» .. حمل الحقائب هذه المرة لم يكن مشكلة لقلتها وخفتها . حقيبتي الزرقاء المراكشية «الألاجه» وحقيبة طيارة فيها غيار ملابس وشبشب وجلابية وأدوات كتابة وكاميرا ومقص والحقيبة الملعونة المكلف بتسليمها لشكري .

توجهت نحو الجوسق (الكشك اياه) .. فلم أجد «الأجوانه» أي السحلية البشرية التي سبق وسامتني سوء العذاب المرة الماضية في رحلتي من مصر . وجدت مكانها شاباً يكاد يكون ذكرها وهي أنثاه .. وبالعافية أشار نحو الجهة اليسرى وقال كلاماً بالطلياني «باين عليه كلام أبيح» .. وفي طريقي الى اليسار .. عثرت على رجل ببزة رسمية .. وسألته عن الاتجاه فدلني على «كشك» الطيران «الليبي» وكان فيه بنت بشعر أسود صغيرة الحجم «منيون» .. جذابة الملامح .. تخاطب صبيا أشقر جداً قرمزي الوجه .. علمت أنه صبي أميريكي متجه إلى ليبيا . وكان عمره لا يزيد على ثلاث عشرة سنة .. ومشكلته أن «فيزته» أو تأشيرة دخوله «ليبيا» انتهى مفعولها .. ولا يرغب الطيران «الليبي» التصريح له بالسفر . ولا يرافقه في سفره أحد ... فعجبت كيف أن والديه تركاه يسافر وحده ، ويحل بمفرده مشاكل السفر العويصة التي أعيتني ، وتأكدت مما أعرفه عن الأميريكيين والإنجليز من تدريبهم لأولادهم على معالجة مشاكل الحياة

والاعتماد على أنفسهم وتمنيت لو اقتدينا بهم في تربية أولادنا .. طيبت خاطر الصبي الذي كلمني كأنه رجل .. وقال ولو أنه لا يحمل معه نقوداً كافية ، الا أنه سيتصرف وانطلق مبتسماً بعد أن شكرني برجولة .. وشهامة ورفض أي مساعدة مني .

التحسيس بحجة التفتيش :

تسلمت بطاقة صعود الطائرة .. ولكن الفتاة لم ترشدني . الى مكانها .. وذقت الأمرين لأعثر على الباب وأعرف ميعاد السفر .. وجدت نحو عشرة أشخاص ... في حيرة مثلي .. ففرحت جداً وتوليت قيادتهم ، وقمت بمهاجمة الشرطي الذي يحرس باباً يقف أمامه . ولما كان في عصابتي من يعرف الألفاظ الطليانية .. ومنها غير المهذب . « الأبيح » .. « نزل في العسكري ردح .. يا اللي يا اللي .. مخلالوش » فانصاع هذا الشرطي الذي كان شاباً .. وقادنا الى باب (١٣) حيث وقفنا ساعة زمن .. وأخذت عصابتي التي كانت متجمعة حولي بالازدياد عدداً ، حتى صارت جمهوراً عظيماً .. وكلهم سيستقلون الطائرة معي ..

حضر رجل عظيم الجثه مكفهر الوجه .. واقتادنا الى باب ، أدخلنا فيه واحداً واحداً .. للتفتيش .. لاحظت ويا لهول ما لاحظت ، لاحظت التفتيش عبارة عن تحسيس وربما « زغزغة » « ونغززة » « وهزهزة » وقلة أدب .. وكذلك « الستات الغلابة واللي مش غلابة » .. تحسستهم سيدة ، لا بد أنها كانت ذكراً متخفياً في زي النساء ، لما بدا عليه من علامات وسمات الذكور . ومن هاتيك الستات واحدة لا أدري إن كانت تعني ما تفعل أو هي أصلاً كده .. إذ ما كادت المفتشة تلمس جسدها حتى أخذت تتأوه .. تتلوى .. وترقص .. وتتشخلع .. وتتمرقع .. وتهزهز وتتجمز .. و ... و ... وكانت بهذه المناسبة .. نتوءاتها الأنثوية واضحة « وتكني كولور » أي شقراء مخضبة بدهانات « ماكس فاكتور » .. وكانت واضحة القصد في الاستعراض هذا والإغراء وفي الوقت نفسه كان للهزء بهذه المفتشة .

المقص القطاع سلاح قتال :

ولما جاء دوري خلعوا عني المعطف والسترة « الجاكتة » وبدأ المفتش يتحسسني بجرأة وخشونة ، ثم أخذوا في فتح الحقائب ، فعثر على الكاميرا وأخذ يعبث بها ، وكاد يفكك أجزاءها . فاستغثت بمن حولي .. وسمعت همهمة وزمجرة .. فأرعوى الرجل ،

واكتفى بأن يصادر المقص .. الذي قال عنه .. إنه سلاح قاتل فتاك وسلمه لضابط الطائرة على أن يعطيه لي في «طرابلس» .

وكنت طول وقت التفتيش أظن أن هذا البحث والفحص هو للتحقق من خلو المسافرين من الدمامل «والخراريج» «والأورام» الخبيثة . ولربما «الجرب»... وغيره من الأمراض الجلدية .. وأنهم من رجال الكورنتينة فوق أنهم رجال أمن يبحثون عن الأسلحة والبمب ، وليمنعوا المرضى المعدين من دخول «ليبيا» .. ولكن هذا المقص الصغير كيف يعتبر سلاحاً فتاكاً .. وتصورت صعوبة الحصول عليه عند الوصول في «طرابلس» وتوقعت ضياعه أو سرقته .

ولرب صدفة خير من ميعاد :

وصلنا «طرابلس» .. ومررنا بالجمرك .. حيث عامل رجال الجمرك الناس في خطوات الاجراءات بصرامة لم أعهدها .. فسقط قلبي في قدمي .. ولحسن الحظ كان مهندس «ليبي» حاضراً لأمر لا أعرفه .. وكان من طلبتي بكلية الهندسة بمصر فاندفع نحوي .. معانقاً .. ولا أدري ما الذي فعله .. وما مركزه في الدولة .. غير أنني وجدت نفسي في لحظة خارج المطار .. معه وفي سيارته الفاخرة ، وأصر على أن يستضيفني ولكني اعتذرت .. وطلبت منه أن يوصلني الى مكتب «شكري» وكان يعرفه فأوصلني وودعني معانقاً على أن نتقابل .. وهكذا خرجت من المطار دون تفتيش أمتعتي فحمدت الله وشكرت فضله .. عزمت أن لا أتطوع ثانية لحمل حقائب أو أشياء عبر الجمارك إذا لم تخصني . ولم أعرف عنها شيئاً .

قصة غرامية على الأرض الليبية

استقبال الحبيب بتحية وترحيب :

ضغطت على زر جرس باب منزل فخم جداً ، « فيلا » وسط حديقة كبيرة... فتح الباب شاب ليبي وسيم بالغ الأدب .. فأعلنته باسمي .. فتهلل وجهه فرحاً .. وتركني وجرى إلى الداخل ، ورجع معه « شكري » الذي عانقني مرحباً بي أجمل ترحيب . ولكن وجهه لم يخل من الدهشة .. وقال : « هلّ هلالك يا سيد الرجالة » .. وقادني إلى مكتبه بالدور الأرضي .. مكتب فخم مؤثث بأفخر الرياش ، إلا أنه يخلو من غموض ولعبكة مكتبنا في « مدريد » . وبعد المقدمات والقهوة .. بدأت أسرد له القصة .. فاكفهر وجهه لحظة .. ثم عاد وابتسم . وسلمته الحقيبة .. ولم أرغب أن أسرد عليه مخاوفي . وتحادثنا في شتى المواضيع .. ولم يخل كلامي من التندر والهزر .. ودخلت علينا « عزة » التي رحبت هي الأخرى بي .. وتبادلت معي نظرات ذات معنى .. وأخذتني تطوف بي في المكان تعرفني بمحتوياته و بمن فيه .

خدر الغادة فندق فوق العادة :

يتكون هذا القصر الصغير من طابقين ، يشغل المكتب ومستلزماته الطابق الأول .. ويشغل الطابق الثاني عديد من الأقسام أو الشقق .. الشقة الرئيسية مسكناً « لشكري » حشدها بالتحف والأثاث .. وزينها بـ « ديكور ممتاز » .

وشقة مخصصة « لعزة » تفوح منها رائحة العطور .. وتكاد تفيض بمعالم الأنوثة ، رقيقة جميلة ، كأحسن ما يكون في « باريس » . وشقة متطرفة يسكنها المهندس « يحيى » وزوجته ، وطاهيته « زينب » ، وهذه الشقة قاهرية السمة . قالت لي « عزة » « أنت حاتقعد معانا هنا ، ورايحة أسيب لك شقتي اعتبرها بيتك » فنظرت إليها متسائلاً دون أن أتكلم .. فضحكت ضحكة فاضحة وقالت « مالكش دعوة بيّه » ، وغمزت بعينها « أنا حنام في شقة « شكري » .. » .

وحاولت أن أعتذر وأذهب إلى الفندق ... فقالت بصوت خافت « أنت لسه خايف

بعد اللي جرى في « مدريد » .. » فصمت صمت القبور ، وعرفت أنني على مدخل أشياء خطيرة أنا في غنى عنها .. وفي لحظة أطلت « عزة » من السلم وأمرت فتحي السائق بإحضار أمتعتي ووضعها على منضدة في شقتها .. وانصرفت .

... ولما كنت تعباً .. غير هادئ البال .. اغتسلت ونمت ، واستيقظت على رنين جرس تليفون غرفة النوم التي أنام فيها . دعاني فيه « شكري » للاستعداد لتناول العشاء ..

في البداية قصة وحكاية :

دعاني « شكري » للخروج بالسيارة .. وبهذه المناسبة للمكتب ثلاث سيارات فاخرة ، واحدة « لشكري » وواحدة « لعزة » وواحدة خصصها « شكري » لي بسائقها « فتحي » عدا سيارتين عاديتين . ذهب بي « شكري » إلى كازينو على الشاطئ .. وجلسنا في ناحية نتحادث ونرتشف السقايا من المغليات التي تسد النفس .. لأنه ممنوع شرب غيرها في « ليبيا » . وبدأ « شكري » يستدرجني في الحديث الى أن جاءت سيرة « عزة » فقال لي يا حسن بيه أنا أعتبرك زي أخويا الكبير ، والحقيقة أنني محتاج لك ، مش بس علشان الشغل ، لكن علشان مسائل شخصية ما اقدرش أقولها إلا لك ! ! .. (الله .. الله .. يا سي شكري) هذا ما دار في خلدي (يا ترى إيه الحكاية ...؟) .

عندما يكون البلاء في الثراء وفي النساء :

قال إنه رجل عصامي كما أعلم .. عمل كل ثروته بجهده ، ولكن لا ينكر فضل زوجته الألمانية وأبيها .. ولكن زوجته لا ترضيه كأنثى .. وشغل عنها بسكرتيرته « فردوس » التي كانت تعمل بمكتبه بمصر ، عاشرها .. ورزق منها بولد .. ولكنه لم يمكنه أن يتزوجها ... وتركها بمصر .. ويقوم بأودها هي وابنها . وهي لا تزال له بالمرصاد ، وتطارده ليتزوجها .. ولا يمكنه أن يتخلص منها كلية ، لأنها كانت سكرتيرته ، وتعرف عن أعماله الشيء الكثير .. وعليه ألا يغضبها . وفي أثناء تردده على مصرفه « البنك » قابل « عزة » حيث كانت تعمل ... ولم يلبث حتى وقع في غرامها .. وأغراها لتعمل معه .. فقبلت ، وغادرت البلاد معه إلى « ليبيا » ، وأقامها بمكتبه تديره هناك .. ولم يجرؤ على إقامتها في أوربا ، خوفاً من زوجته الألمانية .. ولكنه كثيراً ما كان يدعوها إلى أوربا ويطوف معها فيها .

تسللت « عزة » الى أعماق أعماله وأسراره بذكائها وخبرتها ، حتى ملكت ناصية

الأمور . والغريب أنه لم يتعظ بتجربته مع سكرتيرته السابقة « فردوس » ووقع في نفس الخطأ ... وعندما تمكنت « عزة » منه وكان يعاشرها معاشرة الأزواج ، طلبت منه أن يتزوجها ، وألحت في الطلب ، وبينت له من طرف خفي قدراتها عليه ... كما أشاعت بمهارة فائقة أن رجلاً من رجال الأعمال الليبيين كان من أعدائه الخطرين يعرض عليها أن تعمل معه .. وكان معجباً بها جداً ، ويعرض عليها الزواج . « وشكري » كان يعلم علم اليقين أن تحالفها مع هذا الرجل لا بد أن يجر عليه الخراب .. وهم في ليبيا في معارك ضارية في ميدان الأعمال والمال .

ولقد حرصت « عزة » أن تجعل علاقتها « بشكري » ، وكذلك معايشتها له واضحة جداً لمن حولهما دون حياء ، فطمع فيها رجال كثيرون من أثرياء رجال الأعمال الليبيين يخطبون ودها ... وبطبيعة الحال كانت تعلم أن سلامتها عند « شكري » ... وأن غيره لا يؤمن لهم جانب من هذه الناحية . ولكنها كانت تشعره بكل الوسائل أنها مطلوبة .. وأن لم يرضها فالطريق السعيد مفتوح أمامها .. كاد يجن جنون « شكري » من هذه الحال ..

فكر شكري أن خير وسيلة ينجو بها من هذا البلاء ، هو أن يرجعها الى مصر ، لتدير أعماله هناك ، وبدأ يرسم الخطة لذلك حتى يبعدها عن هذا الجو المخيف الخطر عليه .. وقدر ما يلزم دفعه في هذا السبيل ... عليه أولاً أن يعد لها شقة فاخرة على النيل وسيارة لائقة ، ثم ينشئ مكتباً لها بمعداته ومسلزماته ... ولكنه يخشى ألا يرضيها هذا ، لرغبتها في الزواج منه ، بمعنى آخر رغبتها في اقتسام ثروته معه .. هذا غير المشاكل المتوقعة من زوجته الألمانية ، التي هي الأخرى في مركز خطير بالنسبة لأعماله .. وكذلك « فردوس » بمصر وما يمكن أن تفعله عندما يبلغها أن « عزة » تزوجته أو أنها تدير له أعمالاً بمصر .

« يا داخل ما بين البصله وقشرتها ما ينوبك إلا صنتها » :

عندما انتهى « شكري » من قصته ، أخذ يعدد مناقب « عزة » ويعدد مقومات قدراتها .. وقال إنه لا يمكنه الاستغناء عنها ، مع أنه في جهنم الحمراء بقربها .. ولا يدري ماذا يفعل ...

لهذا لم يجد بداً من أن يشركني في حل مشكلته ، ويطلب معونتي . فتعجبت في سري .. كيف لي أن أضع نفسي في هذه المشكلة وقد طلبت « عزة » مني في « مدريد »

نفس الطلب ، ولا يمكنني الإفضاء بالحقيقة لأي منهما ، وتذكرت المثل العامي القاهري « يا داخل بين البصلة وقشرتها ما ينوبك الا صنتها » وأردت أن أخلص نفسي من هذه المشكلة التي اذا تداخلت فيها لن أنتهي منها دون متاعب وأنا في غنى عنها .

صمت قليلاً .. ثم قلت له .. يا « شكري » (أنا مش عارف أقولك إيه أنت الراجل الذكي الناضج ازاي تدخل مشاكل ما يدخلهاش شاب غر ؟ ... على كل حال « سبق السيف العَذَل » « واعلم أن النساء كيدهن عظيم » وهذا جزاء من يسلمهن قيادة) . وسرح خيالي في أسطورة هنديه .. عن « حواء » أمنا وقلت له .. « حالك مع « عزة » فكرني ، بحكاية هندية خليني أحكيها لك ».

لغز الرجل الذي ليس له حل

حواء :

بعد أن انتهى الإله الأعظم من خلق الأرض والسماء والبحار والأنهار والجبال والسهول والوديان ، ونظم الأفلاك وزين السموات بالأقمار والنجوم .. وخلق الكائنات الحية نباتاً وحيوان وما بينهما .. فكر ملياً .. كيف سيحظى بالشكر ممن سيفيد من هذه المخلوقات ، ومن الذي سيشكره . ويشيد بنعمائه وفضله ؟ عما خلق له ؟ فشاء أن يخلق الانسان ، ويميزه بعقل رشيد وفكر راجح من عنده ، فينعم في حياته بما خلق له الإله

خلق الإله الأعظم الرجل ... وتركه في الأرض ليسلك فيها سبل عيشه وحياته .. وبقي الإله يراقب من عليائه تصرفات الرجل .. ويترقب الشكر الذي سيجزيه لخالقه عما خلق له بما تحتويه الأرض وتسعه السماء ... غير أن الرجل ظل تائهاً يسير في مناكب الأرض من غير هدى ولا هدف ولا أمل ولا طموح حاله حال أي بهيمة في الأرض أو دابة لا تدري من أمر نفسها رشداً ..

انزوى إله الخلق وحده يفكر في أمر هذا المخلوق .. وفي مصيره الذي لا يعلم كنهه .. فاهتدى الى حل .. هو أن يخلق لهذا الرجل أليفاً أو رفيقاً أو صاحباً أو شريكاً يشاطره نعم الحياة .. وبعد لأي وجهد إلهي وعناء في التفكير .. طال ردحاً من الزمن .. توصل الإله الى حل لمشكلة الرجل الذي تورط في خلقه .

فأخذ من المها عيونها . ومن الزهور بشاشتها ، ومن الغزال رشاقته ، ومن الأرنبة ، إجفالها ، ومن الورد نضارته ، ومن المسك عبيره ، ومن الماء خريره ، ومن النسيم ، خطراته ، ومن البراكين ثورتها ، ومن البحر غضبه ، ومن الرعد هديره ، ومن العواصف شدتها ، ومن الحمل وداعته ، ومن النمر شراسته ، ومن الطاووس كبرياءه . ومن الأفعى نعومة ملمسها ، ومن العقرب غدره ، ومن الكلب وفاءه . ومن القطة جحودها ، ومن الثلج برودته ، ومن النار دفئها ، ومن الثعلب مكره ، ومن الحرباء تلونها ، ومن التمساح دموعه ، ومن العندليب شدوه ، ومن الكروان تغريده ، ومن الفجر إشراقته ،

ومن السحر صفاءه . ومن الغيمة كآبتها ، ومن القرد خفته ، ومن الفيل ثقله ، ومن الحمار حلمه .. ومن مالك الحزين يأسه ، ومن الببغاء ثرثرته .

مزج هذا كله .. وصنع منه امرأة جميلة حسناء ناعمة ، قدمها هدية الى الرجل ليسر بها ، ويهنأ بصحبتها . ويسعد بمعاشرتها ... عله يشكر خالقه على ما أنعم عليه من فضل وجود وكرم . أخذ الرجل بيد امرأته وغادر بها مقام سيده خالق الخلق ، فرحاً مستبشراً سعيداً بما قدم له من هدية ما كان يحلم بها .وبعد ثلاثة أيام ، عاد الرجل الى حضرة اله الخلق ، وهو بادي الحزن ، كئيب المحيا وقال :

أيها الإلٰه العظيم ، أيها الخالق المبدع .. إن هذه المخلوقة التي أهديتنيها ، قد أثقلت على حياتي .. فهي ضعيفة تحتاج الى رعاية دائمة ، وهي وجلة خائفه ، تحتاج الى حماية وحراسة .. وإنه عَلَيَّ أن أحضر لها الطعام .. وأقدمه لها .. وعلي أن أدافع عنها ، اذ لا حول لها ولا قوة .. وهي مع هذا كله جاحدة للفضل ناكرة للجميل ، سليطة اللسان ثرثارة .. لقد قلبت حياتي الى سجن رهيب ، لا حرية لي فيه .. حتى لساعة واحدة في اليوم أخلو بها لنفسي .. لذا أرجو أيها الإله العظيم أن تعفيني منها وتسترد هديتك مشكوراً ..

أطرق الخالق الأعظم برأسه برهة وقال « حسناً دعها وانصرف » .. ما كاد الرجل يسمع قول إله الخلق ، حتى انطلق من حضرته مهرولاً ، لا يلوي على شيء ، وهو يتراقص فرحاً مسروراً بحرية وبسعادة وحيوية .

وبعد يومين ، عاد الرجل . ودخل على إله الخلق كسير القلب . مؤرقاً تعباً ، حزيناً يائساً .. وقال بصوت ناحب حزين . يتفجر منه الألم لوعة وحسرة ومرارة ..

يا خالقي العظيم .. يا إله الكون .. يا من حويت كل شيء ، إنني بعد أن أعدت اليك امرأتي .. شعرت أن لا معنى لحياتي من غيرها . ولا ثمرة لوجودي من دونها ، وفوق هذا كله ، وجدت أوقاتي كلها خالية خاوية ، بعيداً عنها ، فلقد ملأت قلبي حباً .. وحياتي دفأً ... وأوقاتي أنساً ومسرة .. إنني أتذكرها الآن كيف كانت ترقص برشاقة الغزال ، وتغني لي بصوت العندليب ، وترفق بي رفق الأم بوليدها ، وتحنو علي حنو الفراشة للزهور ، فيغمرني أريجها ، ويسكرني حديثها وتبدد وحشتي ضحكتها ... إنها كانت سلوتي ... وسميري ، ورفيقي ، وألفي ، ... فهل تكرمت علي ورددتها الي مشكوراً دائماً أبداً .. أيها الاله الجليل الكريم ..

استغرق إلـه الخلق العظيم في تفكير عميق .. ثم أردف قائلاً « حسناً إليك بها خذها ولا ترني وجهك مرة ثانية » . وتلقفها الرجل لهفاً . وضمها إلى صدره ، ثم حملها برفق على ذراعيه ، وسار بها من حضرة الإله مسرعاً ..

وفي اليوم التالي ، دخل الرجل على حضرة إله الخلق متداعياً متهالكاً – شاحب الوجه وصاح متذمراً ، معاتباً ..

أيها الخالق الأعظم .. إن هذه المخلوقة . باردة كالثلج ، شرسة كالنمر ثائرة كالبركان ، غادرة كالعقرب ، جحودة كالقطة ، مُرعبة كالرّعد ، غضبى كالبحر ... وأنا لا أستطيع العيش معها ... ولا أريدها فأرجو أن تعفيني منها ... فقاطعه إله الخلق صائحاً بغضب :

« كفى أيها الرجل .. الناكر للجميل .. الجاحد للفضل .. اخرج من مقامي ، وخذ امرأتك معك ، ولا تدعني أرَ وجهك ثانية ، وإلا محوتك من الوجود من بين خلائقي .. فانك لا تعرف ما تريد وما لا تريد ... » .

أجاب الرجل بتردد هلعاً مذعوراً .. « لكنني لا أستطيع العيش معها » .. فصاح الإلـه بصوت كالرعد .. « وانك لا تستطيع العيش من دونها أيضاً » . ارتعدت فرائص الرجل من صرخة الإله الجبارة ، وتراجع الى الخلف مذعوراً وهو يردد مع نفسه « نعم لا أستطيع العيش من دونها أيضاً كما لا أستطيع العيش معها .. .. »

تقهقر الرجل من حضرة الإله وخرج يائساً . ذليلاً مستكيناً تتبعه امرأته أينما ذهب وحيثما حل .. وهو ما انفك يتمتم مع نفسه « انها قدري .. انها لعنة الإلـه صبها على .. لا أطيق العيش معها ، ولا أستطيع الحياة بدونها » .

الغريب أن « شكري » رغم عدم اهتمامه بالثقافة العامة ... استمع مشدوها .. ثم انصرفنا وهو غارق في التفكير ولم نتحادث طوال الطريق الا أن شكري كان يردد في سره .. بلا شك ... نعم لا أستطيع العيش معها هكذا ، كما وأني لا أستطيع أن أتركها .

الفصل التاسع

صُبحيَّة مبارَكَة

غـــــرقـة

الإفراط في الشرب يذهب اللب

أطلت علينا « عزة » من أعلى السلم ، عندما دخلنا .. وقالت (أنتو اتأخرتو كده ليه ؟.. هوا يا « شكري » « حسن بيه » بتاعك أنت لوحدك والا إيه .. ده أنا مستنياكو نسهر سوا) ... فضحك « شكري » وصعدنا .. واقتاداني « شكري » وهو يتبع « عزة » نحو باب شقته ... وكانت غرفة الجلوس مهيأة لسهرة .. والشراب وما يصحبه من مشهيات « المزه » معدة اعداداً فنياً بمهارة ودلع .

أصررت على ألا أشرب الا الجن تونك اللي هوا نص منكر . ولكن « شكري » و«عزة» أفرطا في استهلاك الويسكي الفاخر ... وخوفاً من أن يتطرق الحديث الى دخائلهما ... أخذت أقص عليهم ما حدث لي مع « ماريانو » وما حدث لي مع العفريت الالكتروني ، وما حدث في مطار روما ... وضحكنا كثيراً جداً ..

ليلة ليلاء :

وبعد منتصف الليل بكثير .. استأذنت في الذهاب الى مخدعي فقامت « عزة » لاصطحابي .. وحاولت منعها ، فتعللت بأنه يلزم أن تعرفني بأمكنة المناشف وغيرها وكان شكري في حالة سكر بين .. يكاد لا يعي ما يحدث حوله .. واستمهلتني ... وتركتني .. وبعد برهة ... رجعت مرتدية رداء حريرياً يستر قميص نومها الجميل ، ويتهدل على كتفيها ويهفهف حول جسدها البض .. هذا غير ما صنعته بهيئتها . وكان واضحاً لي أنها كعادتها تسلحت بكل ما هو متاح من مكياج وتصفيف شعر وعطر ... غير ما تملكه أصلاً من رشاقة وجمال ، وصوت رخيم .. واستعدت لتقتل . وما أن دخلنا شقتها ، واضاءت النور ، حتى واجهتني ثم ارتمت في أحضاني ووضعت فمها على فمي .. أسكرتني القبل ، وغلبتني طبيعة الأشياء .. ولكن هيئ لي أن « شكري » كان يتبعنا فحاولت الخروج من عناقها وقلت « أنتي مجنونة .. « شكري » فقالت « ده متنيل على عينه . هوا ده راجل ؟ أنت نسيت « مدريد » ...؟ »

صبحية مباركة :

تسلمني النعاس ... وغمرتني أنوثة الفراش ، وما ينبعث منه من عبير . وغرقت في أحلام ، تنازعتني فيها ما بين الجنة والجحيم .. وأفقت في الصباح الساعة العاشرة وخرجت من الشقة نحو المكتب .. قابلني المهندس « يحيى » وكنت قد تعرفت به البارحة ، وتبادلنا أطراف الحديث كما تبادلنا النكات والتندر .. فقال « أهلاً أنت نورتنا .. صبحية مباركة » « كاد يغشى عليّ » .. « يا نهار أسود » ما معنى (صبحية مباركة) . هذه العبارة لا تقال الا في صبحية ليلة الزفاف ... وما لمحته على وجهه من ابتسامة ماكرة أسقط قلبي في قدمي .. (يا دي الفضيحة) ... تجاهلت ما سمعت وأدرت الحديث نحو الأعمال .. ولم أكد أصل الى منزل السلم حتى هلت « عزة » من شقة « شكري » وقالت صباح الخير ... تعال يا حسن بيه ، فطارك جاهز هنا ... فلم أحاول الكلام واتجهت نحوها تاركاً « يحيى » ينزل وحده وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة .

تناولنا الإفطار معاً «شكري » و «عزة » و « أنا » .. ولم يبد على وجه «شكري » أي انفعال ..وكذلك «عزة » كان وجهها جامداً وكأن ما حدث معي ليلة البارحة لم يحدث قط ...

الفرار خير قرار :

قررت أن أنتقل الى الفندق .. بعيداً عن « عزة » وعن مشاكل الليل .. وطلبت من « شكري » أن يسمح لي بذلك فاعترض قائلاً إنه يجب أن يلازمني .. وكذلك «عزة » قالت «هوا شقتي مش عاجباك والا إيه ؟ » ... وأؤكد أن رغبتي في الانتقال .. الى الفندق لم تكن عفة مني .. أو كراهية لغرام «عزة » بل كانت خوفاً شديداً من الفضائح ومن شكوك «شكري » .. وهرباً من الفضيحة التي بدأت بشائرها مع «يحيى» .. ولم يقبل « شكري » طلبي للانتقال بل رجاني أن أجرب البيت ليلة أو ليلتين .. فقلت له «أنا راجع « مدريد » بكره..» فردت «عزة » قائلة هوا ده كلام ، ده احنا عايزين نفرجك على « طرابلس » وناس كتير عايزين يقابلوك ، .. ده أنت نورت البيت علينا وخليته بهجة وضحك بعد ما كان ميت » . ولكنني قررت أن أنتقل الى الفندق دون وساطة «شكري » ودون أن أخبره .

الجد جد والهزل هزل والعمل عمل :

قضينا الصباح كله في عمل بالمكتب . وشاهدت «عزة » في أثناء أداء عملها

وكيف كانت تدير رجاله في حزم وشخصية ادارية فذة . وتعجبت ، كيف أن دلال وأنوثة ورقة وشهوانية الليلة البارحة ، انقلبت الى حزم وعزم وقدرة وسلطان .. ورأيت كيف يدير «شكري» أعماله وعلاقة «عزة» بهذه الأعمال ، ولاحظت المهندس ، «يحيى» وملفاته... والمكتبة والموظفين والفراشين والسائقين .. وقضيت الصباح كله ، في غمرة هذا البحر الخضم من الأعمال ..

عزومة ست الحاجة :

دعانا المهندس «يحيى» للغداء بشقته .. وكانت زوجته «ست الحاجة» هي المسئولة عن هذه الوليمة وكان المدعوون للغداء هم «أنا» و «شكري» و «عزة» و «يوسف» و «حمدي» ولا أعرف الآخرين .

الأستاذ والطاهية

زينب المرأة الطاهية على نعمتها غير راضية :

طهت الطعام وأعدته الطاهية «الطباخة» زينب وهي امرأة مليئة . بيضاء البشرة بياضاً مبقعاً ، حولاء .. بوجه عبوس ، قمطرير .. ورغم كل محاولتي ، لمداعبتها بألطف الألفاظ ، لم يمح التِّعباس عنها .. ومن الواضح أن بينها وبين « عزة » ما صنع الحداد ، يظهر ذلك من حركاتها ونظراتها فقط .. ولعل ذلك أثر ما تسمعه عن « عزة » مما يتناول عفتها .. وهي بنت البلد المصلية ... فسألتها «مالك يا ذوبة شايلة الدنيا على كتفك .. دي الدنيا سكر نبات يا ست الستات ... » قالت لي « والني يا سي حسن أنا ما أنا عارفة أعمل إيه .. أنا باخذ أربعين مديوب (يعني دينار) في الشهر عشرين بيروحو مصروف والباقي بيتحوّشو .. والطباخين هنا الواحدة الارعة بتاخد ميت دينار .. هو أنا مش أدهم والا إيه » ... طبعاً هذا غير المأكل والمشرب والمسكن والملبس والمنيم والمعلج والمرفه .. فحوقلت وتعوذت من هذا الطمع المخيف الذي أحدق بشغالي البيوت والطهاة .. والعتالين .. الفوعليه .. حيث أن الأستاذ في الجامعة يا دوب ياخذ في مصر أقل من كده بكثير ، مكفي بكسر الميم وكسر الفاء مع تشديد . غير الغلب وسوء المواصلات ... وغبار الطباشير ، الذي يصيب غالبية الأساتذة بالجيوب الأنفيـه والتهاب اللوز ، وبعض الأحيان بالعمش .. وغير ما يحدث لهم من كسر أرجلهم وكسر ايديهم حتى المرافق من الشعلقة على التخت ، والقفز عليها للامساك بالأشقياء من الطلبه الذين لا يفقهون ويفرون ، يقفزون على المقاعد والقمطرات فيطاردهم هـؤلاء الأساتذة الفقراء لأمانتهم في تأدية واجباتهم التربوية .. !

المغناطيس الأسود :

وعرفت حينئذٍ لماذا يفر الشغالون والشغالات ، والعمال والعاملات ، والكناسون والكناسات ، والسفرجية والسفرجيات ، من الكنانة إلى هذا البلد نافورة الذهب الأسود الزاخرة بالمال وسوء المآل .

وعندما تساءلت .. هل يجهل الليبيون الطهي .. فيأكلون الطعام نيئاً ، فلا يوجد

بهذه البلاد طهاة ؟ .. فأخبرت أن الليبي يموت ولا يعمل بيده .. أو تحت إمرة أحد ، فهو حر طليق كالعصفور الرمادي الذي قطع دابره الصينيون في بلادهم ، لأنه يأكل الحب ويغضب الرب .. وتذكرت الحديث الشريف «من أمسى كالا من عمل يده أصبح مغفوراً له» .. وقالت لي ست الحاجة «إن الست «عزة» جابت واحدة ليبية» لتنضيف المكاتب .. تيجي المأروصة في باطها الساعة ثمانية ، وتخرج ثمانية ونص بعد هفة والا هفتين بالمهفة .. واللي عاجبه .. والا يروح يشرب من البحر .. فحوقلت وتعوذت ولم أبسمل .. بل ترحمت .. على الذين أفنوا عمرهم في العمل والانشاء والتعمير ولعنت الجراد البشري الذي يستهلك ولا ينتج ...

كان الطعام منوعاً مصري الصفات فأخذت .. أتندر وأهزر .. والجميع في سرور وفكاهة .. وانسكب كأس السرور على المائدة ، بدلاً من أن يسيح كأس المدام .. لأنه حرام ، (وست الحاجة وما يصحش).. ونزلت على المائدة الفاكهة نزول المن والسلوى .. ولكني لاحظت أن ست الحاجة تفرق فيما بين أنواع الفاكهة ، الكمثرى والمنجة معاً في طبق ، والموز والتفاح معاً ... ولعل ذلك كان مصادفة غير أنني لم يسعني إلا أن أجد من هذا منفذاً للهزر ، لأن الكمثرى والمنجة انثتان ، والموز والتفاح ذكران اسماً .. وكانت ست الحاجة قد بينت في كلامها ضرورة الحشمة والتفرقة بين الذكور والاناث . وكانت تنظر إلى «عزة» بابتسامة وطرف خفي . عند ذكر الحشمة والحجاب وتصرف المسلمات ..

الحشمة والاحتشام

خلي الثرق مستور بين الاناث والذكور

رأيت من المناسب أن أقلب الموضوع هزراً ومجوناً .. وقلت إن من الاحتشام يلزم أن ترتدي الكمثرى والمنجة «مشرفيات». «والمشرفية رداء كالخيمة ، تختفي تحته الأنثى «الليبية» . أما الموز والتفاح فيفصّل لهما جبب وقفاطين ، لصعوبة إلباسهم السراويل ، ولما رأيت أن التندر في هذا الموضوع أثار الضحك وتبادل النكات ، توغلت فيه وعرجت على ما في العالم من فسق عظيم ، بين إناث الأشياء وذكورها .. وعلاقة « الملعقة بالفنجان » ... (وما يشابه ذلك كثير) . الأولى أنثى والثاني ذكر ، وكذلك « الصامولة والمسمار » ، أما « المفتاح والقفل » ، فكلاهما ذكر وعلاقتهما واضحة ، وهذا فسق في فسق .. ضحك الجميع حتى كادوا يستلقون على ظهورهم ، واقترحت أن أقدم للمسئولين اقتراحاً لتعديل جنس أسماء الأشياء في اللغة العربية الفصحى بحيث تتناسب مع طبيعة كل مسمى ... ثم تطرق الحديث عن «قاسم أمين» رحمه الله ، الذي نادى بالسفور . وأخذ الحديث يتجه اتجاهاً ثقافياً اشتركت فيه «عزة» بذكاء ، مما جعل «ست الحاجه» تتأفف وأخذت أصوات رزع وخبط أدوات المائدة التي تتناولها الطاهية «زينب» ترتفع .. فتداخلت بسرعة في الحديث وحكيت قصة حدثت لي في بلاد اليونان .

جبل أتوس ضد النساء محروس :

في بلاد اليونان جبل أسمه «أتوس» أو «مونت أتوس» على قمته دير للرهبان ، لا يسمحون لأي أنثى من أي نوع بالتواجد في هذا الجبل . وحدث أنني كنت وزوجتي في سفينة يونانية نسافر من «أثينا» الى «قوله» ورست السفينة الى سطح هذا الجبل .. وحاولت امرأة يونانية .. قوية الشكيمة .. عالية الصوت ، سريعة الحركة النزول عند هذا الجبل .. وحاول رجال السفينة ومن بها منع هذه المرأة بالحسنى من النزول الى هذا الجبل خوفاً مما عساه يحدث لها عندما تقلع السفينة . ولكنها قفزت من السفينة وسبحت الى الشاطئ .. وأقلعت السفينة وتركتها لمصيرها مع هؤلاء الرهبان ، الذين أخذوا ،

يطاردونها ويصيحون صياحاً عظيماً ، وفهمنا أن زوج هذه السيدة قد فرّ هرباً منها .. والتجأ الى هذا الدير . فعلمت زوجته هذه ، وتبعته والله أعلم ماذا كانت تنوي .. ولا أستبعد أن جريمة قتل قد ارتكبت في هذا الجبل ، حيث يمنع جميع الاناث من التواجد هناك ، ولا أدري كيف منع هؤلاء الرهبان إناث الطيور ، والحيوانات البرية المتوحشه ، والناموس والذباب والصراصير وغيرها من الهوام والواغش .. المكروبات .. ولو أنهم استبعدوا إناث القطط والكلاب ، وحاولوا استبعاد – إناث الأرانب والفئران فلم يتمكنوا .. ولا تزال إناث كثير من مخلوقات تمرح وتعيش بينهم بالرغم من هذا الأمر العجيب .

السّيِسْتَه «النوم بعد الغداء » (كدة عيني عينك من غير خشى)

توجهنا بعد الغداء ، كل الى منامته لاستراحة بعد الغداء بعد أن شكرت «ست الحاجة » التي أحبتني جداً وأظهرت امتنانها لما سببته من مزح وضحك .. وتوجه «شكري وعزة » نحو شقة «شكري » وتبعتها نظرات «ست الحاجة » وحملقات «زينب » وتمتمتها التي لم أسمعها .. ولم أحاول مقابلة نظراتهما .. لعلمي أنها كانتا تراقبان «عزة » ولا بد رأوها الليلة الماضية عندما دخلت أو خرجت من عندي .

الفصل العاشر

الباحثون عن الذهب

من الرمضاء للنار

« باكوس » إله الخمر المنجوس :

قضينا الأمسية في مجال الأعمال المكتبية والمالية مع «شكري» وبعض رجال الأعمال ومديري المصارف .. وكنت ملماً بغالب المواضيع ، ولم يكن هناك ما يريب .. وقضينا القسط الأول من الليل بشقة «شكري» مع رجلين من رجال المصارف في «ليبيا» وفاض الويسكي وكذلك «المزات» .. والمعروف طبعاً أن شرب المشروبات الروحية ممنوع بأمر الحكومة ... حيث لا يصرح بشرب غير الماء (أ يد٫) ، ومستخلصاتها ، ومغلياتها كالقرفة .. واليانسون .. والجنزبيل والحلبة .. الخ والقهوة والشاي .. وغير ذلك .. أما « الوَسَايِك » و « الكنايك » و « العراقي » و « النبايذ » و « البواير » و « البراند » أي « البرانديات » وغيرها من سوائل « باكوس » إلٰـه الخمر ... الذي يشرب « نكتار » ويأكل « أمبروزيا » مع عائلته الأولمبيين « .. أفروديت » و « أرتميس » .. و « زيوس » .. فممنوعة منعاً باتاً .. إلا خفية .

الفرار من الأخطار :

بعد منتصف الليل .. اعتذر الضيوف ، ونظرت «عزة» إليَّ نظرة ذات معنى ، فرددت طرفي .. وخرجت مع الضيوف وانتهزت الفرصة . ودخلت غرفتي في شقة « عزة » وأخذت حقيبتي الصغيرة التي كنت أعددتها بعد الظهر ، وخرجت مع الضيوف .. ولم تنتبه لذلك «عزة » لظنها أنني لا زلت في شقتها .

ومـا انطلقت السيارة بنا ، حتى طلبت من مرافقي أن يأخذني الى أي فندق مناسب ، لأني لم أحجز مكاناً في أي فندق .. ولم يكن هربي هذا .. فراراً من «عزة» التي تغلغل جمالها في نفسي .. بل فراراً من نفسي ومن «ست الحاجة» ومن «زينب» ومن الفضيحة وما عسى أن يجره استهتار «عزة» وما خطر على بالي من أن يكون فعل « عزة » هذا مكيدة من مكائدها للنيل من «شكري» أو لاستقطابي الى ناحيتها ...

ففضلت من الغنيمة الإياب .. ومع أن خيالي وكياني كانا مليئان بهذه «الأفروديت» الأرضية . ولكن خبرتي ، وتجربتي ، وحرصي على سمعتي ، دفعاني لتحمل هذا الجوى .

ولا أنكر أثر خيال زوجتي .. ووفائي وإخلاصي لـ «شكري» وبقية باقية من العفة كانت جميعاً دافعاً صغيراً لا يتناسب مع خطورة ما ذكرته أولاً .. وما أنا الا بشر ... لا يمكن للفضيلة أن تغمره من قمة رأسه لأخمص قدميه ... ولا أدري ماذا يكون موقفي إذا لم تكن هذه المخاطر موجودة .. أو كنت في غير هذه الوحدة أو كنت بالقرب من عائلتي .

سوء الاستقبال يدعو لبذيء المقال :

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل .. قابلني العامل المنوب وأخذ ينظر إليّ فاحصاً .. وكنت في حالة لا تسر الخاطر ، ملابسي ليست في حالة مرضية وشعري هايش غير مصفف ، وعيناي حمراوان من الجهد العاطفي والجسدي والعقلي الذي بذلته في المقارنة بين الفراش ذي العبير ، والترحاب والحب ، والفندق ووحدته ، وبين وجه «عزة» وجسدها الغض البض ، وأنوثتها الطاغية ، .. وغرامها الملتهب ، والوحدة التي قاتلتني طوال الأشهر الماضية .. والعراك النفسي لأخذ القرار .. بالفرار .

وعندما تلفت حولي « لعب الفأر في عبي جداً » .. تحققت من أن هذا الفندق الذي يعتبر فندقاً ممتازاً بليبيا ما هو إلا « خان » شكله وهيئة مدخله تماثل إلى حدٍ ما الفنادق الأوربية . إلا أن بأوجه المستقبلين عبوس فارقته الابتسامة من زمن بعيد ، وهيئ لي أن لسان حالهم يقول تقدم يا حثالة البشرية ، وتمتع بجنات النعيم التي أعددناها في هذا الفندق ...

بعد أن خطف الموظف جواز السفر من يدي واطلع عليه .. حفظه عنده .. وبنظرة منه شعرت كأنه يقول «حاضبطك يا جاسوس وأعرف منين جبت الجواز المزور ده .. » ثم أشار بيده إشارة ملك يدعو شحاذاً الى المبيت في قصره مع الخدم ، اشارة الى المصاعد وكانت أربعة مصاعد .. إذا ركبت في بناية في باب الشعرية أو المجاورين أو حوش بردق – ضج الآهلون مس سوء منظرها ، ومن ضيقها وخشخشة محركاتها وخيانة فراملها ..

تجاهلت حتى ظن أنني جاهل

أعطيت مفتاح باب الغرفة .. فاذا به مفتاح صغير يشبه مفاتيح الحقائب ، قزم ، معلق في لوحة من اللدائن «بلاستيك» بحجم الفولسكاب ، كتب عليها الدور الرابع

ورقم (٦٤٧) .. صعدت إلى الدور الـرابع . أبحث دون جدوى على رقم الغرفة . ولما لم أعثر عليها . نزلت ثانية ، فاذا بالشاب الأسمر العبوس .. يؤنبني لجهلي نظام الفنادق .. وكأنه يقول «يا بني آدم هما في مصر ما علموكش نظام اللوكاندات الفاخرة أنت منين يا بجم ».. ولما تلطفت معه فوق طاقتي ، وأريته اللوح الكبير ، وعليه بالخط الثلث كلمة الدور الرابع .. قال كيف أنك لا تعرف أن هذا لا معنى له .. اصعد يا أخي الى الدور السادس .. وكان يتكلم بالعربية الفصحى ... كدت أتميز غيظاً .. وقد كنت علمت مقدماً أن أخواننا الليبيين يتحرشون بنا فاذا، قبلنا التحرش كان نصيبنا الشرطة وربما تهم لا أنزل الله بها من سلطان . فقلت في سري «والكاظمين للغيظ » وصعدت .. عثرت على الغرفة بعد بحث طويل لعدم تنظيم تتابع الأرقام ...

حور العين عزّاوات سمهريات :

وعندما فتحت الباب وولجته ، وجدتني في سرداب قصير .. بمدخل بالكاد سمح لجسدي دون انحشار .. فاذا بسرير مفرد عليه غطاء رمادي اللون أغبر .. يضيق الروح وعندما دخلت المكان الذي خصص للاستحمام . وجدت مرشاً «دشاً » وسلطانية مرحاض وحوض مطهرة . ولا أدري كيف أسمي هذا الحوض الاخير بغير مطهرة لأنه يستعمل في «حاجات أبيحه » .. وما كدت ألمس صنبوره حتى بخ في وجهي رشاشاً عظيماً من مياه لا تخلو من رائحة التطهير .. وعندما استعدت لأخرج وقع على رأسي قضيب معدني ثقيل . كان يحمل ستاراً من النيلون مهلهل التعليق .. لا يستر ولا يخفي المرش (أي الدّش) .

وبينما كنت أتخلص من هذا القضيب ، التف حول عنقي منشاف (بشكير) غير ذي وبر .. وما تخلصت من هذه البلايا ، حتى انزلقت قدمي على قطعة من مشمع أرضية وكدت أقع على مؤخرتي .. غير أنني تشبثت بعلاقة المناشف . فانخلعت في يدي وانخبط رأسي في حافة الباب .. غلى الدم في عروقي وكدت أصيح .. وأصرخ وأعمل هليلة الا أني تصورت الكاظمين للغيظ .. ومألهم جنات النعيم .. وتخيلت حور العين اللائي هن عندي في هذه اللحظة عزاوات سمهريات ساحرات .. فذهب الغيظ عني .. خلعت ملابسي واندسست في الفراش الذي يشبه الأريكه التي تصلح للجلوس لا للنوم وغالبت السهاد ، وغالبني ولكنه غلبني وبقيت مستيقظاً وخيال «عزة » لا يفارقني . ودار في ذهني :

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت السهاد
كي أستريح وتنطفي نار تاجج في الفؤاد
وترحمت على « ديك الجن »

الحجرة الطاردة محتوياتها غادرة :

وفي الساعة السادسة .. وكأن الليلة كانت دهراً .. حاولت أن أنام ولكن هيهات .. ولما كنت قد نويت الا أقرب الصنابير أو الأحواض أو المناشف حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه ، من شبيهات حوادث الأمس .. ارتديت ملابسي .. وجمعت حاجياتي التي كنت أحضرتها من المنزل ، لأني تركت الباقي في غرفة عزة هناك ونويت أن أطلبها في الصباح ، خرجت أبحث عن مكان أقضي فيه وقتي . حتى يطلع النهار بعيداً عن هذه الغرفة الموحشة .

خوفي من انزلاق غطروفي :

وبينما أنا أدور وألف في طرقات وسراديب وردهات ومشايات هذا الفندق ، رأيت لافتة عليها الطريق إلى جنينة السطح .. وهو درج عليه مشاية سجاد . كالحة اللون معوجة الوضع غير مثبتة . ويخشى على من يطؤها . أن ينزلق وتكسر ترقوته . ويكسر . عصعوصة ظهره ، أو يحدث عنده انزلاق غطروفي . فاستندت «بترابزين» السلم «والترابزين» إن كنت جاهله هو السور الذي يحمي الصاعدين أو الهابطين من السقوط في بير السلم فيموتون .

في السطح حديقة مهيأة لحريقة :

صعدت الى هذه الجنينة متوقعاً خيراً .. ويا سوء ما رأيت .. رأيت أكداساً من الكراسي المهشمة . موضوعاً بعضها فوق بعض كأنها أكوام من الحطب ، معدة لحريق .. بين هذه الأكداس كثير من الجرادل والبراميل تطفو جميعاً في بركة من الماء الآسن ذي الرائحه النفاذة .. كأن برميلاً من الخل انسكب عليها .

عن الذهب باحثون لكرامتهم بائعون :

خرجت مسرعاً خوفاً مما قد يلحقني من هذا المكان .. إذا أمضيت فيه وقتاً ما ... وعندما وصلت الى الدور الأرضي ... بحثت عن المطعم .. وبعد طواف وتجوال عثرت صدفة على المطعم ، وهو أقرب في الشبه لمطاعم الفول والفلافل ، إلا أنه مكتوب عليه

كلمة كونتننتال .. رأيت جمعاً من الموائد مغطاة بأغطيه مبقعه مكرمشه .. جلس حولها أنواع من البشرية غير متجانسه ، تتراوح بين الجنسيات الأوربية والإفريقية والآسيوية .. والكثرة منهم يشبهون الهاربين من السجون .. أو الفارين من وجه العدالة أو المتسولين الجوعة طريدي الانسانيه .. أوجه كالحة .. وأعين زائغة .. ذكرتني بالشخصيات التي تمثل أدوار الباحثين عن الذهب «الجولدرش» في روايات السينما ...

ويطوف عليهم فتيان كالكناغر – بأكواب مليئة بالشاهي والعصائر :

الواضح في محيا كل من رأيت لهفة .. أو زيفة أو يأسة أو ألمة . أو تفكيرة ولم أر ابتسامة أو بشراً قط كأن الجميع مسوقون الى ما لا تحمد عقباه . ويقفز في الفرجات التي تتخلل هذا الحشد من الناس .. فتية بملابس فتيان المطاعم الأوربية .. الا ان هذه الملابس لا تتلاءم مع أجسادهم .. فمنها الضيق الذي يبرز معالم مؤخرة الجسد ومنها الواسع الفضفاض الذي يجر أذياله على الأرض أو تصل السترة «الجاكتة» الى ما تحت الركبة . ومنها ما هو مقطوع الزراير . والكل بلا استثناء اختفى لونها الأبيض تحت بقع منوعة ، مما سكب عليها من شاي أو قهوة وعصائر البرتقال والقوطة «الطماطم» .. ما تبقى أثر مسح الأكف أو الأنوف بها وهذه الملابس لا تدخل جوف المغاسل ولا تلامس الصابون ولا الماء وهم يقفزون «كالكناغر» يحملون الأباريق المليئة بالمغليات والعصائر ، وبعضهم يحمل أكواماً عظيمة من الخبز ، توضع على الموائد .. فتصبح هذه الموائد كأنها نضد «عياش» أي بائع خبز أو كأنها «مشنة» والمشنة سلة يحتفظ فيها الريفيون بخبزهم . وعلى كل مائدة طبق أو طبيق من الزجاج .. أغبش مليء بسائل لزج ليفي القوام ، بني اللون مشرب بحمرة «زنجفرية» .. وبالسؤال أعلمنا أنها ما يسمى يابس بمعنى «مربى» ووعاء مكور كسلطانية الشوربة بمصر ، مليء بدقيق أبيض ناعم عند فحصه اتضح أنه بديل للسكر .

التهديد والوعيد لغة فتى الفندق الجديد :

جاء من يقوم بوظيفة مقدم فتية المطعم (الميتر – دي – أوتيل) فإذا به قزم أزعر ، أغبر ، لون بشرته فيما بين الرمادي والأزرق والأسود بها بقع بيضاء كالحة .. قبيح المحيا .. سترته البيضاء صارت بنية .. ومعه دفتر كأنه مسجل كبير يكتب فيه الطلبات .

ولهذا السيد لهجة أمر ، وتهديد .. يهيأ للجالس أن هذا «الجعبور» سوف يناوله واحدة على أم رأسه .. بكرسي أو بطبق أو بسلطانية .. أو بقبضة يده المجلحفة .

الشاهي الباهي

الشاي والقهوة وكلمة «باهي» :

كان يجالسني في مواجهتي شاب أشقر أوربي . بلحية «سكسوكة» أي صغيرة تغطي طرف ذقنه ، جميلة لا بأس بلونها أخذ ينظر الي مبتسماً يدعوني لمحادثته ..

وعرفت أنه حضر للسياحة .. وهو من لوكسنبرج حضر إلى شمال إفريقيا لأول مرة وبينا نتحادث دهمنا المقدم هذا .. وأمرنا بجفاف أن نوضح ما نطلب ، ولما قلت له شاي .. صرخ في وجهي «شاهي» وهنا خشيت إن أظهرت أي انفعال أطبق هذا الوحش أظافره القذرة على عنقي ، وقلت بصوت منخفض جداً ، وبانكسار واضح كأني في سجن «قره ميدان» رحمه الله .. وطلبت «شاهي» ولم أطلب شيئاً آخر لجهلي أسماء المأكولات والمشروبات الليبية ..

فرد علي قائلاً «باهي» فحسبت أنه يطلب الثمن مقدماً وحاولت أن أطلع النقود .. فهب في وجهي .. وانصرف واتضح لي أن «باهي» هذه بمعنى «كويس أو حسن أو طيب» .

الزواج بالعافية علاجات لفسق شافية :

ولعل ما شعرت به .. وما أغضبني هو حرماني مما أحاطتني به «عزة» من عبير وجمال ورقة .. واعتيادي على فنادق «مدريد» وأردت أن أروح عن نفسي بالتندر والهزر .. فأنشبت أظافر الفكاهه في جليسي اللوكسنبرجي .

وبينا أرتشف الشاهي .. الذي لا يشبه الشاي بتاتاً فكأنه منقوع ورق شجرة الأرد وكلي غيظ .. أخذت أحادث جليسي ، وأفهمته أن هنا عادة «ليبية» أن ما خدش باله وبص ولو بصه سهواً الى «نتاية» .. معناها أنه يطلبها للزواج ... فلا يلبث حتى يرى رجل الشرطة يقبض عليه ويأخذه قسراً إلى مأذون الزواج .. وهذا لمنع الفسق المنتشر في أوربا وخصوصاً لوكسنبرج وجاراتها .

ويجد نفسه زوجاً لامرأة تكبره سناً ، وهي إحدى المطلقات التي تعج بهم البلاد

ولا مجال له في الرفض .. فاصفر وجهه جداً ، وقال ، إنه يفضل أن يحبس نفسه في غرفته .. ويسير تواً الى سفينته تخرجه من هذه المزوجة « بسكون الزاي وفتح الواو » . وتعجب لهذا الحال ولكنه أبدى ملاحظته أنه لم ير إناثاً مطلقاً منذ أن وصل البارحة .. فقلت « يا عبيط هوا الصياد بيورّي نفسه للحمام . والا للعصافير اللي بيصطادها فالنسوان مستخبية ورا الشجر وأركان الشوارع وورا الأكشاك .. لقنص الشبان الوسيمة اللي زيك » . ذعر الفتى كثيراً ، واصفر وجهه وأظن أن مصارينه بدأت تسيب وكاد يغشى عليه .

انسياب الشاهي على قرعة بشاروش ساهي :

وعندما أقبل (الميتر – دي – أوتيل) الأزعر ، الأعجر ، الأغبر ، طلب منه الفتى قهوة ... فقفز من أمامنا مستديراً .. فصدم فتى يحمل صينية عليها مغليات منوعة .. كادت تسقط من يد الفتى .. الا أن قليلاً من هذه السوائل تساقط على رأس رجل حليق «زلطه » أي بالموسى .. طويل الرقبه ، صغير العينين غائرهما فرنسي اللهجة .. فصاح في وجه الفتى صياحاً عظيماً ، لفت نظر هذا الحشد وسمعت همهمة وزمجرة . أخذت عينا الفرنسي طويل الرقبة كأنه بشروش أن تطق شراراً .. فتلفت يمنة ويسرى ، لعلي أرى نافذة أو باباً أقفز منه فراراً .. إذا تبادل الموجودون قذف الأواني الخزفي منها . الزجاجي والمعدني .. التي غالباً لم تغسل من أسابيع .. مقرحة مشطفة .. ولكن هيهات .. ولله الحمد .. قفز الفتى ومعه « الميتر » وما أن اختفيا هذان الألعبانان . حتى استأنفنا ارتشاف المغليات .. وكان هذا الشاهي الملعون له رائحة تتراوح فيما بين رائحة شوربة السمك والملوخية الحامضة .. وبدا لي كل شيء قاتماً .

انصرف اللوكسنبرجي لا تكاد ركبتاه تحملاه .. وخرجت أنا مهرولاً من هذا المكان المجهز بالمتاود (المتاود جمع متود ، وهو المكان الذي يوضع فيه التبن والفول للماشية . ولا يطلق على أمكنة طعام القطط والكلاب أو الطيور ولا حتى القردة) .

التعصبية للغه العربية :

ذهبت الى المستعلم .. أي نضد الاستعلام .. وغيرت نقوداً إلى دنانير ليبية وأردت أن أشتري صبغة يود وجلسرين ، لعلاج اللثة ، التي التهبت من نواعم الأكل والغذاء غير العادي .. اللحوم والبقول والخضروات التي تناولتها في أسبانيا بلاد الطعام السخي .. وعندما استفسرت من الرجل الذي يرعى المستعلم عن أجزخانة قريبة ..جحظت عيناه ، ولولا الملامـة لصفعني لقلة أدبي .. كيف أتكلم العربية الخوجاتي ألا تعلم أن اسم

المكان الذي تباع فيه العلاجات هو «صيدلية» يا راجل يا قليل الوطنية يا عدو الوحدة العربية يا مشجع الأجانب .. يا سكير ، أغرب من وجهي قبل أن أنادي الشرطة وأبلغهم عن جرائمك المتواليات ، ألست أنت الذي لم تعرف الفرق بين أرقام الغرف وأرقام الطوابق ، طبعاً قال كل هذا في سره ، ولكن يكاد المريب يقول خذوني .. الصب تفضحه عيونه .. فلماذا لا نفضح العلج المسيء حدجاته . هكذا عبرت وفاضت عيناه بالمعاني السابقة من بين أهداب منتوفة .. وانسان عين باهت اللون أجرب وبياض عين مصفر .. وجفون تكاد التراكوما تختم عليها بخاتمها الذي يجعلها محطاً للذباب الذي إذا ذُبّ آب ليجلس على عتب الأبواب .

الفصل الحادي عشر

ثرثرة

جـــــولـة

الزوجه الألمانية تتكلم بالعربية :

خرجت لا ألوي على شيء . وحمدت الله وشكرت فضله لافلاتي من كل هذه العقبات .. وكانت هذه أول مرة أرى الزقاق الذي يسمى شارع ، الذي يشرف عليه هذا الفندق ..

نظرت يمنة ويسرة .. فلم أتبين أي معالم لصيدلية .. وبينما أجول بناظري حولي ، سمعت من يناديني .. «يا حسن بيه يا حسن بيه .. يا أستاذ حسن » فالتفت ورأيت شاباً يقول «نورت طرابلس » .. شاب وسيم حلو الشمائل . مصري القسمات ، اتجه نحوي مسرعاً ، وعانقني وعرفني بنفسه ، فهو مهندس من أبنائي الذين يملؤن الأرض .. ولما قلت له إنني أبحث عن صيدلية ، وأخبرته بما حدث عن « الأجزخانة » ضحك جداً وقال : هذا قليل من كثير – إنك لن تخطو خطوة دون أن يدهشك أمر من الأمور .. ثم اصطحبني الى سيارته التي كانت على بعد خطوات .. اتجهت الى السيارة ، ورأيت فيها فتاة جميلة جداً .. ألمانية ، لها سمات الجرمان ، ولم يتلف جمالها أصباغ «التكنيكلور» المعتدل التباين .. وما أن دخلت السيارة حتى صافحتني قائلة « ازّيّك يا حسن بك .. أنا زوجة « أمين » تلميذك واحد محبيك » وكانت تتكلم العربية بطلاقه .. والعجيب أن الزوجات الألمانيات يتعلمن اللغة العربية بسرعة ، وينطقنها سليمة ، على العكس من الانجليزيات أو الفرنسيات . ومثل الألمانيات الروسيات ، والبولنديات فهن سريعات في التقاط الألفاظ العربية وتعلمها .

مقابر السيارات من المحيرات :

طافت بنا السيارة .. ليريني المهندس «أمين» «طرابلس » .. توالت علينا المناظر ، ولكن يظهر أن المناطق التي سهرنا فيها كانت الضواحي ، وليست قلب المدينة إذ هي شوارع قفراء ، على جانبيها منازل ذات طابق واحد ، ليست من نوع منازل المدن .

ثم خرج بنا الى الحقول . وهي بين جرداء وخضراء جداً . بها آلاف مؤلفة من السيارات القديمة . مكدسة بعضها فوق بعض أو متلاصق بعضها ببعض . ولا يزال عدد كبير منها في حالة جيدة جداً .. وبعضها هياكل سادئة . ولكن الغالبية إطاراتها كاملة وكذلك زجاجها . صالح للاستعمال .

هالني هذا الأمر .. وعند استفساري .. قيل لي إن هذه تسمى مقابر السيارات وأي سيارة بها مرض . ولو خفيف . يحكم عليها بالدفن بهذه المقابر .. فتبلى بالصدأ والتعرض للتقلبات الجوية .

عتاب على الغياب :

وعند رجوعنا من هذه الجولة ، مررنا بشارع كبير واسع جميل اسمه شارع «عمر المختار» فتذكرت أن صديقي «سالم مسلاتي» يقطن في هذا الشارع ، أمام معرض طرابلس الدولي وعندما وصلنا اليه استأذنت .. وسألت عنه فوجدته بالمنزل .. قابلني واستضافني ضيافة كريمة جداً .. وبعد أن أمضيت وقتاً هنيئاً ، تذكرنا فيه ذكريات .. اتصلت تليفونياً بالمكتب ، فاجابتني «عزة» ولأول مرة ثارت علي ثورة عارمة ، وقالت (انه لم يغمض لها جفن عندما لم تجدني .. ولماذا لم أخطرها بغيابي ؟) .. طيبت خاطرها وطلبت منها أن ترسل لي السيارة .. وسوف نتحادث في أمور كثيرة جداً ترضيها عندما نتقابل ..

الاستعباط والتجاهل

أرداف النسوة لها عند فتحي حظوة :

جلست بجوار السائق «فتحي» .. وهو فتى ليبي متعلم الى حد ما .. وأخذت أتندر معه كعادتي .. وأتجاهل .. وأستعبط : وساءلته عن بلاده الجميلة .. وعندما رأيت بعض السيدات الليبيات ، بفراشيّاتهن كالخيام المتحركة .. والفراشية عبارة عن ملاءة بحجم ملاءة السرير ، تلتف بها المرأة ، ولا تترك إلا شق عند عينيها لترى منه الطريق ..

استفسرت متجاهلاً « ما هذه الخيام المتحركة ؟ » .. ضحك «فتحي» وقال إنها ليست خياماً بل هي فراشيات ، تحت كل واحدة منها قمر ساطع .. والنساء تحت هذه الفراشيات يلبسن الملابس الحديثة الميني جيب . «ويتزين ويتجملن لبعولتهن فقط».. وعندما رأيت بعض النسوة اللاتي يلبسن الملابس الأوربية .. كاشفات عن وجوههن وغيرها . وسألته متجاهلاً .. متعابطاً .. ومن هؤلاء .. قال :

«انهن المصريات ، والشاميات والجزائريات واللبنانيات .. والمراكشيات ... والتونسيات .. وكذلك الأوربيات..» فقلت له (أرجوك أن تعرفني كيف تعـــرف جنسياتهن ؟) فقال (من حركات أردافهن .. فكل نساء من جنس معين ، لهن هزات ردف معينة فاللبنانية تهتز أردافها بوتيرة «رتم» ، والشاميه بغيره ، والمصرية تهتز أردافها بتراقص ورجات متوليات تفتن الناسك . أما الأوربيات فهن أخشاب مسندة ، وليس لأردافهن هزات أو ذبذبة..) فعجبت لهذه المواصفات ، وسألته (كيف تعلمت هذه الحكمة ؟) .. فقال (اننا ننظر الى الأسفل من المرأة قبل الأعلى ، لأن الأعلى غالباً علاماته المميزة مزيفة بالدهانات والأصباغ ، والنهود ساكنات مستكنات .) فاستعذت بالله من هذا الفسق والفجور .

صوت النسوة عورة تدعو الى الثورة :

أطلق «فتحي» جهاز الراديو ، وكان الشيخ عبد الصمد يقرأ ما يتيسر من آي الذكر الحكيم .. ثم تبع ذلك غناء للمطربة «شريفة فاضل» فتصنعت الذهول .. . وقلت له كيف تصرح لنفسك الكشف عن عورات النساء .. وأصواتهن عورة .. فقال

(عندك حق ولكن ما العمل .. وهذا الصوت النسائي جميل) .. ولما قلت له قد علمونا أن هذا مخالف للشرع ، وأنه يلزم أن تمنع هذه الأصوات من إفساد الناس .. ثم قلت (لقد سمعت أن بعض الحكومات الإسلامية ، جادة في منع هذا «الحرام » وقد كلفت المهندسين الأميريكيين باستنباط مصافٍ «فلاتر » توضع بخاتم الدولة على أجهزة الراديو والمسجلات .. فلا تدع أصوات النساء تخرج من مذياعاتها .. وتمر أو تفوت أصوات الرجال الخشنة المجحرشة فقط) .. فصاح منفعلاً (أعوذ بالله .. هل حقيقي ما تقول ؟ وإن الحكومة تنوي هذا الفعل القبيح ؟ وتضع هذه المصافي الصوتية على هذه الألكترونيات ؟) قلت (أي نعم .. ولقد سمعت أن المصانع الأسبانية تخرج هذه المصافي بالملايين ، لاستعمالها في بعض الدول العربية ومنها « ليبيا » قطعاً) .. فصاح (يا ترى ما الذي تريده منا الحكومة ؟ أتريد أن تقتلنا كمداً ، ورهبنة ..؟ لعنة الله) ،

ليس من الميسور منع الخمور :

وعرجت بعد ذلك إلى الخمر والميسر . وسألته ، ما أمرهما في هذه البلاد قال (إنهما ممنوعين ، ولكن الناس هنا ابتكروا وسيلة لصنع الخمور بالمنازل ، وهي أن يعصر العنب أو الزبيب ، ويوضع في إناء . وتضاف إليه قطعة من خميرة الخبز وبعد أيام يصير خمراً صافياً) . فقلت (لقد سمعت بهذا أيضاً والحكومات جادة أيضاً في استنباط وسائل علمية لخصي الزبيب وغيره ، فلا تستولد منها الخمور . يا أيها الفسقة الفجرة) .. فقال (يا سيدي .. ماذا يريدون أن يفعلوا بنا .. أيريدون لنا أن نعيش في ظلام القبور ؟..) فتصنعت الغضب وأخذت ألومه على استهتاره بأوامر الدين .. وقلت (ألا تذهبون إلى المساجد أيها المنافق ؟..) فقال (هذا شيء والنسوة والخمر شيء آخر ..) فذكرته بنار الجحيم وزبانية جهنم .. ثم قلت له (لا تتمثل بقول الشاعر الفاسق الذي قال :

دع المساجد للعباد تسكنها　　　واذهب بنا للعيون النجل تسقينا
ما قال ربك ويل للألى سكروا　　　بل قال ربك ويل للمصلينا ..

فاستعاذ بالله من هذا الشاعر ، وقال إن استيلاد السائل اللذيذ من الزبيب ليس حراماً ، لأنه ليس خمراً ، وأنه سيداوم على استيلاده مهما كان الأمر .

وعندئذ وصلنا الى المكتب .. وخرج «فتحي » منزعجاً ينوي أن يذهب لفقيه شرعي يستفتيه .

النهد المفعوص من الذهب المرصوص

اذا بليتم فاستتروا :

دخلت المكتب ، فلم أجد «شكري» وقابلتني «عزة» مبتسمة ، وتبادلنا التحية بهدوء ، وذلك أمام الموجودين . وقالت إن الدكتور «شكري» خرج لانهاء أعمال هامة في الوزارة .. وقادتني داخل المكتب وفاجأتني بقولها :

(ليه كده يا حسن تخرج تبات بره ؟.. أنت زعلان من حاجة ؟) قلت لها (اسمعي يا عزة أنا .مش ناقص وجع قلب .. أنت سحرتيني .. طول الليل امبارح ما نمتش ، بفكر فيكي ، ومش عايز أغرق فيكي زيادة عن كده .. وانتي ما بتعمليش حساب لحد .. عيني عينك كده .. «ست الحاجة» و «زينب» وحتى «يحيى» صبح عليا امبارح وقال «صبحية مباركه» .. ولازم خدتي بالك من حركات «زينب» وكلام «ست الحاجه» ما بقاش الا شكري ...) .

قالت (ما تجبش سيرة «شكري» — .. أنت عارف أنا وهوا عاملين زي القط والفار والعلاقة اللي بيني وبينه مقطوعه من زمان ، تعال أوريك كوم الأدوية اللي في الدولاب ورشتات الدكاتره .. دي غيرته عليّ .. خوف .. ده بيتمنى موتي النهار ده قبل بكره . أنا من يوم ما شفتك وعشنا مع بعض في اسبانيا افتكرت أنك حاتكون سندي وعوض اللي مات «الله يرحمه» .. فتذكرت بذلك قصة حبها العذري الذي حكتها لي .. وصديقي الذي مات .. محسوراً عليها ..

قلت لها (يا عزة أنا وقعت لشوشتي في غرامك بس .. ازاي ده يكون .. «شكري» وثق فيّ .. وعايز أقول لك إنه حكالي حكايته معاكي . أول امبارح لما خرجنا سوا .. ده بيحبك وبيموت فيكي ولا يقدرش يستغني عنك ..) .

فردت بعصبية «حبه الحب وغضب الرب .. الخاين الغدار ده لا منه ولا كفايه شره ده ما يقدرش يحب حد .. وأنا كنت بفتكرك راجل فاهم .. ده أنت باين أنك على نياتك .. » وكدت أقرب منها وأضمها الى صدري .. ولكن منعني احترامي للمكتب مكان العمل .. الذي طول حياتي أقدسه . شعرت بما يجول بخاطري .. وسبقتني خارجة تسير بخطوات فاتنة ، وتحمل جسدها بمهارة ورشاقة راقصات الباليه .

الثرثرة التي تسبق الشوشرة :

دخلت مكتب «يحيى» ثم استعرضت معه ما بيده من الأعمال الهندسية ، وناقشناها معاً بكل إخلاص وتعاون .. وبعد نحو ساعتين ، ونحن نرتشف القهوة ، تطرق الحديث نحو «شكري» ، ومنه الى «عزة» فلزمت الصمت واكتفيت بالايماء .. مستمعاً . وبكل حذق ومهارة في الحديث ، فهمت منه أن «عزة» أفعى حتودي «شكري» والمكتب في داهيه . ومش فاهم ليه «شكري» ساكت عليها ... وأشار من طرف خفي أن عفافها غير حصين ، وان كثيراً من أثرياء رجال الأعمال الليبيين حايموتوعليها .. يا ريت يتلم عليها واحد وتسيب «شكري» .. وكان ينظر الي مبتسماً ولسان حاله يقول «ما أنت كمان وقعت في شركها ».

وامرأته حمالة الذهب نهدها من الثقل سجد :

وبعد الغداء الذي طهته «زينب» وأعدته «ست الحاجه» ، جلست أغالب النعاس .. حتى طرق الباب علينا ضيوف ، رجل وزوجته .. وهو أحد شركاء المكتب .. وعلمت أن (عزة) كانت قد رجت الزوجة أن تحضر مرتديه الزي «الليبي» الحقيقي .. لأراه لأني مهتم بالأزياء لأجل فرقة رضا .

هلت علينا هذه السيدة الفاضلة ، وكأنها خيمة عظيمة من القماش المقوى بالنشاء أي الفراشية ، أو الملاية بالمصري ، وخرجت من تحتها في زي جميل مدندش من «التافيتا» الفضية اللون .. على رأسها تركيبة عظيمة من الحرير ملفلفة ومرصعة بذوق جميل تخرج منها أطراف تزيد من جمالها .. ويكسو ذراعيها رتل من الأساور الذهب — .. ويكسو صدرها .. والله دون مبالغة ، واجهة دكان صايغ .. تكاد تنحني من ثقل أكوام الذهب المرصص على صدرها .. سلاسل وحلقات وجنيهات ودلايات وكرادين « جمع كردان » حتى لم يبق سنتيمتر واحد دون تغطيته بطبقة أو أكثر من الذهب الابريز .. ولمحت بريقاً خاطفاً يتلألأ بين لحظة وأخرى .. فاذا بهذا الذهب مرصع بفصوص من الماس والجواهر الحمراء والخضراء والزرقاء والصفراء تغالب قوس قزح بكامل ألوانه .

الخبايا في الخفايا :

وعندما أراد « شكري » أن يصورها ، أبى زوجها إباء تاماً .. وقال (إن تصوير الزوجات بزينتهن .. معناه إبداء زينتهن لغير بعولتهن ، وهذا حرام قطعاً . ويكفي أنه

سمح لأصدقائه القليلين جداً ، بأن يروا زينتها لأنهم تعلموا في أوربا مثله و «عينهم مليانة » .. ثم قال (إن كان ولا بد ، هناك في طرابلس من الأجنبيات قليلات الحياء اللائي لا يمانعن في استعراض أجسادهن للمصورين .. حتى ولو كن عرايا ، ويمكن استعارة واحدة منهن لتصوير هذا الزي الفولكلوري الليبي فحزقتني النكتة ولم يمكنني الصبر على التندر والهزر .. وقلت (وكيف تطمئن على عدم نتشهن جزءا ولو قليلاً من هذا الكنز المتحرك ، ولربما يتمكن من إخفاء بعض القطع تحت أثدائهن أو غير ذلك من خفايا أجسادهن) .. فضحك الجميع وخصوصاً «عزة » .. وتساءلت (كيف تقبل الغاده الأوربية أن تضع هذه الأثقال على صدرها .. لأن ثقلها سوف يضغط على رمانتي صدرها فيفعصهما ولا يمكن وضع هذه «البترينه » أي شباك العرض هذا الا بعد خلع حمالات هاتين الرمانتين التي تسمى «الميدن فورم » – يعني «هيئة العذارى » – وبذلك تتعرض هذه الأعضاء الرجراجات للفعص ؟) .. وقر الرأي على أنه يتعذر استعارة أنثى خوجاية لهذا العمل .. واقترحت رجلاً .. «فتحي » السائق مثلاً .. ولكن «ست الحاجة » التي كادت تفطس من الضحك .. قالت « يا حسرة نفسي أشوف «فتحي » في الفراشيه .. » .

ما وراء الباب المفتوح أمر مفضوح :

وفي المساء حاولت «عزة » إقناعي بالبقاء .. وعدم الذهاب الى الفندق .. ودلك عندما قابلتني في شقتها .. قبلتها وقلت (اعقلي يا «عزة » الأيام بيننا ..) فقالت .. (أنا عايزه أروح مصر ، أنا قرفت من هنا .. وفي مصر يبقالي معاك كلام تاني أنت حتبقى عوض الي مات) . وانخرطت باكية .. وارتمت في أحضاني .. وأنا أكاد أموت ، من الخوف لأن الأبواب كانت مفتوحة ويمكن لأي شخص الدخول علينا ..

الســـبايـا

رجوع ريمة لعادتها القديمة :

اتصلت «عزة» بالفندق وحجزت لي شقه فاخرة فيه ، وعندما وصلت استقبلني رهط من موظفي الفندق لم أرهم قبل ذلك ، وقابلوني بحفاوة كبيرة ، واعتذر كبيرهم لي اعتذاراً كبيراً .. وأخذ يفسر لي أن كثيرين من حثالة الناس يحضرون ، ويعيثون في الفندق فساداً .. ولم يعرف عليك الفتى المنوب .. لحضورك دون أمتعه آخر الليل فظنك واحد من اياهم .. ولم يكف عن الاعتذار .. وقال لي حسن بيه فهمي بحاله .. ده شرف كبير .. فحوقلت وتعوذت مما سيعود عليّ من هذا ، وترجع ريمة لعادتها القديمة .. زي حالتي في «الايروبلدنج» «بمدريد» وأغرق في الرياء والنفخة الكذابة والزيف .. والتصنع .. والكلام الفارغ .

خيال في اليقظة والمنام :

استيقظت في الصباح المبكر .. وبدا اليوم مكفهراً .. قمت بمراسيم وطقوس الصباح .. الاستحمام وغيره . وارتداء الملابس ، وتصفيف الشعر ، ثم جلست لأكتب رسائلي لمصر .. ولم أتمكن أن أكتب سطراً واحداً ، لأني شعرت بما سيكون فيها من رياء .. . ولعنت اليوم الذي رأيت فيه «عزة» .. لأنني بت وخيالها وأريجها وصوتها تحتويني في منامي . وهاهي كذلك في يقظتي .. دخلت الفراش ثانية بملابسي .. وما لبثت أن استغرقت في نوم قلق تملأه أحلام غريبة .. واستيقظت على رنين جرس التليفون وكان السائق ينتظر بالسيارة الفارهة .. وكانت الساعة العاشرة صباحاً ..

السبايا حق للمنتصر

طلبت من فتحي السائق ، أن يأخذني لأشتري بعض لوازم الحلاقه والتزين ومنها «برليانتين» لأن شعري بعد أن حرم من المزين الاسباني ، الذي يعنى به .. هاش وصار كأنه هالة من الوبر حول رأسي ووجهي .. ولما كنت أخشى الحلاقين لخوفي من أن يعبثوا بفن «برتو» حلاقي الخاص في «ايردبلدنج» نويت ألا يلمسه أحد إلا «برتو» ،

عند رجوعي « مدريد » . . . آخذني « فتحى » إلى شارع مليء بالمتاجر والحوانيت الافرنجية . . أحدها يختص ببيع العطور والدهانات ومواد الزينة والتجميل .

رأيت بهذا المتجر أربع سيدات .. غير مقنعات أو محجبات ، احداهن تشتري « روج » أي خضاب الشفاه الأحمر ، والثانيه تشتري قلم حواجب لتزجيج حواجبها .. وبدأت التي اشترت الروج أو الخضاب الأحمر تتطلع في المرآة معجبة بعينيها .. وكان صاحب المتجر يحملق في وجوههن حملقة واضحة ، كحملقة الجياع في القصاع . اشتريت ما أريد في لحظة وجذبت «فتحي » خارجاً .. وسألته متجاهلاً كيف أن هاتيك النسوة ، يفعلن هذا ويبين زينتهن ومفاتنهن لغير بعولتهن .. وناديت بالويل والثبور وعظائم الأمور للفساد والفسق والفجور في « ليبيا » الذي لا يوجد مثله في بلاد مصر .. فقال (رويدك أي سيدي .. ما هن الا لبنانيات وجزائريات وهن هنا في حكم الجواري غير الأحرار .. والجواري لا عورة لهن ، وانهن في مستوى « السبايا » غير أننا لا نستعمل فيهن حق « السبي » حتى لا نسيء إلى علاقتنا مع دولهن) .

حوقلت وتعوذت من هذا الترشيد الذهني المريح ، الذي يستعمله الفسقة .. الفجرة، مبرور الرذائل ..

الفصل الثاني عشر

السراويل

مشاكل وأزمات

متاعب بين الرفاق والحبايب :

وصلنا الى المكتب ... وكنت أنتظر أن أرى «شكري» فإذا «بعزة» تأخذني فوراً لمكتبها وتقول لي أخبار سيئة ... وصلت «شكري» ، وهو في منتهى الاضطراب والانزعاج .. شعرت أن بالمكتب حركة غير عادية .. تليفونات برقيات .. كابلات .. ولمحت «شكري» لحظة .، فرأيته في حالة قلق يحاول أن يخفيه .. ولم أحب أن أزيد متاعبي وقلقي بالتدخل .. فانسحبت الى حجرة الاجتماعات ، وقضيت الصباح بينها وبين مكتب «عزة» التي كانت في شغل شاغل عن مشاكلها الخاصة ، وغارقة في العمل المكتبي تماماً ، شأن كل الأشخاص الذين يؤدون أعمالهم بأمانه وإخلاص .. ويفرقون بين مصلحة العمل ، وخصوصياتهم ، فزاد إعجابي بها .. وأفضت الي بين آونة عمل وأخرى أن في «بنغازي» متاعب عمالية ، وفي الوقت نفسه متاعب مالية ومصرفية ، وكذلك متاعب في العقود المبرمة مع «ليبيا» وكنت على علم بكثير منها .

رجل أعمال زميم الفعال :

هنا علمت أن ثمن النجاح في ميدان الأعمال الماليه والتجارية ، عال جداً .. هذا القلق الذي ينتاب أهل الأشغال المالية ، ورجال الأعمال والذي لا يفتأ يندس في حياتهم بين وقت وآخر .. «فشكري» مثلاً لا يستقر ، فيما بين بلاد الله خلق الله .. يرفل في الحرير ، ويطعم في أفخر المطاعم ، ويسكن أفخر الفنادق ، (ويبعزق الفلوس) يميناً ويساراً لا يهنأ حتى في خصوصياته مع زوجته وعشيقاته .

فهو دائم الأرجحة «والشعلقة» فيما بين التلكس ، والتليفون ، والبرقيات ،.. والشركات والمصارف ، والمصالح الرسمية ، والولائم المفتعلة ، والرشوة ، والمحلسه .. والمقامرة .. والمغامرة ، وأخيراً «عزة» .. «وفردوس» .. «وابنه» .. ، وزوجته الألمانيه .. ثم لا أعلم عن مشاكل أخرى ولعلها إجرامية .

فكأنه يسير على حبل مشدود بينه وبين السقوط في الهاوية قيد شعره ... لهذا يموت

رجال الأعمال الكبار ناقصين في العمر .. ولا يأكلون زيادة عن الناس ولا يتمتعون بالنوم مثل الناس ...

اشتدي يا أزمة تنفرجي :

لا أدري ، ما قرره «شكري » .. وتباعدت عن كل هذه المشاكل ، وانزويت في حجرة الاجتماعات ، شغلت نفسي بقراءة قصة من قصص « أجاثا كريستي » ... وبينما أنا مستغرق في القراءة شعرت . بيد تتلمس شعري ، وبأنفاس عطرة تهب علي .. فالتفت لأرى «عزة » وعلى فمها ابتسامه عذبه ، فاجأتني بقبلة على شفتي ، وقالت (اشتدي يا أزمة تنفرجي كل شيء على ما يرام .. وأنت معزوم على غدوة في كازينو عالبحر ، ياللا) ولا أدري ما الذي حدث ... غير أن تهلل وجه «عزة » وابتسامة «شكري » العريضه والعرومة كانت كلها دلائل على مرور العاصفة بسلام :.

العزول عدو الغزول :

جلست مع «شكري » و «عزة » في الكازينو ، ننتظر المدعوين ، الذين توافدوا وكانوا لفيفاً من علية القوم مدير مصرف من أكبر مصارف مصر ، وآخر مدير مصرف من أكبر مصارف ليبيا وواحد من كبار موظفي الدولة في «ليبيا » وأحد كبار رجال سفاراتنا .. كل يرافق زوجته ، اجتمعنا وكنت كالمعتاد المحور الذي يدور حوله الاجتماع .. وقد نثرت البهجة والسرور بالهزر .. وقص ما يضحك من ذكرياتي في سفرياتي مع فرقة رضا .. انصرفنا في النهاية .. وما أن وصلنا المنزل « أنا » و« شكري » و« عزة » حتى عاودت الكآبة « شكري » واستأذن في الذهاب إلى شقته ، واستأذنت في الذهاب إلى الفندق وما أن تركنا « شكري » حتى بدأت « عزة » تحاول استبقائي .. ولو أنني كنت أتحرق للجلوس منفرداً معها .. غير أن « يحيى » كان يطل علينا من فوق السلم ، وحياني .. فانصرفت ألعنه من كل قلبي .. لأني كنت أود أن أعرف تفاصيل ما جرى ، ولا بأس من قبلة أو حضنة .. تزيل الهم وتمحي الغم وتدخل السرور على القلب المقهور .

بين الألفاظ الغربية ومرادفاتها العربية :

دخلت حجرتي الساعة السابعة .. يا ويلتي .. إن نمت مبكراً .. فسوف أستيقظ في منتصف الليل .. وسيلازمني السهاد الملعون .. فنويت أن أخرج لأتجول حول الفندق وسوف لا أحاول الابتعاد ، حتى لا أضل الطريق ، وأسأل المارة .. فأتعرض لما لا يحمد عقباه .. بعد تجربتي عند أول استقبال لي في الفندق ... « والليبيون » جازاهم

الله كل خير .. متعصبون للغة العربية جداً .. ويريدون أن يتخلصوا بالذوق او بالعافية ولو حتى بضرب « الصرمة » من رطانة الأعاجم في لغتنا العربية الجميلة .. ومثال ذلك أسماء مختلف المصالح والوزارات والأجهزة ... فكلها عربي مبتكر غير أن بالألفاظ فجاجة ، وتنعدم فيها الرقة والجرس الحسن .. ولكني أعترف بجميلهم وأشكر الله حميتهم .

جولة في المتاجر

الافتراء على السكر من المنكر :

خرجت متجهاً نحو شارع متعامد على شارع الفندق.. يتعالى متصاعداً فسرت فيه .. ولم تمض دقيقتان ، حتى رأيت على جانبي الطريق حوانيت شرقية .. «بلدي » تماثل بالضبط حوانيت البقالين في شوارع وحارات القاهرة الوطنية الشعبية ... ولا تختلف عنها من ناحية التكدس والضيق وشكل وهيئة الباعة ، الا في كونها أكثر تكدساً وأضيق «وأنيل » .. دخلت أحدها لا تعرف على تصرفات البائعين ، ونوع البضاعة ومستوى الأسعار .. واشتريت «شاياً وكاكاو ولبن نستله » .. ناوياً إهدائها «لفتحي » ..

ولما سألت البائع عن السكر انطلق «كالبربند» أي الطبلة بالروسية.... قائلاً (إنه لا يبيع هذا الصنف من البضاعة سيئة الطالع .. الكاسدة) وقص علي قصصاً عن السكر .. واللعنةالتي تنصب على بياعينه – فأسرعت بالخروج ، خوفاً من أن يكون هذا الكلام مما يؤدي الى حديث تلزم له إجابات ، ربما يعتبرها هذا البائع قذفاً ، وتكون النتيجة ما لا تحمد عقباه .

تكدس البضائع سجية البائع :

خرجت مسرعاً ومررت بعدد آخر من الدكاكين البلدية .. وكلها تمتاز بالتكدس البضائعي ، التكومي ، الخرجي ، القففي .. المقطفي .. الزكائي والشوالى . والصُّرري .. وغير ذلك مما هو معتاد في الأرياف ، لغياب الصناديق المكعبة والعلب الهندسية المستوية الشكل .. غير أنه هنا وهناك محاولات للرص والترتيب ، الا أنها محاولات غشيمة عبيطة « بَرَوْ عتب » . فرأيت المعلبات من كافة الأنواع ، والصوابين والعطور ، العلب (البكتات) المذهبة المزركشة ، التي تحتوي الجوارب الفاخرة . والسرادين ، والنواجراهات ، وعلب الكافيار ، مخلوطة مع البصل ، والقوطة ولا بأس من برطمان طرشي بلدي ، مكشوف الغطاء ، أما المقشات والمماسح ، فلها مكان مفضل بين هذه الأكداس من المعلبات .. فحوقلت وتعوذت ، وخرجت من هذه «الدكانات » لا ألوي

على شيء . خوفاً من انهيار كوم أو تل من هذه الأكوام التي لا بد لها أن تتساقط إذا كانت مراكز الثقل وقوانين الجاذبية ، التي درسناها علمياً صحيحة .. وكذلك ما عساه يتولد من جهود وضغوط إثر التراكم والتكاوم والتتالل والتخالط هذا غير عزوم الالتواء ، وعزوم اللي ، وعزوم الانحناء ، وهذه كلها ان كنت جاهلها هي عناصر علم الميكانيكا الذي يكثر الرسوب فيه في البلاد العربية ..

النسوة والأطفال وغريب الأفعال :

توجهت الى نوع آخر من الحوانيت .. واقتربت من حانوت رأيته من بعيد ، وحسبته مخزناً للزكائب . فإذا هو متجر لفاخر الثياب .. تكدست فيه « البلوفرات » ، « والفراءات » ، والمعاطف والقمصان الافرنجي « النايلون » . في أكوام كأنها أكوام الغسيل الوسخ ينتظر الغسالة ..

بهذا المكان حشد من النسوة ، من المحجبات وغير المحجبات ، معهن أطفال يعيثون في المتجر فساداً .. بالصياح والجري وراء بعضهم البعض ، يلعبون «الاستغمايه» ولقد أجاب طفل منهم نداء الطبيعة ، وكان من غير لباس فساحت ، وتغلغلت وتسيبت في قنوات تحت الاراتك ، وتسرب قليل منها تحت أكوام القماش .. ويروح ويجيء بين هؤلاء جميعاً فتى قذر الملابس . لم يغسل وجهه من شهر على الأقل ، يحمل أكداساً من الملابس ، ينقلها من كومة لأخرى .. ولا أدري لهذا سبباً ، سقطت كومة من هذه الملابس على ما تركه الطفل .. فلم يبال الصبي ورفعها إلى الكوم الكبير واكتفى بدهكها .. وفرشها على ما لوثته ليخفي معالمها ، فلا تظهر ولو قليلاً .. وبهذا بسطها على هذه الملابس (وكانت صوفية فاخرة) . طبقة ووضعها لتترنخ أو تتخمر على مهلها في هذه الكومة .. فلم أتمالك إلا الحوقلة والتعوذة وقلت في سري لك في ذلك حكم ، تعطي (الحلق للي بلا ودان) .

عسيلات الثمرات تسيل على الخضروات :

خرجت من هذا المتجر .. المنجس .. منشر الميكروبات .. لاتفرج على خضري .. أي بائع خضر وفاكهة ملاصق له .. فاذا بأكوام الصناديق الكرتون الفارغة تسد المدخل والفواكه النادرة التي لا توجد في غالب بلاد الأرض قد أخرجت من صناديق عبواتها الفاخرة حيث لكل ثمرة مبيت حتى لا تتعطب أو تنفعص أو يخر عصيرها ، فيتجمع عليه النمل والذباب والصراصير ، وأولاد عمها الهوام الأخرى .. من المواغش .

أخرجها هذا الخضري الكريم ، ووضعها في أكوام فيما يشبه المشنات ، تخر عسيلاتها فتتلوث به الثمرات الأخرى .. فانزعجت وانزعرت ، وسرت نحو اليمين فاذا بتاجر يبيع الخرداوات كالصيني والجرادل والمقشات والمماسح والفرش .. ولا بأس من بعض المأكولات . فهالني ما رأيت معلبات المربى . وعلب السردين واللحوم والجبن مخلطة بعلب فتاك الصراصير ، والبرنيقات أي الورنيشات غير الأرز في كيس يجاور كيس «البياجون» وهو مبيد سام للحشرات . ولم أطق أن أستزيد من هذا الكرب .. ورجعت الى الفندق أفكر فيما آل اليه قومنا العرب .. وكيف أن أول ما يلزم أن نعلمه لأولادنا هو أبسط قواعد الحياة المدنيه .. التي يغيب معناها ومبناها والفائدة منها عن أذهان غالبية أهلنا .. فيا ويلتنا من جهلنا بقواعد التصفيف والتبويب وأصول تجميع وتناول ومعالجة الأشياء .

الأطباء وانا في لقاء هنا :

وصلت للفندق ، فقابلني صدفة على الباب سفير لنا كان صديقنا من باريس ، ومعه شاب .. عندما رآني اندفع نحوي هاشاً باشا .. أستاذي أستاذي .. وكان من طلبتي المهندسين الذين يعملون مع المهندس «ممتاز» أحد طلبتي الناجحين جداً ، ويعمل في التفتيش الهندسي العالمي .. وأخذ هذا الشاب يعدد مناقبي . وبعد أن تمتعت مع ابني هذا برحلة في الماضي معه ، بحديثه الطلي ، اتجهت لأصعد الى شقتي ، فاذا برهط من الناس ، يقف ليحييني ، وكانوا مجموعة من كبار أطبائنا .. «علي المفتي» «فايز منصور» وغيرهما من كبار الأطباء المصريين .. فبادلتهم التحية وكانوا جميعاً يسألون عن صحة «فريدة» التي كانت متوعكة في ذاك الوقت وقال الدكتور «علي المفتي» إنها زارته مرتين وهو يأمل خيراً في شفائها .

بين السروال واللباس سوء فهم والتباس :

صعدت الى غرفتي .. خلعت ملابسي هذه المرة لآوي الى فراشي ، وخيال «عزة» يحوم حولي .. فقررت أن أشغل نفسي بشيء ، حتى لا يستحوذ على خيالي طيف «عزة» ويحجب عني سوية الصواب ، وقمت بغسل القميص النايلون والفانلا «واللباس» أي السروال .

(نزهة فيلولوجية)

ما بين اللباس والسروال وطيب المقال :

السروال له قصة وتاريخ .. مدلوله يسمى «اللباس» في القاهرة وفي غيرها السروال أو السراويل ، وارتداؤه من التقاليد التي جاءت الى العرب من جيرانهم الفرس والأتراك .. ومعروف أن طبيعة العربي والبدوي بصورة خاصة . تختلف تمام الاختلاف عن طبيعة الفارسي ، أو التركي أو الرومي ، كل حسب بيئته التي يعيش فيها . فالعربي بيئته قاسية للحر القائظ فيها في معظم أشهر السنة ، أو عشيته في الصحراء .

لذا فهو يلبس الملابس الفضفاضة الواسعة .. كالجلابية والقميص والصديري والسترة والدميري والأخير يشبه الصديري .. والقلنسوة للرأس ، ان لم تكن عمامة والبردة وهي سترة واسعة ، والإزار وهو يشبه « الجونولة » أو «الجب » والوزرة وهي شبيهه بالإزار ولكنها أقصر منه .. وغير ذلك من أنواع الملابس .. وهي في هيئتها ملائمة للتغلب على مشاق الحياة اليومية .. فمثلاً وسيلة التنقل العربية الشائعة هي الناقه أو الجمل أما الجنود والمحاربون معظمهم مشاة سوى قلة من الخيالة لا يمكن القياس عليها

أما الفرس أو الأتراك أو الأكراد جيران العرب فبيئتهم قارصة البرودة لذا يلبسون السروال لأنه أكثر دفأً .. وسيلة النقل في بلادهم ، الدواب كالبغال والحمير .. وكل دابة تمتطى بسبل الرجلين على جانبيها يصعب على من يلبس الجلابية أن يمتطيها ، على العكس في حالة ركوب الجمل .. إذ يقرفص الممتطي فوق هامة ظهره ، وعندما شاهد العرب السروال أو اللباس عند جيرانهم ، قلدوهم وأخذوا منهم ذلك ضمن ما أخذوا من مظاهر حضارة جيرانهم . والمعروف أن الشيء المكتسب من شعب أجنبي ، لا يطبقه الناس كلهم دفعة واحدة .. بل يبدأ به بعضهم .. ثم يحذو حذوهم الآخرون لو شعروا بمنفعة . لذلك فإن العرب كانوا يتندرون على من لبس سروالاً تحت ملابسه ، فيقال عنه أنه ارتدى جراب الفسو والفسو الريح الذي يخرج من الانسان والعياذ بالله .. وما زالت هذه التسمية تطلق في كثير من أرجاء البادية العربية ، وحتى في بعض المدن ، كما وأن من يرتدي «البنطلون» في أرجاء متعددة من الوطن العربي

كالسعودية والامارات العربية يقول عنه مواطنو البلد إنه مشروح أي مقطوع الى نصفين .

وكلمة «سروال» لفظة فارسية أصلاً ، لها المعنى نفسه في لغة الأكراد والأتراك واللفظة مكونة من مقطعين «ژيرو» (الزاي منقوطة بثلاث نقط .. وهي حرف أعجمي صوته فيما بين الزاي والشين ولا وجود له في العربية يعني الأسفل) «وآل» تعني صاحب أو يخصه أو بالعامية المصرية «بتاع» ... بمعنى «الزيرو» يخصه ، وقد بدل حرف الزاي المنقوطه بثلاث نقط الى «سين» عند البعض فيقال «سروال» والى «شين» فيقال «شروال» وما يقال على السروال يقال عن البشطمال – فالبشطمال كلمة فارسية – تعني غطاء الظهر أو كسوة الظهر – غير أن هذا الاسم أصبح الآن اصطلاحاً للوزرة التي تلف حول العورة .. مثل «الجونوللا» واللفظ الفارسي يتكون من مقطعين الأول بشت بكسر الباء وهي باء مضخمه .. «وآل» ما قلناه سابقاً أي غطاء الظهر .. أو الكسوه الخاصة بالظهر . أو (بتاعة الظهر) .

وهكذا احتار الناس فيما بين «السروال» الفارسية ، واللباس العربية ، والأخير معناه كل ما يلبس يعني «الهدوم» كلها . ولعل شاعرية القاهريين قد رأت أن أهمية السروال وعلاقته بمناعم الجسد .. جعلته أهم ما في الملابس كلها من قطع وله أهميتها جميعاً .. لأن العري لا يتم الا بخلعه لهذا أطلقوا عليه اسم اللباس .. ولخلعه معان أخرى لا يصح أن تخطر على بال المهذب من الناس .. وعادة لا يصح رؤية مسماه منشوراً للتجفيف ، على حبال الشبابيك كما في حالة جارتي في القاهرة .. أمام نافذة غرفتي في الزمالك اذ أرى عدداً منه بألوان وأشكال توحي إلي ما لا تحمد عقباه . ويسميه الفرنجة «كيلوت» ويسميه الانجليز «نكر» (بكسر النون وفتح الكاف وسكون الراء) والمهذبون والمهذبات منهم يسمونه «أنديز» . وبعض الغلاة من المتزمتين يطلقون عليه «اللي ما يتسمى» .. أما القميص فصار «شميز» بالانجليزية وعند الفرنجة «شميزيته» أي القميص الصغير .. ويسمي الإنجليز البنطلون «فلانيل» والبنطلون كلمة اسبانية «والجوانتي» طليانية .. ويحيرني أن يسميه المعرب قفازاً وهو لا يقفز كما هو معروف وأفضل أن أسميه أنا الكفوف على وزن الشفوف .

وهكذا سرحت في هذه الحديقة الجميلة حديقة «الفيلولوجي» هوايتي المفضلة .. وبعد أن انتهت من نشر هذه الملبوسات بعد غسلها .. وبت أحلم بأني أكسو جسد عزة بالملابس التي أفصلها وأخيطها بيدي .. ولم يجدني شيئاً انغماسي في الفيلولوجي أي علم الكلمة .. بل انتهى المطاف الى «عزة» هذه الساحرة الفاتنة ..

الفصل الثالث عشر

جعمست في ليبيا

عجائب وغرائب

شكري يعرف من أين تؤكل الكتف :

في اليوم التالي ، انشغلت مع «شكري» و «يحيى» و «عزة» كثيراً في مجالات العمل ، ورسمت مع «شكري» خطط العمل في «مدريد» وكذلك علاقات المكتب باتحاد الصناعات «بمدريد» «سيركوبي» مع مجموعات «أفانجوا» «واراستاتا» و «فاجورا» غيرها وكنت بالنسبة لهذه الأعمال عارفاً التفاصيل إذ كلها عبارة عن تعاقد من الباطن لإنهاء أعمال إنشائية وهندسية لمصانع جديدة وعمليات مشابهة ، وكانت ضخمة أستحق على ما قمت فيها من أعمال أكثر مما أنفقه علي شكري لذلك ازداد شعوري بالاستقلال ، وأحسست أن «شكري» كان يستفيد مني فنياً وهندسياً . وفوق ذلك كان يستغل مركزي ، وسمعتي وتاريخي ، ثم بعد ذلك يورطني هو «وماريانو» في أعمال مريبة مثل حقائب سرية ، وأخيراً يزج بي في مشاكل خصوصية جنسية عاطفية غرامية غير شرعية .. وكنت أظن طول الوقت أن له فضلاً علي .. وشعرت لأول مرة بغضب نحوه .. ولعل هذه الأفكار أوهام ولدتها علاقتي «بعزة» التي استولت على لبي وانحرف ضميري بها . وأنا الرجل المجرب الناضج فيا ويلتي . .

وكان عندنا اليوم ضيف .. يعمل مع «شكري» ، وكان من تلاميذي ، فكاد يطير فرحاً عندما تقابلنا ، وكرر الصيغة التي أسمعها من كل مهندس تخرج على يدي .. مكرماً لي متذكراً تفاصيل استاذيتي عليه كان من الذين عاصروا سكناي بالكلية مع زوجتي ونديدة وفريدة . ذكرني بكلبنا (روفر) ونسناسنا (سعد) .. اللهم ارحمني من الغرور والاثرة . أظن أن المهندسين لن يزالوا بي حتى يدفنوني في غرور أعوذ بالله منهم .

تناولنا غداء «زينب» الدسم ، وأمضينا بعد الظهر في عمل مستمر مضن .. ولولا «عزة» وابتسامتها الحلوة ، والجن تونك .. اللي هو نص منكر بس .. لكنت طقّيت .. ولم نتبادل أنا و «عزة» سوى النظرات .

هز المياه الشوق ، فجرت من تحت الى فوق :

استيقظت في اليوم التالي الساعة التاسعة .. وحاولت أن أستعمل «الحمام» وهذا اللفظ خاطئ لغوياً فهو في رأيي يلزم أن يكون «المستحم» وهو أسم مكان من الفعل «استحم» .. أي طلب (الحمى) أي الاغتسال بالماء (الحامي) .. أما (الحمام) على وزن فعّال بتشديد العين فهو اسم يدل على صاحب مهنة كالنجار .. والحداد .. على ذلك الحمام ، هو من يكثر ويداوم الاستحمام ، وهكذا يكون «الحمام» هو من كانت صناعته الاستحمام وطلب الدفء والاغتسال بالماء الحامي أو الساخن ، ليزيل عنه الأوساخ والجلخ فهو ، إذن شتيمة قبيحة .. لأنه فيه استدامة وتكرار لعملية الاستحمام أي إزالة الأوساخ والجلخ الدائم .. والعياذ بالله .

ولم أستطع استعمال هذا المستحم لتساقط المياه من سقفه كأنها مطر .. فاستغثت بالخدم ... وعندما حضر جمع منهم وتعجبوا كثيراً من هذا الأمر العجيب .. وعادوا ثم رجعوا بجماعة من الفنيين ، الذين انطلقوا وأحضروا «سباكاً» يلبس عمامة كبيرة بيده مفتاح – صواميل عظيم القدر .. بسمل ثم استعاذ من الشيطان الرجيم ، ثم انصرف ورجع بشاب يلبس الملابس الأوربيـة ولكنها كانت «مشنكحة» عليه .. فجعل هذا يحك في فروة رأسه الملبدة حكاً شديداً . فبعدت عنه لخوفي من الجرب أو القمل .. ولم يلبث حتى أخذ يصيح بصوت جهوري قائلاً (إن هذا أمر يجب التحقيق فيه) .. وسألني كيف يمكن أن يتشعبط الانسان ويثقب المواسير التي في سقف هذا المستحم .. والتفت محملقاً في وجهي وقال إن شخصاً ما في أثناء الليل البهيم ، تشعلق وتشعبط وتشبث في شيء لا يعرفه ، ثم استحضر عدداً ومثاقيب وماكينات ، ثقب بها المواسير .. والخزانات .. وأخذ يرمقني بنظرات اتهام واضحات .. وحاولت أن أوضح أنه من المعقول أن يسأل من يشغل الغرفة العليا فوقي .. ولعله نسي صنبوراً من صنابير المياه مفتوحاً .. أو لعله دخل «البانيو» أي حوض الاستحمام أي «الميضة الخوجاتي» وهي مليانة ، ففاض الماء وكانت البالوعة مسدودة أو لعل المواسير قد تآكلت ، أو غير ذلك من الأسباب وهي أبسط الأسباب .. وأسهل من أن يتشعلق رجل ويلبد كالبرص في السقف ، ويأخذ في تثقيب المواسير .. ولكن هذا الرجل لم يتنازل عن رأيه وقال لو كان ساكن الغرفة العليا هو الجاني .. لصعد الماء إلى أعلى ولم يتساقط إلى أسفل .. فلقد تساقط في اتجاه الثقب الذي ثقبه المجرم الأثيم ، الذي لا بد أن الشرطة سوف تقبض عليه بعد أن أكتب تقريري الفني ثم انطلق يسير وراءه المجتمعون .

في المصعد محبوسون مع قردة وحيزبون (بكسر القاف وفتح الراء) :

لعب الفار في عبي .. وخفت أن يكون منطق الناس في هذه البلاد كمنطق هذا الفتى .. وأسرعت مبتعداً .. وأخذت أتصور أن في مثل هذا الفندق ، لا بد أن يحدث فيه دبيب ، أو غيره مما كان يحدث في خانات القرون الوسطى ، مما قرأته في كتاب ألف ليلة وليلة ، من غرائب الخانات والدبيب فيها .

وعندما اجتزت الممر .. ووصلت إلى مهبط المصاعد .. استحضرت واحداً منها ، حضر ووجدته فارغاً .. فدخلت فيه .. وفي أثناء هبوطه أوقف بالدور الثالث .. وفتح الباب ، فهجم عليه خمسة فتيان من فتية الفندق .. بينهم سيدة سميكة ، في حجم خرتيت ، يكاد صدرها يملأ زكيبة كبيرة .. وحشروا أنفسهم في المصعد .. وهبط المصعد حتى وصل الى القاع ، ورفض الباب الأتوماتي أن ينفتح فصاحت الأنثى عفواً هذه الذكرة صياحاً عظيماً طالبة الخروج .. وعبثاً حاول الفتية فتح الباب ، وإسكاتها ولكنها أخذت تخبط خبطاً عالياً متوالياً ممزوجاً بأصوات ، يهيأ لمن يسمعها أن في المصعد جريمة قتل ترتكب ، أو عذراء تغتصب . وبعد ساعة زمن ، كادت روحي تزهق من رائحة هذه المرأة وأذناي تصمَّان من صراخها المتوالي ، حضر ميكانيكي لا أظن يمت للميكانيكية بصلة ، وأخذ يدق الباب بالمطارق والأزاميل والأجنات . ولم أنبس طوال الوقت ببنت شفة ، خوفاً من أن اتهم بتخريب المصعد ، وأنا الذي كنت وحيداً فيه قبل أن يدخله هؤلاء الفتية . وبعد خبط ، ورزع ، ودق ، ونشر ، ونقر ، وقص .. وقعت درفة الباب الى الداخل على الفتية المحشورين داخل «الكابينة» فأصاب المرأة التي صوتت واستغاثت .. وبالجهد انبثقت من بين هؤلاء الناس لأرى جمعاً من النزلاء يتفرجون علينا كأننا قردة نخرج من أقفاص سيرك .

اعتذر لي كثيراً رئيس الفندق .. عندما أخبرته عما حدث في المستحم وعن منطق الرجل الذي رسم نفسه مهندساً .. فاستعاذ بالله .. وقال «نعمل ايه .. البلد بتاعتنا عايزة تعليم ووعي فني ، واحنا بنتكل على الله وعلى مصر .. لننشل هذا البلد من هوة الجهل .. .. وعلمت أن هذا الرجل ليبي درس بمصر واصبح مدين لها بالفضل .

التليفون ذو الورورة الغريبة المتكررة :

جلست أنتظر السيارة .. لتقلني الى المكتب .. ولما طال انتظاري أردت أن أستعمل التليفون .. أي الهاتف لأعلم سبب تأخر «فتحي » عن الحضور .

وهكذا دخلت في مشكلة استعمال التليفون .. وهو جهاز لا يفترق عن أجهزة مصر في شيء إلا أنه يور بالعكس فلا تعلم الفرق بين ور المشغول وور الجرس .. وما معاني هذه الوراور التي تتخالف .. فمنها الرفيع ، ومنها السميك ، ومنها المتقطع ، ومنها المستمر .. ولم أستطع أن أستعمله .. فاستعنت بشاب ليبي لطيف فحاول تعليمي استعماله ، فلم أفهم منه شيئاً ، فارتعبت جداً خوفاً من أن أكون قد تجهلت وتغبيت ، ونقص الذكاء والتفهم مني .. ولما عجزت عن الاتصال استأجرت تاكسي واتجهت به الى المكتب .

الحية والعقرب والترانتلا :

أوصلني التاكسي إلى المكتب ، فوجدت « عزة » تكاد تنفجر من الغيظ ، والغضب باد في كل حركة من حركاتها .. ولكنها ابتسمت برقة في وجهي ، وأشاحت بوجهها عني .. ففضلت أن أبتعد عن هذا الجو ، الذي لا أعلم سبباً لاكفهراره ... ودخلت على «شكري » فوجدته منكباً على أوراق يتفحصها .. وبعد تحية الصباح قام وأغلق الباب علينا وقال («عزة » راح تجنني .. ليه يا حسن بلك ما انتش قاعد معانا هنا .. دا أنت منعت بلاوي كثير عني الأيام اللي قعدناها مع بعض ..) وبعد برهة صمت .. قلت له (قوللي الحقيقة : هل انت بتحب « عزة » وهي بتحبك ؟) فانتفض كأن ثعباناً عضه ونظر إليّ نظرة الفاحص .. وقاللي (أبداً .. ده كل الحكاية أنا عايز أخلص منها بأقل الخسائر .. دي يمكنها تخرب بيتي ده أنا بكرهها من عمايلها .. أنا كنت فاكر أني بحبها ، هي لا تحب ولا تتحب .. دي حيه .. عقربة ترانتلا ..) ثم قال .. (النهار ده الصبح لمت عفشها وعايزة تسيب البيت) قلت (حاتروح فين ؟) قال (ألف واحد ابن قحـ... يأخذها ... في واحد بيحرجم عليها .. لو راحتله عليّ السلام ..) .

فسألته (ما الذي في خاطره نحوها .. وما الذي ينوي أن يفعله) قال لي (إنه مستعد أن يهيىء لها شقة في مصر . فاخرة ، باسمها ويشتري لها سيارة .. ويعطيها مبلغاً لا بأس به .. على شرط أن تتركه وشأنه ، ولا تحاول أن تؤذيه .. ولكن كيف يكون ذلك ؟ وكل أسرار أعمالي عندها وأوراق ومستندات توديني في داهيه .. وتصر هي على الزواج مني) .. صمت برهه ثم قال لي (إيه رأيك ؟) فقلت له (سيبني أفكر شويه) . خفت أن تكون هذه مكيدة ليعرف مني مدى علاقتي بها .. (نتكلم في الموضوع بكره .. سأحاول اقناعها بعدم ترك المنزل) . وخرجت لأقابلها .. وعرفت أن «شكري » و «عزة » تشاجرا في أثناء الليل ولم يتفقا .. فهددته بالخروج من المنزل ..

لما أشوف آخرتها معاه :

جلست مع «عزة» التي كانت قد أغلقت مكتبها على نفسها ، وأخذت تبكي .. فكفكفت دموعها .. وقلت لها («شكري» قاللي كلام عليكي كثير يهمك .. عايز أقولو لك .. بس بعد ما تهدي شوية .. علشان خاطري بلاش تسيبي البيت علشان خاطري) .. فقالت (طيب يا حسن .. لما أشوف آخرتها معاه ..) وكنت أريد أن أخرج بالسيارة لأتسوق .. فنادت «فتحي» وخرجت أنا معه بالسيارة .. وتركتها .

خفايا الأمور وراء العطور

بائعة البرفان ذات القد الفتان :

أخذني فتحي الى الشارع الرئيسي .. الذي فيه المتاجر الأوروبية التي لا تختلف أبداً عن المتاجر في شارع سليمان باشا وشارع عماد الدين . وكنت أود أن أشتري قمصان نايلون ، حتى يمكنني تغييرها دون كيّها ، وكان الشارع مليئاً بمحلات تستعرض بضائع جميلة ، دخلت متجر عطور ، البائعة فيه فتاة جميلة جداً ، وفي الغالب كانت مصرية لأن الدم حن .. وسألتها عن «برفان» جيد وقلت إنها لزوجتي الجميلة جداً .. فصاح «فتحي» قائلاً حاسي ده لأم فريده فهمي «وده أبوها» فتهلل وجهها ودهشت وبشت ، وأخذت تتراقص وتعرض علي أنواعاً أنا جاهل فيها جداً .. وقلت لها «اختاري لي أغلاها» واختارت برفان اسمه «فام» بعد أن حذرتها من الروائح الشرقية اللي ماليه مصر «فضحكت وقالت إن دي آخر موضه» .. والواقع الحقيقي أن كل عطر أو برفان لـه شخصية . يجب أن تتوافق مع شخصية المرأة . ولا يصح أن تستعمل أي عطر ما ، بل عليها أن تبحث عما يناسب لونها وهيئتها ورائحة جلدها .. ولكني أردت كالعادة أن أتندر .

الجنس في العطور سر مستور :

ثم قلت لها أريد برفان رجالي يتناسب مع هيئتي .. فضحكت وقالت (حا اختارك حاجة تمام ، تخليك بمب ، ويرجعلك شبابك مع الستات) دهشت لجرأتها في مثل هذا الموضوع الجنسي ..

وهنا زجرتها زجرة لطيفة ببسمة .. ولم أقل لها طبعاً يا قليلة الحياء ، يا مزبلحة ولكني كدت أقول لها «خللي مرجعات الشباب لابيكي ولاخيكي ولابن عمك ولخطيبك أو لزوجك يا رفيقة الضعفاء .. يا عشيقة أشباه الرجال ولا رجال .. يااللي واخده على شباب الأيام دي يا جاهله يا ماهله» . وكانت في أثناء تأملي فيها وترديد ما ذكرت في ذهني

تنظر إلي وتتفحصني من خلال أهدابها الطوال «ولعلها رموش مزيفة» وجفونها المجملة «بالملاشيت» .. نظرات تخر أنوثة .. ودعوة الى ما لا يحمد عقباه .

ألا ليت الشباب يعـــود يـومـــاً فاخبره بمـا امتـاز بـه المشيب

ولست أدري لماذا عندما كسا البياض هامتي ، وخضب الشيب شاربي .. وتجعد أديم جبيني وهدأ بريق عيني .. ونعم هدير صوتي .. وقلت سرعة حركاتي وزادت تأملاتي .. وعمقت أفكاري .. ونضجت مشاعري .. وترهف حسي .. أحس كأن الإناث صغاراً وكباراً يكدن يلتهمنني التهاماً .. ولا أنكر أنني كنت في صباي وشبابي أتهم بالوسامة وكنت مثالاً للشباب الرياضي .. ولكني ما كنت أحظى بعشر معشار ما أحظى به الآن من لفتات الإناث .. في صباي كان تخيري وإعجابي بالجمال غير دقيق والآن أدقق وأحقق ولا يعجبني الا الجميل حقاً ..

وأحضرت الفتاة لي برفان أو كلونيا لا أعرف عنها شيئاً وقالت (دي عظيمة خالص) فقلت (والله وبالله وتالله لو لم تعجب فريدة لأزعل منك ..) وانصرفت مع « فتحي » لا ألوي على شيء لئلا تجرنا هـذه الفتاة المداعبة إلى ما لا تحمد عقباه . وعرجت على متجر يبيع المسجلات واشتريت ما أرغب وكذلك قمصاناً لا تحتـاج إلى كي أو تسوية بعد الغسيل وتسمى «درب دراي» (بكسر الدال في الكلمة الأولى وكسر الدال وفتح الراء في الثانية) .

سهرة ساهرة بالحكايات عامرة :

عندما رجعت الى المكتب أخبرتني «عزة» (أن عندنا سهرة في شقة «شكري» عملها علشان خاطرك لأن بعض الناس عايزين يقعدوا معاك ، وأنا علشان خاطر كده ما سبتش البيت علشان خاطر عيونك يا نور عنيه من جوا) . (الله .. الله .. يا ست «عزة» يا خوفي من الكلام ده «قلت هذا في سري طبعا») .

في تمام الساعة التاسعة والنصف ، توافد المدعوون من رجال الأعمـال والمصـارف والسفارات . وتعارفنا ، وكانت المائدة قد أعدها مطعم من المطاعم الكبيرة «بطرابلس» على أحسن ما يكون .

الجنس والرجولة أمر في غاية الخطورة :

تبادلنا أطراف الحديث .. الذي بدأ بأني خرجت أصلاً لشراء قمصان فرجعت

وقد اشتريت عطوراً «برفاناً» . ودار الكلام طبعاً حول ما دار بيني وبين بائعة البارفان ، فاتضح أن جميع من في «طرابلس» يعرفون هذه الفتاة .. ويتعللون بشراء البرفانات لرؤية عينيها .. والتمتع بالحديث اليها .. وأن حديثها دائماً «حراق» مثير .. فبدأت أحكي قصتها معي ، وكيف أنها تستحق أن «يندب في عينها ميت رصاصة» فانها على صغر سنها تعرف الروائح التي تعالج الهبوط الجنسي .. وعرجنا في هذا الزقاق من الكلام الملوث برائحة الجنس والشهوة . وكانت كلها قصص ونوادر حول عجز الرجولة .. وأدويته وعلاجاته ، وكيف أن شباب اليوم شيوخ في أجساد شباب ، وأنه كلما كان الشاب شيخاً في مجال الجنس كثر إنجابه . وكلما كان قوياً قل إنجابه .. بمعنى أن الضعاف جنسياً نسلهم كثير .. ولاحظت أن «عزة» تنظر الى «شكري» وتبتسم كلما ذكر العجز الجنسي .. ثم تنظر الي فيكاد «شكري» يذوب في كرسيه ، وأكاد أموت من الخجل .. لئلا يشعر «شكري» أنني عرفت سره هذا .. وخشيت أن يتكهرب الجو .. وخاصة أنني شعرت أن «عزة» سوف لا تنفك عن أن تغيظ «شكري» أمام هذا الحشد من الناس .

براءة الوحوش

اتأكلت نية والا مطبوخة :

فوجهت الحديث ، الى الأسفار وما فيها من عجائب ، وقال قنصل كان من الضيوف ، إنه عندما كان في «سييراليون».. حدثت معه حادثة غريبة :

ذات مرة من مرات جولاته الدبلوماسية بإفريقيا .. أتاه ذات مساء مظلم ، سكرتير السفارة هناك . وهو في حالة رعب عظيم وقص عليه . كيف أنه في أثناء عودته إلى السفارة وكان يقود سيارة كبيرة جديدة .. ولم يتمكن لسبب ما ، من إضاءة مصابيحها .. وسار بها في الظلام . وشعر أنه دهم إنساناً كان نائماً في عرض الطريق .. فلما وقف ليتحقق مما حدث ، وجد جسداً بشرياً بلا حراك انبثق منه دم كثير ، فعاد بسيارته هارباً الى السفارة .. ولكن ضميره أنبه جداً ، وقرر أن يذهب الى القنصل لتسليم نفسه للشرطة .. وعبثاً حاول القنصل تهدئته .. وأرسله الى بيته .. ولكن زوجة السكرتير اتصلت به تليفونياً وطلبت منه الحضور ، لأن زوجها في حالة عصبية لا تطاق ولن يستريح الا بعد أن يسلم نفسه للشرطة ... وعندما توجهوا لمركز الشرطة .. ثم توجهوا الى مكان الحادثة مع الشرطة لم يجدوا سوى بقعة كبيرة من الدم ، دون أي أثر آخر .. فقد اختفت الجثة ... وعندئذ قال رئيس الشرطة ببساطة ، ان الجثة قد أكلت ولم يبق لها أثر .. فلا داعي لفتح الموضوع .. فلم يتمالك القنصل الا أن يقول لهذا الشرطي الأمين .. إتَّاكِلت ... ! ! إتَّاكْلِت نية والا مطبوخة .. وهكذا برّئت الوحوش من أكلها براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

كانت أمسية لطيفة تبادلنا فيها القصص وحكايات الرحلات في أرض الله الواسعة ، وتجارب معاملة ومعايشة مختلف أنواع الناس .. وكانت هناك موافقة اجماعية على أن الناس جميعاً طيبون ، وأن الانسانية في أفئدة خلق الله جميعاً ، إنما يختلف حكام الشعوب في تصريفهم للأمور ، في معركة تنازع البقاء .. لذلك أحببت الناس جميعهم على اختلاف أجناسهم ، وإن بدرت من بعض منهم بادرة لا ترضيني . قلت ارحمهم يا ربي فهم لا يعلمون .

بلغ السيل الزبى :

انصرف الجميع .. ومنعني «شكري» و«عزة» من الانصراف ، وأصرا على أن أبيت معهما .. ولم أتمكن من الرفض .. وخصوصاً بعد أن عرض «شكري» أن أبيت معهم في شقته الفخمة .. بإلحاح غريب ، واعدت لي عزة فراشاً وثيراً في الغرفة الكبرى .. وبعد تهيئنا للنوم ودخول «شكري» غرفته .. حضرت «عزة» وجلست على فراشي ، بجواري وأنا راقد .. وأخذت تشتكي من «شكري» (بأنه كذاب ولا عندوش شرف ، وبيضحك عليها) . فقلت لها (هو كلمني بخصوصك زي ما قلتلك .. إن كنتي عايزة تروحي مصر ما عندوش مانع ، ويديكي اللي أنتي عايزاه .. باين «يا عزة» أنتم ما بتحبوش بعض أحسن سيبوا بعض وابقوا صحاب) . صمتت قليلاً ثم قالت (ليه خدعني ووعدني بالجواز .. وضحك علي .. زي بعضه .. أحسن أغور من وشه) ثم مالت على فمي لتقبلني فقلت لها «اعقلي .. أحنا فين؟ دي مش أصول» ولو أنني كنت أتحرق شوقاً لقبلتها .

انفردت «بشكري» اليوم التالي .. وقلت له («عزة» ما عندهاش مانع ترجع مصر) . فقال (عايزة كام ؟..) ثم فكر ملياً وقال (وإيه اللي يضمن لي أنها ما ترجعش «ليبيا» وترافق الراجل اللي عايزها هنا وتخرب بيتي ؟) .. قلت له (عزة ما طلبتش حاجة ..) وغيرت مجرى الحديث إلى رغبتي في الرجوع إلى «مدريد» .. والواقع أنني صممت أن أرجع إلى «مدريد» في أقرب وقت .. حتى أتخلص من البؤرة التي وقعت فيها واستأذنت في أن أتجول في طرابلس .

بيني وبين القمصان عداوة القرصان

طرابلس الجميلة غادة فوق الخميلة :

أخذني «فتحي» لأتسوق بالمدينة .. ولأول مرة ، رأيت المدينة على حقيقتها مدينة جميلة حقاً .. هي ميناء على البحر .. ترك الطليان فيها من فنهم الكثير .. زرنا الأحياء الوطنية .. وتغلغلنا في الأسواق .. وسرني جداً ما رأيت ، .. وعين الرضا عن كل عيب كليلة ، وعين السخط تبدي المساويا وتحققت أن الإنسان إذا كان على طبيعته دون تصنع ، فهو باهي .. واذا تصنع ما ليس من طبعه ، فهو «ما باهي» .. عندما رأيت الليبي في سوقه كان سيداً ، وعندما رأيته في الفندق متصنعاً الفرنجية كان شنيعاً وعندما تعامل مع مصانع الفرنجة كان في حيرة وضلال .. رأيت سوقاً عربياً ذا طابع مغاير لما رأيته في منطقة الفندق ، حوانيت صغيرة تشبه كثيراً محلات «الغورية» بمصر الحارات الضيقة وزينات وترتيبات المعروضات عليها سمة الشرق وجماله .. الباعة يجلسون على مصاطب عاليه داخل المحل ، في تربيعة ، يطوون سيقانهم تحتهم في راحة تامة ، كما نفعل في مصر .

خلاف مع القمصان يحير الإنسان :

دخلنا سوقاً بعد سوق .. ، بعضها مرتفع يصعد اليه بدرجات سلم ، وبعضها يهبط عن طريق درجات أخرى .. خرجنا إلى شوارع أوربية المظهر ، فكأني في شارع عبد العزيز أو شارع الجيش بالقاهرة .. والمحلات مليئة بالبضائع الحديثة .. فيها أجود الأجهزة والآليات ، فمثلاً بمحل «كوداك» أنواع من الكاميرات عديدة وحديثة ، الا أنها غالية الثمن جداً إذا حولنا سعرها الى الجنيه المصري ، فالقميص النايلون متوسط الجودة بأربعة دنانير أي ثمانية جنيهات مصرية تقريباً .. واشتريت ثلاثة باثني عشر ديناراً أي ما يقابل أربعة وعشرين جنيهاً مصرياً .. رأيتها داخل صندوق أنيق بغشاء من «السيلوفان» – الشفاف .. وعند تجربتي لبسها في الفندق ، وجدتها شراً مستطيراً ، واسعة الياقة ، قصيرة الذراعين ... فعزمت أن أستبدل الاثنين اللذين لم أفض غلافهما .. لأني علمت أن قياس القميص يحدد بثلاثة أرقام .. مثلاً (١٧/٤٣ – ٣٢) وهي تدل على

ما يلي /٤٣ سعة الصدر و١٧ مقاس الرقبة و٣٢ مقاس الذراع ، والرقم الذي يناسبني (١٦/٤٣ – ٣٤) بالبوصة .. ولما سألت «فتحي » .. هل يمكن ارجاعها أو استبدالها فقال «هيهات هؤلاء التجار عتاة . إذا باعوا شيئاً وغادر الشاري به المحل لا يمكن ، إرجاعه أبداً» .. ولقد كنت سيئ الحظ طول حياتي مع القمصان . وبيني وبين القمصان معركة ، سوف تنتهي باذن الله بارتدائي الجبه والقفطان أو الجلابية البلدي واللاسة ، أو الفانللا «واللباس» (أقصد السروال لأن اللباس كلمة أبيحة كما قدمنا) .

عبثاً كانت محاولتي للتخلص من هذه القمصان .. لأنها لا تصلح إلا لـدب قصير القامة قصير الذراعين ، ضخم الرقبه ، كبير الكرش مكوره . ولا أعرف انساناً بهذه الصفات .. وهكذا تقبع هذه القمصان في الدولاب الى وقتنا هذا ..

يبدو لي أنه لا بد أن يكون هناك عفريت قمصاني يعاديني .. والمعركه بينه وبيني مستمرة خلال العشرين السنة الماضية ، لأني فشلت في اقتناء قميص واحد .. تستريح ياقته على رقبتي دون أن تتوعج ، وتتلوع ، وتنكسر ، ويجنح طرفاها على جدار رقبتي .. ولست معوج الجسد أو مشوه الصدر أو مقتب الظهر أو ملتوي الرقبة والحمد لله .

اللهجة الليبية غريبة عن القاهرية

الجعمزة والهدرزة :

وطبيعي أن يتخلل يومي مجالسة للناس الطيبين الذين أبادلهم الحديث .. وأتعابط وأتجاهل .. فتفيض علي المعاليم والمفاهيم الليبية ، ولحبي للكلمة .. أردت أن أتعلم اللهجة الليبية .. تصور ما يمكن أن يجول بخاطر رجل مهذب قاهري عندما يسمع شاباً «ليبياً » وسيماً يكلم سيدة أو فتاة جميلة ويقول :

(روحي اتدهوري في الخرارات) ، و (البناويت عندنا قطوسات) ، (وروحي جعمزي عالكريبولة وهدرزي مع البناويت) و (اعملي زردة للصحاب) ، (وجيبي دلاعة وانجاص من شارع لأربع عرصات) ، (واشبحي عالكربة غادي) ، (شينو تقولي للمرة برّة وهيّه مع المباشر مجعمزة تهدرز) . (وشينو تحطي الطاسة لوطة الشِّشْمَة وفيها قطعة جوس) .. (والوليد عما يشبح ليها في الكوزين) .. (وعليش انتي مجعمزة بتهدرزي مع ها الزول) ، (ياللا عماية نكسر الدلاعة والمباشر عياط عليها) المرادفات لهذه الألفاظ هي :

تدهوري : تتنزهي ، الخرّارات : الشلالات ، البناويت : البنات ، القطوسات : القطط الصغيرة ، دلاعة : بطيخة ، الشِّشْمَة : الحنفية ، إنجاص : كمثرى ، جوس : فاكهة ، اشبحي : انظري ، شينو : لماذا ، برّه : اخرج (للطرد) ، الطاسة : الكوبه ، لوطه : تحت ، جعمزي : اجلسي ، الكريبولا : السرير ، هَدْرِزي : حادثي أو دردشي ، زردة : عزومة ، شمامة : بطيخة ، عرصة : ردهة ، الكَرَبَه : السيارة ، غادي : هناك ، المرة : السيدة ، المباشر : الخادم ، عمايه : معاية ، عياط : بيصرخ ، ... الخ .

لا سبيل الى توحيد الكلام فيما بين الأخوة العرب ، الا أن تبسيط اللغة الفصحى تبسيطاً كبيراً ، وذلك عن طريق الإعلام الحديثة (الإذاعة المسموعة والمرئية) وكذلك الجرائد ونخلص اللغة من الشواذ .. ونشجع الناس على الكلمة بها .. ولقد حدث لي في زياراتي للبلاد العربية كلها ، أنني وجدت أن التحادث باللغة الفصحى .. سهل ، بل ممتع ، وخاصة بعد أن بسطت الألفاظ وتحايلت بالسكون من ضرورة الإعراب وتعسف القواعد النحوية .

العلاقة الخفية تصبح علنية :

مضت أيام وتوالي «عزة» عنايتها بي ، وتلطفها وتحببها ، بحيث لم يبق مجال للشك عند «يحيى» و «ست الحاجة» و «زينب» و «فتحي» أن بيني وبينها شيئاً .. ولاحظت أن «شكري» يخلق لنا الظروف التي تسمح لنا بالانفراد . ولكني كنت أتجاهل نظراتهم وأتظاهر بأنه لا يمكن أن يكون بيني وبين «عزة» أي شيء سوى الصداقة ومحاولة إصلاح فيما بينها وبين «شكري» حيث كان خلافهما واضحاً للكل .

اليوم الجمعة .. واليوم عطلة ، خرجت مع «شكري» الى كازينو الشاطئ وجلسنا نتباحث في أحوال المكتب ، التي لم تكن على ما يرام ، ولم يتمكن «شكري» من قضاء ما يلزم نحو أعمال هامة في المقاولات والعطاءات التي تكدست أمامه ، وكان يقضي طول وقته على التليفون فيما بين مكتبنا في (مدريد) ومكتبنا في «هامبورج» ومندوبه في روما و«بنغازي» التي بها أعمال إنشائية كبيرة ، يقوم بها مكتبنا في «طرابلس» وبهذه المناسبة «بنغازي» تبعد حوالي ألف كيلومتر من «طرابلس» ويسميها «الليبيون» الشرق والناس فيها يختلفون عن الطرابلسيين .

الإفضاء بالأسرار شيمة الأغرار :

أفصح لي «شكري» في حديثه أن «عزة» هي السبب في ارتباكه اليوم . وقال (إنه أخبرها بأنني أبلغته رغبتها في الرجوع إلى مصر) . ثم أفهمني أن أي تعويض لا يهمه لأن «عزة» امرأة خطرة بالنسبة له .. ويخشاها .. ولا يعلم كيف أحبها في وقت من الأوقات وهو كذلك يعلم أنها لم تحبه لحظة واحدة ، بل كانت تمقته ، وكيف يطمئن إذا تركها انها لا تتحالف مع أعدائه ضده ؟ . وعندها ما يؤهلها لدخول ميدان الأعمال مع «الطرابلسي» الذي يشتهيها ، وخاصة أنه سيكون تحت يدها مبالغ كبيرة ... وهي قد تعلمت طرق العمل وأساليبه من «شكري» السنوات الماضية .

ثم قال لي «أنت تسافر باذن الله يوم الاثنين .. وأرجوك تفكر معايا ، ازاي تخلصني من المصيبة دي .. «فردوس» في مصر عايزه تيجي بالواد ، ومراتي الألمانية مطينه

عيشتي .. والدنيا ملخبطة في وشّي - وعايز أنتهي من «عزة» في أقرب فرصة مهما كلفني الأمر» .

طيبت خاطره وقلت له (اشتدي يا أزمه تنفرجي) .. فقال : أنا شايف أن «عزة» بتعزك أوي .. ولمعت في عينه برقة خبث ، أسقطت قلبي في قدمي .. وتاه فكري ولكني طردت أي هواجس من عقلي حتى لا أقع فريسة للقلق والسهاد .

الفرار خير قرار :

في صباح اليوم التالي حضر إلى الفندق الأستاذ الدكتور صلاح .. وكان أستاذاً من أساتذة جامعة القاهرة معاراً لجامعة «طرابلس» ، وكان قد تخرج على يدي .. وأصر على استضافتي ، وطلب مني زيارة كلية الهندسة في «طرابلس» .. وهكذا كان وقابلت كثيرين من المهندسين الذين تخرجوا عندي في كلية الهندسة جامعة القاهرة ، والذين يعملون بكلية الهندسة «بطرابلس» .. وعندما رجعت الى المكتب ، لاحظت أن «عزة» في عصبية ظاهرة .. وعلمت من المهندس «يحيى» أن مشادة عنيفه حدثت بين شكري و«عزة» .. فاجتمعت بهما بالمكتب ، وأخذت أتلطف معهما حتى هدأت العاصفة . ولكني لاحظت أن «عزة» كانت تلتصق بي وتحيطني بذراعيها ، كأنها تقصد بحركاتها إغاظة «شكري» الذي لم يثر مطلقاً ، بل ضحك وابتسم ونظر الي نظرات ذات معنى حيرتني .. وعندما أردت الانصراف ، رجاني «شكري» أن أبقى للمبيت معهم .

وأخذ يغريني بأنها ستكون ليلة ليلاء .. ولكني رفضت معتذراً بان علي أن أكون بكلية الهندسة في الصباح لإلقاء محاضرة عامة .

لقاءات هنية في رحاب الكلية :

وفي الصباح اصطحبت من الفندق الى الكلية ، ودعيت للقاء طلبة البكالوريوس . ثم رافقني الدكتور صلاح نحو المدرج الكبير حيث كان عدد عظيم من الطلبة وهيئة التدريس ينتظرونني ، وطلب الجميع بالحاح أن يستمعوا الي .. قمت بالقاء محاضرة جريئة جداً ، رغم ما قيل لي مسبقاً إن الشباب الليبي حساس جداً ، وربما يستاء إذا ووجه ببعض الحقائق .. ولولا ما حباني الله من صدق في القصد ، وأمانه في الاداء ، لصادفتني متاعب جمة . تكلمت عن الثروات الحقيقية ، وكيف أنها في الأيدي العاملة والذهن المنتج والمهارة الإنسانية .. وتكلمت عما يلزم البلاد النامية ، وضرورة الاهتمام بتنمية

الوعي الصناعي ، ومحو الأمية الصناعية ، وزيادة الكفاية الإنتاجية الشخصية .. الانسانية .

أصل الفتى ما قد حصل :

فهب طالب .. وقال (كيف أننا يا عرب رجال أمجاد عظام ، وعلى حسب قولي إن الرجال عماد الإنتاج وتقول سيادتكم إننا غير منتجين) ، فلم أطق صبراً ، وقلت (إن فرحه بالمجد العظيم الماضي في غير محلها .. فنحن هذه الأيام دون هذا المجد بكثير .. وعلينا أن نعيد تقييم أنفسنا قل لي يا بني .. أين هم الرجال الذين يمكن أن يكونوا عماد الصناعة والتكنولوجيا وهم غرقى في بحر السياسة) ..

فسمعت زمجرة وهمهمة .. وأحسست بموجة مشاعر تلزمني مواجهتها وتصفيتها ومثل هذا أنا قادر عليه تماماً . وقلت فوراً (إن من يواجهني بعيوني ، هو صديق حبيب ومن يخفيها مني ويوفيها لإرضائي فهو عدوي .. طبيبي الذي يداهنني ولا يجرؤ أن يواجهني بحقيقة علتي .. هو نذل مخادع . وإن معظم العلاج في معرفة الداء فيوصف على أساسه الدواء .. ومن الخلل أن نفرح بالمديح ولا نستقبل النقد البناء) ، وختمت كلمتي هذه بمقاطع في شعر فيلسوف الإسلام وإمام الزاهد والتصوف لأبي حامد الغزالي :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا — يغنيك مضمونه عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا — ليس الفتى من يقول كان ابي

تصفيق جاد .. وهكذا كعادتي .. كسبت قلوب هؤلاء المستمعين ، والواقع أنني فخور جداً بهذه المقدرة .. على اكتساب حب وإعجاب من أحاضرهم ، وهذا من فضل الله .. وقولي بهذا ليس استعراضاً أو غروراً بل شكراً بنعمة الله بهذا الفضل العظيم .. (ولئن شكرتم لأزيدنكم وإن كفرتم فإن عذابي لشديد) ..

مفاجأه :

وفي أثناء المحاضرة .. إذ بتليفون من «شكري» يدعوني للمكتب للسفر فوراً إلى «ميونيخ» و «باريس» ثم «لمدريد» لأمر في غاية الأهمية . وذلك بالنيابة عنه .. وفعلاً حجز الأمكنة ولم يكن باقٍ على ميعاد السفر إلا ساعة واحدة .. فأرسلت الدكتور صلاح والمهندس «محروس» .. لجمع حاجياتي من الفندق ، والحضور بها الى المطار .. وعندما كنت على وشك المغادرة ، وجدت أن المهندس «يحيى» ينتظرني ويقول لقد

وصلت برقية من « ميونيخ » توضح أن المشكلة انحلت ولا لزوم للعجلة .. وتأجل السفر .. رجعت الى المكتب .. وكان «شكري » قد خرج .. وقابلتني «عزة » معانقة (أخص عليك هان عليك يا حسن تسافر من غير ما تودعني .. ده أنا باين رخيصه عندك أوي) .. قلت في نفسي (إيه الحكاية الست دي امرأة ناضجه .. قوية .. ذكية .. ولا بد أنها تعلم أن غرامي بها افتتان بجمالها فقط ، وفي أعماقي لا زلت زوجاً وفياً) ..

انتقلت من الفندق لشقة «عزة» بعد الحاح «شكري» و«عزة» .. قضينا الأيام القليلة التالية في التجوال بالسيارة والتسوق والخروج إلى ضواحي «طرابلس» وفيها بقاع خضراء جميلة .. وكانت «عزة » تصحبني دائماً تاركة «شكري » بالمكتب غارقاً في أعماله وتليفوناته وتلكساته .. ولم تنقطع «عزة » من تسللها الى شقتها في أثناء الليل .. ولا أدري إن كان «شكري » على علم برحلاتها الليلية هذه .. ولولا إصراري لما رجعت إلى شقة «شكري» بعد زياراتها لي .. ولتعرضت لتندر « «يحيى » وتحيته «صبحية مباركة » .

الفصل الرابع عشر

عرض خبيث

إلى مدريد من جديد

«شاهيناز» أو دلال الملوك :

قررت أن أغادر طرابلس الى «مدريد» في خلال يومين ، وأعددت العدة لذلك رغم محاولات «شكري» و «عزة» لابقائي .. ولقد كنت أود أن أعد نفسي للسفر الى مصر بمناسبة رأس السنة .

وصلت مطار «مدريد» .. واستقبلني «الفارز» و«ماريانو» وتوجهنا تواً إلى المكتب ... ولما استفسرت عن الفندق قال لي «ماريانو» إن شقتي كانت محجوزة طول الوقت .. فعجبت لهذا التبذير الذي لا مبرر له ..

وكنت أنا و«ماريانو» مدعوين لقضاء سهرة عند زوجة مهندس مصري يعيش في إسبانيا . وأصرَّ على أن ألبّي هذه الدعوة لأن (العزومة معمولة مخصوص علشاني) . والواقع انني كنت متعباً جداً . غير أنني خشيت الوحدة القاتلة في الفندق . وخصوصاً انني كنت لا أزال مليئاً «بعزة» ولم يفارقني طيفها ...

كان مسكن المهندس مضيفي قريباً من المكتب ، وهي شقة في عمارة كبيرة وسط «مدريد» .. مدخل العمارة مفروش بالسجاجيد ، وتزينه زهور ونباتات جميلة ، ويقف به بواب في زي كـزيّ قـواد الجيوش .. فخم المظهر جداً ، وسيم يقابلك كأنك ضيف من الأمراء .. تدخل المصعد الفاخر .. كأنه «بولمان» فاخر جداً ، تصل الى باب الشقة .. فاذا بها شقة فارهة فاخرة . وتلقى ترحيباً مثل الترحيب بالمشاهير والملوك . وبالشقة شغالتان سوداوان ، بملابس زاهية و«شاهيناز» زوجة المهندس .. سيدة في الثلاثينات من عمرها .. لها سبعة أولاد .. مضيافة لطيفة المعشر .. بسامة ، مهزارة صادفت في قلبي محبة الابنة .. وكأني أعرفها من سنوات (وبالمناسبة اسم شاهيناز . فارسية أصـله (شاهناز) ويعني دلال الملوك أو دلع الملوك «شاه تعني ملك ، وناز تعني دلال أو دلع .. علماً أن كلمة ناز بمعناها آنف الذكر لا تستعمل في اللغة الفارسية الا للنساء .. والله أعلم) .

كان بين المدعوين .. «فلورنتينو» المثال ، وزوجته ، وأم زوجته ، عرفتني به «شاهيناز» وقالت لي إنه من كبار المثالين في العالم .. ولم تمض برهة حتى تصادقنا . وذابت الفوارق والكلفة ، فتداعبنا وتنادرنا .. وبانت لي ثقافته الواسعة . وعرفت أن أعماله عالمية . وهو معروف ومشهور خاصة في أميريكا . وله تماثيل عديدة في ميادين كثيرة في عواصم العالم . وبعد أن قضينا وقتاً غير قصير ، واشتركنا في وليمة عظيمة ، دعاني لزيارة منزله اليوم التالي للعشاء . لأرى مرسمه «الاستديو» . وقبيل انصرافه قال لي إنه معجب بشكل رأسي ، ويود لو أسمح له أن ينحت تمثالاً له.. وطبعاً لم يخدعني كلامه ، لأني أعلم بنفسي من غيري .. وقلت لعله سكران .. أو لعل المنكود الحلاق الذي صمم هيئتي الجديدة أضاف زيفاً عليها خدع هذا الفنان . على أية حال (كويس أحسن ما كان يقول حاجة تانيه وحشة) .

بين الصيني والكرستال ، والطوب ، علاقة الحبيب بالمحبوب :

لم أنعم بنوم هادئ .. واستيقظت في الفجر .. ولم أطق الجلوس وحيداً بالفندق في هذا الفراغ الواسع المؤذي .. فتوجهت الى المكتب ، وجلست وحدي أقضي الوقت في دراسة الملفات والمراسلات وغيرها .. ولم أكن قد تناولت أي طعام . فقمت أبحث عمًّا يمكنني اعداده لنفسي ، فوجئت بغرفة اعداد الطعام ، التي هيأتها قبل سفري الى «طرابلس» خاوية خالية «وتريزا» شراية الصيني رفيقة البوفيه المجاور .. الكعبيرة خرابة البيوت .. قد تخلصت من كل المعدات والأطعمه والشاي والبن .. وملأت ابنة الشيطان الأرفف والدواليب ، بالأوعية الصيني ، تستعرض هذا الصيني اللعين ، الذي أعتبره «طوباً» مزخرفاً لا نفع فيه ، وذكرني هذا «بطوب» سبق أن انكب على شرائه كل بنات فرقة «رضا» عن بكرة أبيهم ، عندما كنا في تشيكوسلوفاكيا التي تتخصص في صنع زجاج سميك تسميه ظلماً وعدواناً «كرستالا» لا هو كرستال ولا حاجة لأن الكرستال - الجميل هو الدقيق الصنع في باريس ، واللي شفته في «استانبول» ، وهذا عبارة عن مثقلات والعياذ بالله ، طفاية سجاير ، طقطوقه وزنها ٥ كيلوجرام ، وكباية صغيرة وزنها كيلوجرام ، هذا غير أشكال معقدة يدعون أنها تماثيل ، وما هي الا لفاليف زجاجية ، على سطحها خربشات محفرة في منحنيات . وكان سبب اندفاع بنات فرقة «رضا» لشراء هذه المثقلات طمعهن أو لربما لتجهيز أنفسهن .. انتظاراً لأولاد الحلال الذين إذا تزوجوهن .. يحمين أنفسهن باستخدام هذه المثقلات قذائف أو أسلحة لشج أدمغتهم عند الهجر أو الخصام .. وقد كنت في ذاك

الوقت أقف نذيراً ، لما سيحدث لهن عندما يضطررن لدفع غرامات كبيرة نظير زيادة الوزن في الطائرات ، أو عندما يغرمهن الجمرك بمكوس ضرائب نظير طوب لا خير فيه ، ولكن هيهات .. وحمّلت الطائرة بأمتعة مليئة بهذا الطوب . وهذا ما أصاب صنيعة الشيطان الخزعبلة «تريزا» التي أصيبت بغرام الصيني ولم ترعوي وبدلاً من أن تكون لي عوناً أصبحت مصدراً للأذى .. وسوف «أعرف شغلي معاها .. بس لمّا يطلع النهار» .

البانتسبانيا خبز إسبانيا :

خرجت وحدي من المكتب لأول مرة .. فرأيت بالقرب من المكتب عطفة صغيرة «محلاً» يبيع شتى الخضروات والبقالة ، وبجواره ، محل لبيع أصناف المخبوزات .. فاشتريت من هذا الأخير خبزاً وبسكوتاً .. وعلى فكرة الخبز في اسبانيا أكثر من عشرين نوعاً .. منه ما يذوب في الفم بمجرد وضعه فيه ، ومنه ما يقرمش ، ومنه الرقيق ، ومنه السميك ، ومنه الأبيض الشاهق ، ومنه الأسمر .. لذلك تشتهر كلمة «بانتسبانيا» وتطلق على نوع من «الجاتوه» وهي محرفة عن بان دي اسبانيا أي خبز اسبانيا ...

بين الحلال والحرام والمنكر :

ثم عرجت على الفاكهة ، واشتريت ثلاث تفاحات الواحدة منها في حجم بطيخة صغيرة ، إلا أن أديمها أصفر مشرب بحمرة الخجل من بنات عمهما الحصارم التي ، تعيش في مصر .. ثم ولجت باب البقال .. الذي لا يفهم الا الاسبانيه .. وبالإشارة ، حاولت أن أطلب لبناً أو جبناً أو أي «غموس أو أدام» (وهو ما يوضع على الخبز عند أكله) فلم أتمكن أن أجعل البقال يفهمني ، لأن لغة الإشارات والإيماءات .. لها معانٍ مقلوبة بالنسبة للمعاني المتعارف عليها في مصر .. فإشارة اذهب معناها تعالى ، وإشارة الموافقة معناها الرفض ، وإشارة الأكل معناها الصيام وهكذا ... !

فدعوت عليه بالصمم عله يتعلم لغة الإشارة أي لغة «الطرش» والخرس أي الصم والبكم .. ولما ضاق صدري بهذه الحال ، دخلت وراء نضد البيع (البنك) .. وأخذت أدعبس حتى وجدت لحماً علمت أنه لحم خنزير وهو حرام .. وليس نص حرام مثل (الجن تونك) ، لذلك نحيته ، وأردت أن أشتري ماء (معدنيا) أو (كازوزى) أو (كوكاكولا) أو غيره ، ولم يمكنه أن يفهم قصدي وأحضر لي زجاجة لون مائها وردي

.. وخفت أن أجادله في حرمانية هذا الشراب إذا كان خمراً .. وهكذا باع لي قسراً هذا المشروب ولعله مش حرام (اجعله يا ربي مش حرام حتى أتمتع بشربه ولا أضطر لفتح بار المكتب اللي مليان لحبة عينه حرمانيات) ... وجال بخاطري ما ينال بائعي الخمر الذين ينشرون الفسق والفجور في العالم من عذاب في الآخرة ...

التخلص من الخمور من أعقد الأمور :

في العالم بعض حكام دول رشيدة . يجلدون فيها بائعي المنكر . ويستولون على قنيناته وخاصة الثقيل منها «كالويسكي» و «الكونياك» و «البراندي» و «الروم» و «النبيذ» . إذا كان جيداً .. وينقلونها الى بيوتهم ، حتى يمنعوا الاتجار فيها ، ويدعون أنهم صبوها في المراحيض .. ولعلهم يقصدون أنها آلت الى هناك عن طريق أجسادهم .

ولقد نمى الى علمي أن بدولة من هذه الدول مليوني قنينة .. صودرت من .. بائعي الخمر والدولة حائرة في أمرها لا يدرون كيف يتخلصون منها ، ولقد تقدم عدد كبير من هذه الدولة باقتراح ، بأن توزع عليهم هذه القنينات فيتخلصون منها بطرقهم الخاصة .. واقترح البعض الآخر أن يتعهدوا بأخذها الى البحر ويلقونها بعيداً جداً عن الشاطئ بحالتها مغلقه بسدادتها وفي صناديق عبواتها ، حتى لا تنجس الشاطئ ولا تتلوث مياهه .. ولقد تنبأ هؤلاء الناس ، بأن البحر سيلفظ هذه الخبائث .. فيلتقطها الفرنجة . الذين يجهلون ضررها .. ولهذا يجب الا يظن المواطنون السوء بهؤلاء الناس ، الذين سيتكبدون المشاق بالإبحار بهذه الحمولة الخبيثة . ليطرحونها في البحر . إذا رجعوا إلى البلاد وجيوبهم مفعمة بالفلوس .. لأنهم لا بد سوف يعثرون على جزيرة مجهولة . بها كنز أخذوا ما معهم من فلوس منه .. وطبيعي أنهم لم يبيعوا هذه الخمور لأن بيعها حرام .

وأخيراً قرّ قرار حكومة هذه الدولة ، أن تحتفظ بهذه القنينات في مخازن مأمونه جداً .. ولكنه كلما جردت هذه المخازن ، وجدت كميات كبيرة منها ناقصة .. ويقسم حراس هذة المخازن ، أن الفئران وأبناء عرس .. تجري هنا وهناك وهي في حالة سكر بين .. فلا بد أنها هي التي استهلكت هذه العينات الناقصة . بقرض الزجاج وبلعه ثم بلعق السوائل ... والله أعلم ..

الخـــديعة

المثال الفنان برأسي ولهان :

اتصلت شاهيناز بي تليفونياً ، تذكرني بميعادي مع فلورنتينو المثال الذي ينتظرني في منزله .. توجهنا سوياً في سيارتها الى قصر منيف به حديقة غناء .. رحب هو وزوجته بنا جـداً .. وبعـد أن انتهينا من مراسم الاستقبال والضيافة ، طـاف بي في مرسمه ، «الاستديو» وأراني عينات من أعماله الفنية . في رأيي أعماله فنية رائعة . ثم عرض علي صوراً فوتوغرافية لتماثيل جديدة مقامة في ميادين عواصم كثيرة ...

لاحظت أنه يفحص بنظره رأسي ووجهي ، ويدرس أبعادهما ، ثم أعاد رجاءه لأسمح له بأن ينحت تمثالاً لرأسي كما سبق أن طلب ذلك مني البارحة ، كذلك ليستضيفني عنده أسبوعاً أو أكثر لهذا العمل .. فاعتذرت بقرب سفري للقاهرة ، واتفقت على أنني عندما أعود الى «مدريد» باذن الله سوف نبحث هذا الأمر . ثم سألته (مع امتناني وتقديري لدعوته) ما الذي سيعمله بهذا التمثال .. قال لي إنه لا يعلم ، وربما صنع منه تمثالاً كبيراً .. لأنه لمح في سمات وجهي ملامح تنّم على مشاعر نادرة .. وأن .. وأن .. لكني صمدت أمام هذه القذائف المديحية الخداعة .. ولم أصدق كلمة واحدة منها لئلا .. يركبني الغرور «وأروح في داهيه» ثم طلبت منه ضاحكاً أن يتكرم ويرسل لزوجتي رسالة .. يخبرها بهذه المناقب ، لعلها تسعد لأن زوجها «أعجوبة وسيعمل له صنم ينصب في الميادين» .. فضحك وأخذ يقص علي نوادر مسلية . بعد وليمة عظيمة ، رفعت الكلفه بيننا حتى صار يناديني «حسن» وأناديه «تينو» .. وكانت سهرة فنية ثقافية ممتعه جداً .. أدخل المديح الغـرور .. والنرجسية في نفسي لعنها الله .

فراو «شكري» (أي زوجته) :

اتصل بي «شكري» تليفونياً من «آخن» بالمانيا .. وأنا في فراشي بالفندق . وعلمت منه أنه ترك «طرابلس» وترك «عزة» ، وهي في غضب لأنه ينوي قضاء عيد الميلاد «الكرستماس» مع زوجته الالمانية ، ويرجوني أن أقابله في «آخن» ليقدمني

لزوجته .. التي تريد أن تراني .. وكانت تود الحضور الى مدريد للتعرف بي ، غير أنها تستعد لعيد الميلاد ، وقد أعد المكتب كل شيء لرحلتي الى «آخن» . ولما ترددت في الإجابة ، أخذ يرجوني رجاء حاراً ، ويستحلفني بكل عزيز ألا أخيب رجاءه للأهمية .

قابلني في المطار .. واصطحبني الى الفندق .. وانتهز فرصة انفرادي معه وقص علي ما حدث بعد مغادرتي «طرابلس» فيما يلي : —

بالكاد أمكنه تشطيب ما بيده من الأعمال ، التي يلزم إنهاؤها قبل أعياد الميلاد وبداية السنة الجديدة ، ولم تدعه «عزة» يهنأ دقيقة دون مطالبته بالوفاء بوعده .. لتأمين مستقبلها .. بالزواج وطلاق زوجته الالمانية .. أو إرجاع «عزة» لمصر كما اتفق معها .. وأفهمته أو بمعنى آخر هددته بأن «الطرابلسي» عدوه يلح عليها لتترك «شكري» وأغراها بأشياء كثيرة .. ولكنها تفضل الاستقرار مع «شكري» وبطريقة لا يعرفها بلغت عزة زوجته الألمانية أنه تزوج عزة وأنه على وشك تطليق الألمانية . وهو في حيرة من أمره .. وقلق عظيم .. لذلك يرجو معونتي .. وقد اضطر زوجته الألمانية لدعوتي ، لعله يجد مني عوناً لانقاذه من كذب «عزة» .. ورجاني ألا أناقش زوجته الألمانية كثيراً ، فهي الأخرى في غاية الدهاء والذكاء ، وربما تستشف .. أشياء تزيد الأمور تعقيداً ..

مبروك .. عقبال البكارى :

وفي المساء ، في مسكن «شكري» ، قابلتني مضيفتي زوجة «شكري» بكل ترحاب ، ولكن بتحفظ وزوجة «شكري» سيدة شقراء صغيرة الجسم ، سريعة الحركة أكبر سناً من «شكري» وتناهز الخمسين .. عليها مسحة من الجمال مع صرامة واضحة .. دقيقة الملامح .. نافذة النظرات ، تكاد تضفي عليك سلطاناً مجهولاً .. من الرهبة ..

وكانت تتكلم الإنجليزية بطلاقة ، كما تتكلم باللغة العربية القاهرية ، وبعد تناول العشاء الذي تخلله حديث عادي عن العمل وعن «مدريد» وغير ذلك من المواضيع العامة سكتنا . وبينما نرتشف المشروبات الفاخرة قالت لي فجأة «مبروك» .. دهشت جداً .. ونظرت الى «شكري» الذي تجاهل نظراتي ، ولم أجرؤ على الرد أو الانفعال لجهلي بما بيته «شكري» «حتكتبوا الكتاب أمتى» .. وفي لمح البرق ، فهمت أنه لا بد أن «شكري» أوهمها أنني خطبت «عزة» .. وأن تبرئته أمام زوجته الألمانية هو أن يلصق «عزة» بانسان .. والواقع أن مركزي بالنسبة «لعزة» والمكتب و«شكري»

أنسب مركز لهذا الادعاء .. ومر بخاطري .. بسرعة .. كل الأحداث التي مرت بنا منذ وصولي «ماربيا» وفي فندق «دن بيي» .. وفي طرابلس .. صبحية مبارَكة .

ليس «شكري» غراً أو أبلها .. بل هو ماكر خبيث ، فلا بد أنه هو الذي ألقى «بعزة» في أحضاني .. ولا أظن أن ذلك كان بعلمها .. ولو أنه كان بتدبير منه .فقلت لزوجة «شكري» (بإذن الله لمّا نخلص «عزة» بعض أشياء في مصر ودة قريب) .. قالت («شكري» قال لي إنكم حاتقعدوا في «مدريد» وإن «شاهيناز» بدوّر لكم على شقة جنبها) .

قلت «أيوة» ثم أردفت قائلة .. (صحيح مراتك .. سابتك ورجعت إنجلترا) . فأطرقت ولم أجب ولعنت «شكري» ألف لعنة في سري .. ثم اكفهر جو الغرفة ، وصعب استمرار الحديث لاستغراق كل منا في التفكير .. فاستأذنت وانطلقت الى الفندق . قضيت ليلة لازمتني فيها المخاوف والهواجس .. ولم يمكنني التغلب على السهاد إلا بقرص منوم قوي ..

خيوط العنكبوت ينسجها شكري الأخطبوط :

استيقظت متأخراً لأجد «شكري» ينتظرني بفارغ الصبر ، وقابلته بجفاء عظيم (إيه يا «شكري» ده ؟ كان يعجبك أني كنت أكسفك أدام مراتك) فرد علي ببجاحة .. (ليه .. هيه «عزة» وحشه .. والا أنت ما بتحبهاش .. ؟؟ دي بتموت فيك وأنا عارف وأنت عارف ..) .

ولأول مرة أرى «شكرى» في هيأة الشيطان .. وخيل لي أن له قرنين نبتا في جبهته .. وأن عينيه جمرتان ، وأن وجهه القبيح يشع كراهية وشراً .. كأنه أخطبوط أو عنكبوت ثم ضحك وقال .. (كتر خيرك على كل حال .. ومتشكر جداً وأوعى تكون زعلت ؟؟؟) ثم عانقني قائلاً (ربنا ما يحرمنيش منك) ... ووضح لي خطته .. وهي أن ما أوهم به زوجته لا يلزمني بشيء البتة .. وأن علاقته الجنسية «بعزة» قد انقطعت من زمن طويل .. وأنها هي التي تحب أن توهم الناس أن بينه وبينها علاقة حتى تحتفظ بسطوتها على المكتب .. وعلى عملائه .. وهو قد كرهها بعد أن كان يظن أنه يهواها وذلك عندما شعر بخطورتها العظيمة عليه .. فأصبحت كلما قربت نحوه أحس أنها أفعى . ولعل هذا هو سبب تجنبه ممارسة الجنس معها ، أو مع غيرها ، فلقد جعلته يكره النساء جميعاً ، ويود من كل قلبه أن ترحل إلى القاهرة بلا رجعة .. لخوفه من الطرابلسي

أنْ يستحوذ عليها ، وعلى أسراره منها ، .. لذا هو يتمنى أن يجد سبيلاً للتخلص منها . ولقد تأكد أنها تهواني .. ولا تنقطع عن الكلام عني .. وغير ذلك مما أعرفه ويعرفه ولا داعي لسرده .. وفي سري قلت «يا نهار أسود يا أخبث الخبثاء يا قواد .... يا عنكبوت الشر » .

ثم أردف قائلاً .. (ماذا لو رافقتها ؟ .. يعني تخليها عشيقتك أو تتجوزها جواز عرفي .. وسأتكفل أنا بكل ما يمكن أن ينشأ من تكاليف بشرط أن تعيش معها هنا في « مدريد » .. أحضرلك شقة زي بتاعة «شاهيناز » ، ونعمل رحلات سوا الى «ماديرا » « والكناري » ونهيّص .... وآخذ معانا مراتي الألمانية) . سكت برهه أردد هذا الأمر الخطير في أعماقي ، وأتذكر النعيم الذي كنت فيه .. زوجتي .. عائلتي .. مرسمي .. أصحابي وراحة بالي .. ولم أجب فقال «أسيبك تفكر » . سأترك نعيماً مضموناً لأدخل دنيا مجهولة خطيرة خطرة .. !

غـــرام في مدريـــد

بين الرغبة والرهبة :

في مدريد .. اليوم التالي .. اتصلت بي «عزة» تليفونياً من طرابلس ومما قالته (انت كنت فين امبارح ... سافرت رحت فين ؟ .. أنا جايه بكره «مدريد» استناني .. .. «شكري» سابني وراح لمراته في آخن وأنا وحدي هنا بكلم الطوب ... حاطق). أردت أن أجرب مدى سلطاتي المالية في المكتب ، فطلبت من «ماريانو» مائة ألف بستو «أي ألف جنيه».. وفي خلال ساعة كانت في يدي ، وكانت هذه أول مرة أطلب فيها أي نقود ، ولم تكن قد انتهت الألف جنيه الأولى التي أعطاها لي «الفارز» صبيحة وصولي «مدريد» .

لم أرغب أن أستقبل «عزة» بالمطار .. وأرسلت لها «تريزا» و«الفارز» بالسيارة لانتظارها في مطار «مدريد» . ذهبت بعد وصولها تواً الى فندق «ايروبلدنج» حيث حجزت حجرة في نفس الطابق الذي تشغله شقتي ، واتصلت بها تليفونياً واعتذرت لعدم انتظاري لها ، وقلت لها إنني على أحر من الجمر لرؤيتها ، ولكني لم أرغب أن أطلق ألسنة الذين بالمكتب معي .. وقالت أنا مستنياك نأخذ الشاي مع بعض ... تمهلت عامداً متعمداً ، حتى لا أوجه انتباه «الفارز» أو «تريزا».. وانصرفت كالمعتاد تماماً ولكنني كنت أود لو أطير اليها .

الاشتياق يطفأ بالعناق :

ضغطت على زر جرس باب غرفتها .. وسمعت هرولتها عندما أسرعت لفتحه ، وجذبتني داخلاً وألقت بنفسها بين ذراعي فقبلتها .. وجلسنا في صمت لمدة ، ثم قالت .. («شكري» اتصل بيك ؟ .. قالك إيه ..) فلم أشأ أن أخبرها بكل ما حدث .. وأوضحت لها كيف (أنني قضيت سهرة معه ومع زوجته «بآخن») .. وسألتها (عملتي أنتي معاه إيه) .. قالت (اسمع يا حسن ده ما فيش منه فايدة .. أنا حاسيبه .. ومش عارفه أعمل إيه .. ومش ممكن أقدر أتعامل مع «الطرابلسي» .. ده أوحش من شكري ألف مرة زيادة عن وساخته .. ده عرض عليّ الجواز .. ولكن هو جواز الليبيين ينفع

معانا .. ده عنده مرتين وأولاده كتير ..مزواج ومش حاقدر عليه . ده ألأم من شكري) فقلت لها لأول مرة («شكري » ما عندوش مانع تروحي مصر ويعوضك .. يعملك شقة وعربية وشتلة فلوس) فقالت (هو قالك كده ؟ ..) وأخذت تفكر قليلاً ثم قالت (وقال إيه كمان ؟) قلت (الحقيقة هو خايف ترجعي «ليبيا » تعملي فيه حاجات ومحتاجات) .. فضحكت وقالت ليه (حا أستفيد إيه .. ده غبي) .

وقامت تستعد للخروج معي .. وقالت (يلا نسهر مع بعض بره .. ده أنا عمري ما سهرتش معاك سهرة لوحدنا ..) طفنا بالسيارة في أنحاء مدريد وانتهى بنا المطاف في المطعم المكسيكي .. ثم أخذتها الى المطعم الأميريكي «الأبيج » .. سان فرنسسكو .. ولكنها لم تستطيب المكوث فيه وطلبت الرجوع الى الفندق ..

بلاش عذاب ما ترمنيش للكلاب :

ولم يطل بي المقام في شقتي حتى دخلت علي .. في زينة وجمال وأنوثه تفوق الوصف .. وأعادت الكرة التي قامت بها أول ليلة قابلتني فيها في نفس هذا المكان ، قبل سفرها الى ليبيا ، .. أعدت الشراب والطعام والموسيقى ، وجلست بجواري ووضعت رأسها على صدري وأخذت تبكي وعبثاً حاولت كفكفة دموعها - .. ثم قالت (خدني يا حسن .. ولا ترمنيش للكلاب أنا ربنا بعتك لي عوضاً عن اللي ضيعته وراح مني ده أنت نسخه طبق الأصل منه .. حتى في صوتك وريحتك وحركاتك .. سبحان الله) وكانت تقصد الرجل الذي مات في سبيل حبها .. وكان سبب ضياعه كبرياؤها .. الخاطئ .

الافضاء بالأسرار مليء بالأخطار :

فلم أتمالك إلا أن أقبلها ، فاستوت جالسة وبدأت تشرب بشراهة .. وانطلقت عقدة لسانها ، وأخذت تسرد علي خفايا أعمال «شكري » ، وكيف أنه ضالع في صفقات مريبة . وكيف أنه وشركاءه كانوا يستأجرون الطيارات الخاصة ، ويتابعون أصحاب السلطات في بلاد مختلفة ، ليحصلوا على توقيعاتهم على عقود أعمال ضخمة .. غير عمليات تهريب رهيبة ، فتذكرت حينئذ كيف أن عقوداً عدة قد وقع عليها ، بعد أن قطعنا الأمل منها ... وموافقات وتنازلات .. وقع عليها من أشخاص في مراكز عالية جداً .. لا بد أن تكون قد تمت بطرق ووسائل غير عادية لغرابتها ، وسهولة الحصول عليها بسرعة ، .. وكان أثر هذا الحديث علي ... أن بردت عواطفي فجأة ، وزال اثر الإثارة العارمة التي أشعلتها «عزة » وسقط قلبي في قدمي .. لأني تحققت أنني

غارق لعنقي في مستنقع «شكري» .. ولا بد أن يكون ما حدث لي في مطار القاهرة هو أثر ما عرفته المباحث من اتصال «شكري» بي ، وسهرة «هلتون» ، ولا بد أن المباحث تشك فيه وفي أعماله .. هاجتني الهواجس والأفكار السوداء .. وبدأت أفكر فيما سوف أعمله لأخلص نفسي من هذا البلاء وأرجع إلى القاهرة ...

النزوات الجنسية مصائب إنسانية :

شعرت «عزة» بما في خاطري .. وغيرت موضوع الحديث وبدأت تتكلم في مواضيع مثيرة جنسياً ، بينما كانت تبدي مفاتنها بمكر ومهارة وخفة ، كأن ذلك غير مقصود وأطالت في شرح نزوات شكري الجنسية ، وكيف أنه يهوى رؤية ومشاهدة العمليات الجنسية ، وخاصة الشاذ منها .. وكثيراً ما كان «ماريانو» يعد له السهرات الحمراء .. ثم أقسمت أنها لم تعاشره جنسياً ، إلا بعدما وعدها بالزواج ، ولما تأكدت أنه يخدعها ويكذب عليها ، انقطعت عنه ، وخصوصاً أنه قد فقد رجولته لإفراطه في الشذوذ .. ، وخاصة أنه يتناول العقاقير والمخدرات ، ووصفت لي بتفصيل ما كان يفعله ليثيرها ولكن هيئته ووجهه وصوته .. كانت تقززها كلما تذكرت شذوذه ..

الصباح رباح :

وفي الصباح .. وجدتها لا تزال بجانبي في الفراش . نائمة ، بينما كنت أجيب «شكري» في التليفون من «آخن» وكان يسألني عما قر رأيي عليه بخصوص الموضوع الذي عرضه علي .. حتى يطمئن .. وكانت «عزة» قد استيقظت ، وانتبهت تستمع المكالمة ، لأن صوته كان مسموعاً عبر السماعة ، وحاولت جهدي أن أجعل المحادثة مبهمة ، الا أن شكري ذكر اسم «عزة» وأخذ يصف لي الشقة الموعودة في «مدريد» وسياحتنا معاً في «ماديرا» وجزر «الكاناري» وأنه ينتظر بفارغ الصبر الحياة الهنية بعد تلاقينا عائلياً أنا و «عزة» وهو وزوجته .

أفاقت «عزة» من نومها تماماً ، وأخذت تضيق علي الخناق ، حتى اضطررت أن أخبرها بكل ما حدث ، فأطرقت تفكر .. ثم قالت وأنت رأيك إيه ؟ .. قلت لها ، (أنتي في عنيه الأثنين المشكلة مش أنتي .. المشكلة أنني لازم أهرب من المصيبة اللي أنا فيها .. أنا راجل شريف لي سمعة ولا أستطيع علشان مال الدنيا كلها أن أشترك في هذه القاذورات . وكمان انتي لازم تهربي من المساخر دي) .. فقالت (شعرة من ذقن الخنزير أحسن منه .. بالنسبة لي .. تتجوزني ما تتجوزنيش ترافقني ما ترافقنيش ، زي بعضه ،

أنا بقيت بتاعتك .. حاتروح مني فين؟..) وتعلقت في رقبتي تعانقني وتقبلني بفرح عظيم .. ودارت ترقص حولي فرحة كالطفلة وقالت (يلعن أبو الفلوس ياللا نروح على مصر .. وخليك مع مراتك ، وعمرها ما حا تعرف علاقتنا .. ونعيش من الباب الخلفي زي ما كل المتعوسين بيعملوا .. إن كنت تحب .. اتجوزني عرفي علشان نحمي نفسنا من كلام الناس والجواز العرفي أنت عارف مالوش آثار مدنية بمصر ...

راحت السكرة وجت الفكرة :

الواقع أنني شعرت أن حملاً ثقيلاً رفع عن كاهلي ، وبدأت أفكر في وضع خطة للسفر ومغادرة «مدريد» وشكري والمكتب .. بلا رجعة ، كما بدأت أرسم خطة لذلك مع «عزة» .. وقالت «عزة» (مش وقته .. «ياللا بنا يا للا .. الدنيا النهار ده حلوة ..)

الفصل الخامس عشر

ما وراء السِّتار

سقوط القناع

اليوم خمر وغداً أمر :

قررت أن أمسح من تفكيري كل المشاكل . وأقضي بقية الأيام المتاحة لي في « مدريد » في السياحة والتمتع بالفراغ فأنا «مليان فلوس » وبصحبتي حورية من الجنة فقلت متمثلاً بقول شاعر العرب وأحد أصحاب المعلقات «أمرؤ القيس » « اليوم خمر وغداً أمر » رغم اختلاف المناسبة التي قال «أمرؤ القيس » فيها قولته هذه .. اذ كان في مجلس مع ندمائه يعاقر الخمر .. وبلغه مقتل أبيه .. ورغم أن العرب مشهورون بالثأر وأخذه .. أو أخذ الدية .. فإنه رغم تأثره البالغ لمقتل أبيه ، لم ينه ليلته ، وقال قوله المشهور .. وفيه :

رباني صغيراً وحملني دمه كبيرا .. اشربوا يا ندمائي ، فاليوم خمر وغداً أمر ..

لا تمهلا في طلب الثأر .. بل تأكيداً لمعنى : لا عيش اليوم .. وليأتي بعدي الطوفان .

محطة في الجنة :

قضيت يومين .. في غفلة من الدهر .. أطوف «بمدريد » مع «عزة » .. زرنا المتاحف والمعارض ، وكنت أصرف دون حساب كما كان «شكري » يفعل وأزيد ولأول مرة في حياتي ، شعرت أن النقود في جيبي ، كأنها جمرات خبيثة تحرقه ، فكنت أبعثرها وأشعر بلذة غريبه لهذه «البعزقة» .. وكنت قد اتفقت مع «عزة » على الا نتحدث في موضوع غير ما نحن فيه من متعة .. دون ما في الماضي من ذكريات أو ما في المستقبل من خفايا .. كأننا نزلنا في محطة في الجنة .

هبوط الشيطان :

استيقظنا من هذا الحلم المصطنع . على نبأ بأن شكري في «مدريد » وأنه ينتظرني الساعة العاشرة في بهو الفندق ، ولم أكن قد أخبرته بأن «عزة » قد حضرت من «ليبيا » وهي في «مدريد » ، وكان حضوره مفاجأة دون سابق انذار ، دليلاً على أنه كان يريد مفاجأتنا ، لأنه لا بد كان يعلم بوجودها معي في الفندق «بمدريد » ، ولقد احترزت

« عزة » ولم تقم معي في جناحي ، بل شغلت غرفة مستقلة .. فكنا رسمياً منفصلين ..

قابلني شكري ببشاشة مبالغ فيها .. وأخذ يحادثني في أعمال المكتب .. وقال لي إنه زار المكتب ولم يجدني ، ويرجو أن أكون قد استمتعت بوقتي .. وشعرت أنه يستدرجني .. فقلت له «على فكرة «عزة» هنا في «مدريد» وفي اللوكاند دي .. » فابتسم وقال (أنا عارف ده .. وماله يا حسن بك ده كويس خالص ..) ثم رجع الى حديثه عن الأعمال وتناقشنا في بعض الخطوات التي سنجريها .. ثم قال (إنه كان في طريقه الى « لندن » ماراً «بمدريد» لاجتماع مع «ستيوارت» واشتامر بخصوص عطاء مصنع الألمنيوم وأراد أن يراني) .. ثم قال (أزي «عزة » ؟ أنا مش قلتلك إنها بتموت فيك) .. وعلمت عندئذ أنه لا فائدة من الكذب أو كتمان الحقيقة فأخبرته بالحقيقة كاملة وكذبت فقط .. بقولي إنني كنت أتبع ارشاداته وإني وإن كنت جاريت «عزة» فإن ذلك لمصلحته .. ولكني طبعاً لم أخبره بما قالته «عزة » عنه وعن شذوذه وضعفه وانحلاله ..

فقال (أوعى تكون صدقت كلام «عزة ») .. قلت (طبعاً لا) .. ثم قال (والا الكلام اللي قالته على «ماريانو» وسهراته الحمراء) . وعندئذ لاحظت أنني لم أذكر عن « ماريانو » أو سهراته شيئاً ، فتعجبت جداً .. كيف عرف أنها تكلمت عن سهرات حمراء .. وعن «ماريانو » ؟ ولكنني كتمت شعوري ولم أجعله يلاحظ شيئاً .. ثم سألني .. (نويتو على إيه) ؟ قلت (خلاص حاتجوز «عزة» عرفي) .. (وقلت لها إنك راح تعوضها) قال (طيب خلاص استابينا أنا على وعدي .. حا أحط النهار ده باسمها في بنك انجلترا ما اتفقنا عليه خمسة وعشرين ألف دينار ليبي أو ما يعادلها وخمسة وعشرين ألف تانين .. يندفعولها بعد سنتين بشرط ما ترجعش ليبيا ولا تتصلش بحد هناك) .. فقلت له (ما تقلها أنت الكلام ده) .. فأخبرني (أنه لا يحب أن يواجهها هنا بعد أن حضرت وعاشت معي .. ثم ودعني.وانصرف فرحاً على أن يتصل بي اليوم التالي ..

الحيطان لها ودان وعينين :

صعدت الى «عزة » في غرفتها ، وكانت تنتظر على أحر من الجمر (أيه الأخبار؟) فقصصت عليها ما حدث بالضبط .. وقلت لها (الظاهر أن كلامه مظبوط) قالت لي (أنا عارفاه أكثر منك .. حكايته دي غريبة أنا مش فاهماها جه خمسة وعشرون ألف عفريت يركبوه) وعندئذ تذكرت أنه حدثني عن السهرات الحمراء «ومريانو» دون أن أذكر له شيئاً عنها .. وعندما أخبرتها بذلك امتقع لونها .. وقالت (يا نهار أسود ابن

الكلب عمل فيك الحاجات اللي بيعملها في الناس التانيه .. يا ريتني كنت قلتلك .. ده أنا رخره وقعت ..) .

ثم همست في أذني .. (الحيطان هنا لها ودان .. تعال نروح شقتك) وفي الطريق قالت هامسة .. (ده ملغم الشقة بتاعتك بمكروفونات وحاجات .. ولما كنت خبيراً في هذه الأدوات دخلت الشقه صامتاً .. وفحصت محتوياتها أو أجزاءها فحصاً دقيقاً فوجدت أن بها ميكروفونين واحد منها بقرب الفراش .. ثم وجدت ثلاث مصورات (كاميرات) صغيرة من طراز لا أعرفه .. يعمل أوتوماتيكياً . والغريب أن الميكروفونات دون سلك وهي عبارة عن جهاز ارسال صغير يرسل ما يلتقطه لمسافة قصيرة .

خرجت فوراً من الشقة مع «عزة» ودخلنا حجرتها ، نفتشها ، وفحصتها فحصاً دقيقاً جداً ولم أعثر على شيء .. وحمدت الله أن ما قيل في غرفتها لم يسمع أو يسجل فأخذنا نتكلم بحرية ونتباحث في الأمر .. واتفقنا الا نغير عادتنا في الكلام ولكن يكون الكلام طبقاً لخطة نضعها .

خـــزانة الأسرار

شقتي الفاخرة مصيدة ساخرة :

الواقع أنني غرقت في لجة من النكد .. وازداد رعبي ، وأخذت أضرب أخماساً في أسداس .. كذلك «عزة» .. أصبحت في هم وغم .. ومضينا النهار نجول .. الشوارع دون هدى .. ولم نستطع أن نتناول أي طعام .. ولكني لم أفقد قدرتي على التفكير السليم . وكذلك كانت «عزة» فقد شحذت قريحتها .. وأخذنا نستعيد الحوادث التي مرت علينا .. وخاصة ما مر بي أنا شخصياً منذ اليوم الذي قابلني فيه «شكري» ، وعرض علي العمل معه .. وبمراجعة ومبادلة ما تعرفه . علمنا أن الجناح الفاخر الذي أشغله محجوز دائماً باسم المكتب . ويشغله ضيوف المكتب ، وكثيراً ما أقيمت فيه سهرات واجتماعات .. وأن بعض الأشخاص كانوا يقيمون فيها في أثناء وجودي في «ليبيا» .. وأقيمت فيه سهرات عديدة .. في أثناء غيابي .

فحص وبحث عن مصدر الخبث :

وبعد مباحثات ومساءلات بين «عزة» وبيني .. سألتني «عزة» هل أحتفظ بمفتاح للمكتب .. فأجبتها بالايجاب فقالت (دعنا نذهب هناك في المساء بعد أن نتأكد أن كل موظفيه انصرفوا .. وسوف نرى) . في الساعة التاسعة استقلينا سيارة أجرة ، بعد أن صرفت سيارتي ، وفتحنا المكتب .. ولم يمكنني أن أنقطع عن الهزر .. حتى وأنا في هذه الحالة . فأخذت أحكي «لعزة» قصة العفريت الالكتروني ، وأريتها مواقع بحثي عن مصدر وراء العفريت ، وكيف وقعت تحت دولاب الملفات ، وقمت أنا و«عزة» بتفتيش المكتب بدقه .. وعناية ، فلم نجد شيئاً غير عادي ، ولكني تذكرت أن ماريا كانت قد دخلت حجرة معينة عندما أحضرت – الصور التي التقطت لي خلسة لتريني ، إياها يوم كانت تستعرض محتويات المكتب علي .

صدفة في الظلام تؤدي الى مأوى الآلام :

فحصنا «عزة» وأنا الغرفة .. ولم نترك شقاً فيه دون تفتيش ، وكدنا نيأس بدأت

أنقر بأصبعي على الكساء الخشبي (الوزرة) ، الذي يغطي النصف الأسفل من جدران الغرفة ، وأتسمع ، فوجدت جزءاً أحسست أنه يختلف عن ناحيته ترديده لصوت النقر.. وبعد فحص واختبار عثرت على نتوء صغير في الخشب غير ثابت . بل يهتز تحت ضغط يدي .. وعبثت به ، فلم يحدث شيء وبينما أنا في هذه الحالة .. ضغطت «عزة» خطأ على مفتاح النور فانطفأ ، وبمجرد انطفائه تحرك النتوء وانزلق جزء من (الوزره) أي الكساء الخشبي .. ولما أضيءالنور رأينا وراء الجزء الذي تحرك لوحة بصورة وبدأت «عزة» تعالجها ، فانزلقت ، وكشفت عن أرفف مهيأة بخانات عديدة وبهذه الخانات علب ، مثل علب الملفات التي تغلق بغطاء ، وعلى كل منها رقم واضح ولم نتمالك إلا أن نقوم بفحص هذا المكان السري .. فاتضح لي أنه لا يمكن فتحه مطلقاً إلا في الظلام ، وهذه حيلة جديدة .. لأنه عادة تفتح الأبواب والأدراج وغيرها في النور ، ولا يتصور إنسان أن الضوء يمنع فتحها .. ولولا أن انطفأ النور فجأة دون قصد لما أمكننا فتح هذا المكان مطلقاً مهما فعلنا...

وبفحص العلب وجدناها تحوي الكثير .. (صور .. وثائق .. شرائط .. تسجيل) وكل علبة من هذه العلب بها ما يتعلق بشخص ما . فأسرعنا بفحص المحتويات لان الملفات عليها أرقام وليس عليها أسماء ، فوجدنا علبة بها صور لي وأوراق وشرائط تسجيل ، وكذلك وجدنا «لعزة» علبة خاصة بها أوراق وشرائط وأدوات صغيرة نسائية ، وعلب أخرى بها ما يتعلق باشخاص في مراكز سياسية واجتماعية هامة جداً ، وغيرهم مما تعرفهم عزة في «ليبيا» وفي مصر .

إخفاء الآثار يحمي من الأخطار :

وطبيعي أن نقرر أخذ علبتينا ، بعد أن نتأكد من عدم وجود غيرهما . مضى أكثر من ثلاث ساعات علينا في فحص هذه الملفات والعلب .. وانتقبت «عزة» بعضاً من محتويات العلب الأخرى ، وجمعتها ووضعتها في لفة حزمتها .. ولم تستعمل حقيبتي المكتبية التي كنت أحتفظ بها في مكتبي .. وقالت إنه يجب الا يعرف أحد أننا كنا هنا ، فاذا افتقدت «ماريا» حقيبتك ، عرفت أنك كنت هنا .. كذلك يجب أن نرجع العلب مكانها بالضبط حتى العلب التي كانت بها متعلقاتنا ، بعد أن نضع فيها أوراقاً وأشرطة من العلب الأخرى .. فلا يظهر أن أحداً عبث بها .. إذا فتحت ، من المستبعد أن تفحص بفتحها واخراج ما بها الا بعد وقت غير قصير .. وقالت «عزة» إن «ماريا» ضالعة مع «شكري» وشركاه . وربما كانت شريكة هامة في هذه المنظمة ..

وبعد أن جلسنا نفكر .. قالت «عزة» «ماريا» قطعاً ستكتشف ما حدث .. ويلزم الا نثير الشبهة بنا .. لذلك نرجع الى الملفات ما لا يهم من مستندات وصور لكل منا .. ونأخذ من الملفات الأخرى ما يمكن أن ينفعنا ثم نخلط المحتويات بحيث إذا اكتشف الأمر يمكن أن يوجه الشك الى غيرنا من أعداء «شكري» الكثيرين ..

وهكذا خلطنا المحتويات بعناية ، وتركنا بعضها دون خلط ، ثم تركنا علبتي وعلبة «عزة» وفيها كثير من المستندات والأوراق غير ذات الأهميه .. وأخذنا نمحو آثار زيارتنا بكل دقه وعناية ، ثم انصرفنا نحمل حزمة كبيرة بها ما جمعناه .. وكانت الساعة الرابعه صباحاً ..

المستنقع

كشف الستار عن أخطر الأسرار :

قضيت الليله في غرفة «عزة» حتى يمكننا أن نتكلم بحرية ، لتأكدنا من خلوها من أجهزة التنصت والمراقبة . في الصباح قمنا بفحص الأوراق وغيرها ، واستمعنا إلى التسجيلات .. كانت الأوراق عبارة عن خطابات وتقارير على «عزة» وتقارير علي أنا وملف به تاريخ حياتي بالتفصيل ، وفيه أشياء لا يمكن أن يعرفها إلا أقرب الأقربين ، وكذلك كان التقرير عن «عزة» .. تقرير بتحركات كل منا .. أما التسجيلات فكانت مكالمات تليفونية ، وخصوصيات في منتهى السرية .. أما الصور فكانت كذلك لخصوصيات كل منا في شقتي بمدريد ، وفي «ليبيا» والحقيقة ليس في ما يخصني فيها شيء يدينني .. غير المضايقة وفضح الخصوصيات ، ولكن كان «لعزة» أوراق ووثائق تدينها في عمليات مريبة بالمكتب ، غير خصوصيات مؤذية حقاً . والغريب أننا وجدنا علبة خاصة لزوجة «شكري» الألمانية غرقانه لشوشتها في مصائب . ولم ينج من هذا ، «الطرابلسي» ويحيى وكثير من الشخصيات العامة في «ليبيا» وبفحص الصور ، الفوتوغرافية عرفت أنها أخذت بالأشعة فوق الحمراء وبطرق حديثة تصور في الظلام أو في النور بأفلام خاصة .. فقالت «عزة» (شفت بقى يا سيدي .. أنا كنت حسه بكدة وعلشان كدة كنت أنا زُخرة بجمع حاجات توديه في داهية .. أنا معذورة في كدة .. والا لأ ..؟..) .

والحقيقة أنني كنت أقرب الى حالة الغثيان من أي شيء آخر ، وثارت في داخلي معركة رهيبة فيما بين فتنتي بهذه الحورية الساحره الخطرة ، وبين عقلي وتجربتي .. وما يوحيه ضميري تجاه هذه القاذورات وبحاستها السادسة الغريبة .. شعرت «عزة» بما طرأ علي .. وبدأت حملتها الأنثوية الفتاكة العارمة ..

يا ترى هيه مين ؟ :

توجهت إلى المكتت حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً بعد أن تحفظت على ما يخصني مما وجدناه ، وتركت «عزة» تهتم بالبقية ، ولم ألاحظ أي تغيير مطلقاً في المكتب .. كل في

عمله .. وتريزا تعد «الجن تونك» وترمقني بنظرات نصفها خبيث والنصف الآخر مستطلع .. وقالت إنهم افتقدوني هذين اليومين .. ولم يجرأ أحد منهم أن يذكر «عزة» من بعيد أو من قريب .. ولم أمكث بالمكتب ساعة أراجع بعض الأعمال حتى اتصل بي «شكري» من «باريس» وقال لي إنه مضطر للتأخر يوماً آخر . وسيكون في «مدريد» بعد باكر ، ولقد رتب الأمور المالية – فاطمأن خاطري لأن زيارتنا للمكتب لم تكتشف بعد .. وإن اكتشفت فلن تحوم الشبهة حولنا .. وفكرت في أن أدعي أن مفتاح المكتب فقد مني بعد أن سافرت إلى ليبيا وخاصة أنني لم أستعمله أبداً إلا في ليلة زيارتي للمكتب مع «عزة» .. وسوف أوحي بذلك في أي مناسبة تسنح دون لفت نظر .. ولما قرّ قراري ترتبت في ذهني خطة ما سأقوم به .. انفرجت أسارير وجهي ، وبدأت أتندر وأهزر كعادتي .. وسألت «تريزا» عن حبيبها و«الفارز» عن زوجته في «بارشيلونا» وكان في زيارتها ولمحت له هل أرضته ؟ وحضر «ماريانو» كعادته وافتتح البار أي مبيت القناني ، وقال .. لنحتفل .. ودعا «ماريا» التي أخذت أوجه لها عبارات الغزل والتندر .. وكنت في ذلك مخاطراً لئلا تزجرني ولكنها ضحكت علي .. وبمكر ودهاء قالت «اليومين دول يظهر انك مبسوط قوي خالص يا ترى هيّه مين ..؟»

رسم الخطة :

رجعت الى الفندق ووجدت «عزة» في أكمل زينه .. «متولته للآخر» وقالت لي (يا للا نتغدى بره) .. وهكذا أمضينا بقية اليوم نتجول في «مدريد» ونتسوق .. ثم ذهبنا إلى السينما ورجعنا إلى الفندق .. وفي غرفتها رسمنا الخطة الآتية : –

(«عزة». تقابل «شكري» ضاحكة شاكرة .. «وتفهمه أنها كانت ترغب في الاستقرار وحماية نفسها من تقدم العمر .. والحمد الله لقيتني لولا «شكري» وإنسانيته ما كان ذلك يحدث .. وهي لا تريد من «شكري» شيئاً ولا تنسى الأيام اللطيفة التي قضتها مع «شكري» .. والحقيقة أنها تحب «شكري» كأنه أخوها بالضبط .)

ثم أفصح أنا عن اعترافي بفضله . وخصوصاً لأنه لم يغضب لعلاقتي «بعزة» .. وذلك منتهى نكران الذات منه وأني أنتظر بفارغ الصبر استقراري في «مدريد» مع «عزة» وسنكون أنا وهي في خدمة المكتب ، غير صداقتنا وتمتعنا بالحياة كما حدث في «ماربيا» ..

ثم نوصف ما سنعمله في المستقبل أنا وعزة وهو وزوجته ، ثم تستأذن عزة في

الذهاب الى «ليبيا» لاحضار أمتعتها وبقية أشياء خصوصية . وأستأذن أنا للذهاب الى مصر لقضاء أعياد رأس السنة مع عائلتي ، على أن أعود في ميعاد غايته ٥ يناير ... وتكون ، إجراءات إعداد السكن قد انتهت .. وهذا ما رتبناه بخصوص «شكري» .

ولكن حقيقة ما اتفقنا عليه هو أن «عزة» بمجرد إنهاء أعمالها في ليبيا تحضر الى مصر وتنهي صلتها «بشكري» وتعيش في بابي الخلفي ... دون إزعاج عائلتي .. أو جرح إحساسات زوجتي .

لكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة :

تم هذا الاتفاق وقلبي يكاد يتمزق لشعوري بأنني أخون رفيقة عمري «خديجة» وابنتي .. بل ونفسي .. وأرتكب خطيئة الأكل من ثمار الشجرة المحرمة .. فأطرد من الجنة .. عبثاً حاولت أن أقرر التخلص من «عزة» وهذه الأحوال المريبة .... وما فيها من قاذورات .. فلم أتمكن .. كأني كنت تحت تأثير قوة هائلة خفية .. تجرني نحو هذا المستنقع .. وكأني كنت تحت تأثير تنويم مغناطيسي .. لا قدرة لي على التفكير السوي بكل ما له علاقة «بعزة» ...

كان يكفي أن يزور مخيلتي طيفها .. ويتردد في أذني صدى صوتها ، حتى أكاد لا أعي شيئاً سواها .. وكثيراً ما ساءلت بنفسي ما السر وراء هذه القوة الخفية ؟ ولكني لم أوفق لمعرفته إلا بعد أن رجعت لمصر .. واحتضنتني عائلتي .. ورأيت محيا «خديجة» وما يحوطنا من طهر ، ختى تبددت هذه القوة ، وتعجبت كيف وقعت في هذه المصيبة .. وعلمت أنه إذا تهيأت الظروف وتجمعت .. وخاصة في الغربة والوحدة والقلق .. يصبح الانسان كالغريق الذي يضع أمله في قشة ، والحكمة هي أن نتجنب هذه الظروف .

وتمت الخطة كما رسمتها أنا و «عزة» بالضبط ، كما وضعناها وأعطى شكري « عزة » شيكاً بمبلغ خمسة وعشرين ألف دينار وقال ضاحكاً .. (ده أنتي تستحقي مليون يا «عزة» ثم قال لازم يعني تروحي طرابلس دلوقت .. ما تخليك يا حسن بك في « مدريد » مع «عزة» وبلاش السفر ده .. دي «مدريد» حلوة جداً في أعياد الميلاد ورأس السنة) .. قالت «عزة» (أنا عايزه أجيب حاجاتي هنا وأستقر بقى بعد الشحططه .. وحسن راجع بعد ما يشوف عيلته .. النهار ده ٢٢ ديسمبر أنا حكون هنا في مدريد يوم ٢٦ على الكثير .. تكون «شاهيناز» لقت لنا الشقه .. ييجي حسن يلاقي كل حاجه تمام ..)

العشاء الأخير :

دعانا «شكري» لوليمة دعا اليها «شاهيناز» وقضينا سهرة .. ولكن لم أدر لماذا كانت خالية من المرح .. ولم أتمكن مطلقاً من الانطلاق كعادتي .. وبعد أن انصرف الجميع ، واختليت «بعزة» في غرفتها .. قالت «عزة» «شكري» مش زي عادته ، وبيمثل ، ثم مرت علينا دقائق صامتين بينما تستعد «عزة» للنوم وكعادتها لم تهمل زينتها أو خلاعة حركاتها ، ثم ارتمت بجواري وقالت إنها لا بد أن تسافر باكراً الى طرابلس وتعمل حسابها ترحل الى مصر يوم ٢٥ أو ٢٦ على الأكثر «وأنت يا حبيبي تعمل حسابك تسافر أنت كمان في نفس الميعاد ونتقابل في مصر .. ونسيب ورانا الخونه دي كلها .. » .

الفراق الأليم والقلب الكليم :

وقضينا وقتاً نحلم بالحياة الحلوة التي سنحياها في مصر ، ونرتب كيف سوف لا تؤثر حياتنا على زوجتي أو ابنتي .. وفي الصباح .. قام «الفارز» بعمل ما يلزم نحو حجز مكان «لعزة» في طائرة تغادر مدريد الساعة الحادية عشرة .. وكان وداعها لي مؤثراً جداً .. وكانت تبكي بحرقة .. وتتعلق في عنقي وتقول .. (يا حسن أنا خايفه مش عارفه ليه) .. وانتزعت نفسها انتزاعاً .. كما كنت أنا في حالة شعور بضيق عظيم لا أعرف كنهه . غابت الطائرة بها في الأفق . ورجعت إلى الفندق أحزم أمتعتي ولم أطق المكوث فيه ، فاتصلت «بشاهيناز» تليفونياً وطلبت منها أن تخرج معي تساعدني في شراء هدايا لزوجتي وابنتي فتفضلت مشكورة وصحبتني في جولة على المحلات الكبيرة .. .. وكان قصدي من ذلك أن لا أنفرد بنفسي خوفاً من الوحدة ..

دخلنا «الكورت لنجليز» وهو محل كبير جداً على نمط المحلات في باريس ولندن ونيويورك .. يزخر بما لم تره عين أو تسمع عنه أذن في مصر .. ولولا «شاهيناز» لتهت بين البضائع .. ولم أتمكن من اختيار شيء يصلح .. لتشتت أفكاري .

غبار النجوم اللماع :

ولم يفترق ما رأيته في «مدريد» عما تراه عادة في لندن في مثل هذه الأيام .. غير أن «مدريد» ليست مزدحمة ازدحام «لندن» ولكن في «مدريد» نسمة ولمحة جمالية فنية ليست في «لندن» أو غيرها من المدائن ، فالشوارع مزينة ببزخ لم أره في مدينة

غيرها .. ومدريد تظهر ليلاً كأن النجوم قد نثرت ترابها الوضاح عليها .. فالأشجار تلمع ويتلألأ ورقها .. والثريات في كل مكان . وعناقيد المصابيح منظورة في عقود وقلائد . وتلافيف وتصميمات تملأ الشوارع والميادين ، والنافورات تخرج مياه مضيئة راقصة .. والموسيقى تصدح في كل مكان .. والناس يجوبون بين هذه الزينات فرادى وجماعات .. والغريب مع هذا كله .. لا صخب ولا ضوضاء .. ولاحظت غياب العري وانتشار الحشمة واعتدال النساء .. وهدوء الفتيات وندرة التبذل الذي يشيع في المدن الأخرى .

وكأنني في الغاب لأن الكل غاب :

رجعت الى شقتي بالفندق ثقيل القلب .. وبدأت أحزم ما اشتريت وأرتب أمتعتي وكنت قد كلفت «تريزا» أن تحجز لي مكاناً في طائرة للقاهرة .. فاتصلت بي بالفندق تخبرني أنه بمناسبة أعياد الميلاد يتعذر الحجز .. وأنها سوف تترك «مدريد» لزيارة أقارب لها في «برشلونة» وكذلك «ماريانو» سافر ، وكذلك «الفارز» وها هي «تريزا» تترك «مدريد» أيضاً ... وحتى «شاهيناز» سافرت .. وهكذا تركت في «مدريد» وحيداً ، حتى مفتاح سافر الى «ليبيا» .. ولا يهمني ما حدث «لماريا» .. لرعبي منها .. وهكذا تركت وحيداً في «مدريد» .. وظننت أنني سوف أحرم من التمتع بجمال «مدريد» لوحدتي وكل ما فيها من جمال ومتعة أصبح لا طعم له وكرهته .. «وجنة من غير ناس ما تنداس» فاستعنت بقرصين منوم واستغرقت في خدر لا أحلام ولا أفكار فيه .

إذا عرف السبب بطل العجب

معاودة الأفكار تكشف الأستار :

استيقظت مع الفجر .. ولم أتمكن من النوم .. مطلقاً فاستمتعت بحمام جميل .. فجرى الدم في عروقي . نشطت وجلست في الشرفة أفكر وأراقب انسياب ضياء الصبح يتغلغل في ظلام الليل ويشتته .. وتمنيت أن يتشتت ظلام الخوف والرعب من ذهني ودارت في فكري أمور «شكري» وأطواره وأحواله .

ماذا يريد .. ؟ أيريد حقاً أن ينتفع مني من الناحية الفنية ؟ إني أشك في ذلك .. هل يرغب أن يفيد مني لهيئتي وهيبتي ؟ .. ربما ولكن في أي ميدان ؟ أيريد أن يستغل اسمي وسمعتي ؟ ربما ولكن في أي ميدان ؟ أيظن حقاً أنني سأجعل حياته سعيدة بضحكتي وتندري وعدم مبالاتي وقدرتي على إحياء السهرات ؟ ربما ولكن هذا لا يتطلب كل هذا .. ؟ أيريد أن يستخدمني في عملياته المريبة دون أن أدري ؟ . وما معنى سفراتي الكثيرة بين عواصم أوربا لرئاسة جلسات مفتعلة .. لماذا .. أقحمني في مشاكله الغرامية .. وألقى «بعزة» في أحضاني . وكيف علم أنني سأقع في شراك جمالها ؟ .. لماذا وضعني تحت رقابته .. وجاسوسيته وتصنت علي .. وراقبني ؟ لربما كانت تلك عادته مع كل من يعمل معه احترازاً حتى يضع من يعملون معه تحت سطوته ؟ .. لماذا أغدق علي العطاء والبذخ وهو يعلم أن هذا لا يؤثر علي ، وهل لعلاقته بي صلة بمنعي من السفر في القاهرة ؟ خصوصاً أن ما علمته من صديقي الذي بحث الأمر في مصر أنني شوهدت مع شخص تحت المراقبة .. هل كان «شكري» تحت المراقبة ؟ .. لماذا إذن لم يمنعوه هو ومنعوني أنا ؟ .. ما مدى شرور «شكري» ؟ هل هناك خطر علي ؟ أو خطر على «عزة» ، وتذكرت «فردوس وابنها في مصر» فهو يرعاها ولا يؤذيها . وهي في مركز «عزة» بل أزيد ، لأن لها ابن منه .. أين يختفي «شكري» بين وقت وآخر .. ثم يظهر فجأة في عاصمة من العواصم أو مدينة من المدن هل حقيقي أنه يقيم سهرات حمراء .. جنسية لزبائنه ؟.. هل حقيقي أن عنده شذوذاً هل حقيقي أنه فاقد الرجولة عنين ؟.. هل ... هل ...؟؟؟.

الهروب للتخلص من الكروب :

إذا كان بعض هذا صحيحاً فلا يستبعد أنه غير متوازن عاطفياً ، ولر بما كان من ضحايا «الشيزوفرانيا » أو «الانفصام في الشخصية » .. تـردد كـل هذا في خيالي وضربت أخماساً في أسداس .. وقررت أن أفر . وأهرب بسرعة .. وأقوم بنفسي بحجز مكان لي للسفر في أول طائرة مهما كلفني الأمر .. وحمدت الله أنني عثرت على الوثائق والصور والتقارير والشرائط التي تخصني .. والواقع أنها خالية من أي شيء إجرامي .. ولكن فيها ما يلقي شبهة غير نظيفة .. وعلى أقل تقدير ما قد ينالني من قـاذورات «شكري » ومنظمته «واللي يجاور الحداد ينحرق بناره » ... وما يلحق عائلتي وزوجتي من أذى .

وحسن ظنك بالأيام معجزة فظن شراً وكن منها على وجل

بعد أن وازنت الحوادث ومجريات الأحوال ، تحقق لدي أن « لشكري » هـدفاً لا أعرفه في التغرير بي وإقحامي في أعمال مكتبه .. ولا بد أن يكون لي دور هام في عملياته ، وفي المنظمة التي يعمل معها .. واختارني بالذات ليقينه أنني حسن الظن بالناس ولا أظن شراً مطلقاً بأحد .. وتذكرت أنني عندما سألته لماذا يختار الرجال الذين تخطوا دور الشباب ليعملوا منه .. رد قائلاً (إنني أعتمد في حكمي عليهم على تاريخهم الطويل هؤلاء الرجال لا يمكنهم أن يغيروا من طبائعهم وغالباً يكونون بلا أطماع) وكان ذلك في مدار حديث عن المهندس «يحيى» زوج «ست الحاجة» الذي تخطى الستين بكثير ويعمل مع «شكري » في «ليبيا » .

طور الله في برسيمة :

وتصورت . الأثر الذي تتركه مقابلتي لعملائه وشركائه ، ولعله أفهمهم أنني ضالع معه ، ودوري كبير في عملياته ، ويفيد من ذلك باكتساب ثقة بعضهم والتأثير على البعض الآخر في الحصول على عقود أو صفقات .. فاذا قدرت مجموع ما قد يكون أنفقه علي أظن أنه لا يزيد عن جزء قليل مما كسبه من ورائي .. معنوياً .. ومادياً .. وأنا في كل هذا غير واع بما يحدث حولي ، ويقولون على من في مثل هذا الموقف «طور الله في برسيمه » .

التندر والبشاشة يذهبان التعاسة :

بعد تناول الافطار «نويت » أن أرجع لنفسي ولبشاشتي وتندري حتى لا تؤثر هذه

الأفكار السوداء على سوية تفكيري .. وتوجهت الى توكيل الـ «تي – دابليو – ايه» خطوط الطيران الأميريكي فقابلتني فتاة أميريكية .. عيناها تكادان تقولان للنضد الذي أمامها (والنبي أبقى سرير) ! وسألتها عن حجز مكان في طائرة الى القاهرة .. وعندي تذكرة من « الايتاليا » فقالت «جيب لي تأشيرة من مكتب الايتاليا » وأشارت بأصبعها الى مكتب في الشارع على ناصية شارع مقابل .. وهناك قابلتني فتاتان أختارتهما الشركة للغواية وزغللة عيون الرجالة .. فعاملتني برقة ولطف ، ووضعتا التأشير اللازم .. ورجعت للفتاة الأميريكية التي كانت لا تفترق عنهما الا أنها شقراء وتشترك معهما في أنوثة طاغية واعية .. والعجيب أن صورة «عزة » كانت تملأ خيالي .. ولو أن من عادتي تفحص جمال الإناث ، إلا أنني شعرت أن غياب صفات «عزة » عن هاته الفتيات جعلني أراهما عاديات عاريات عن صفات الجمال .

وتحدد ميعاد سفري يوم ٢٥ ديسمبر أي يوم عيد الميلاد بالذات ..

خرجت الى الشارع ، وقد انفتحت أمامي دنيا جديدة .. بعد أن اطمأن خاطري على أنني سأترك «مدريد» بعد يوم واحد وعزمت على أن أتفرغ «لمدريد» .. أعانقها وحدها ..

الفصل السادس عشر

أحببتكِ يا مدريد

في مدريد الغادة جمال فوق العادة

الأسبانيون سادة محتشمون :

يخيل لي اليوم .. أنني في لندن لأن «مدريد» تشبه في بعض النواحي «لندن» ولكن لها طابعاً مميزاً ، هو عدم الزحام ، ولو كنت أعرف الاسبانية لكنت عشقتها .. والاسبانيون سمر الوجوه نوعاً . وعيونهم تخالف في الشكل عيون الأوربيين .. لها استدارة وضيق .. وانحراف .. وجوههم غير معبرة ولا أقول جامدة ..

والجنس عندهم غير واضح المعالم .. ليسوا له . مظهرين ولا هم كابتون .. وهو بالنسبة لهم طبيعي كأي مطلب من مطالب الحياة ، له حدوده ومفهوميته واحترامه ... فهم في رأيي مثال يحتذى به في هذه الناحية .. ملابس الفتيات محتشمة ، وحمرة الخجل تسري إلى وجوه الرجال إذا حدث أمامهم ما يخدش الحشمة . للمرأة عندهم ، مكانة عليا .. وهي حاكمة البيت ، وللرجل سلطانه وارادته ، الكرم طبيعة فيهم دون تصنع .. إذا دخلت بيوتهم تحس كأنك في بيتك .. لهم خصال العرب القدامى ..

رفع النقاب عن خفايا اللباب :

استأذن في الدخول علي السيد «عبد السلام» وهو شاب «ليبي» كان «مفتاح» قد عرفني به .. جاء يودعني قبل سفري .. واقترح علي الخروج .. نجول في «مدريد» والغريب أن هذه أول مرة تتاح لي الفرصة للسير في «مدريد» منطلقاً دون هدف أتعرف على «مدريد» بتاعة الناس الحقيقي ، اللي معندهمش سيارات ولا فلوس كتير . قبلت الخروج حتى يمكنني أن أشغل ذهني عن «عزة» التي لا تفارق مخيلتي ، والتي غطى طيفها على ما عداها ..

عبد السلام هذا شاب صغير الجسم .. متوسط الطول .. حلو الشمائل «ليبي» وهو طالب طب في جامعة «مدريد» ولكنه لا يحب ما يجري في «ليبيا» من عنت ورجعية . ولأول مرة أخذت أتعرف على المنطقة التي أعيش فيها .. وأعرف اتجاهات الشوارع وتوقيع الفندق والمكتب .. وهكذا عرفت أن «تريزا» هذه الأفعى «شراية الصيني» .

قصدت عدم تركي وحيداً ، ورتبت الأمور حتى أكون حبيس السيارة ، ويكون سجاني السائق «بيترو» . واتضح لي لأول وهلة أنني لم أذهب الى «سفارتنا » أو «قنصليتنا » ولم أقابل مصريين طول إقامتي «بمدريد » وعجبت كيف حدث هذا .. واتضح لي أن هذا لم يكن صدفه بل بترتيب من المكتب .. حتى أكون دائماً تحت رقابتهم ..

وتبسطت مع «عبد السلام » ، وسألته عن أمور الاسبانيين وعاداتهم وتقاليدهم لأنه عاش في مدريد سنوات عديدة . استفسرت عن مظاهر الصون والعفاف البادي في «مدريد » فأوضح لي أنه يصعب إن لم يستحل أن تصادق امرأة لا تعرفها ولم تقدم اليها ، أما المحترفات بائعات الهوى فلهن أمكنة خاصة .. وعندما استفسرت عن هذه الأمكنة قال إن أغلب العاملات فيها أجنبيات عربيات مثل المراكشيات والجزائريات وأوربيات وطبعاً «نط » واغفل ذكر الليبيات .. فذعرت .. لانقلاب الحال بعد أن كانت غير العربيات هن المرفهات .. أصبحت بعض العربيات من المرفهات .. وسألته عما تتكلفه الواحدة .. قال حوالى ثلاثة آلاف بستو .. غير العشاء وربما تصل تكاليف المصاحبة أربعين ألفاً أي أربعين جنيهاً مصرياً وقلت له «الواحد يقدر يتجوز في مصر واحدة بالمبلغ ده » .. فقال ده صحيح ده لما كنت في مصر .. وانقطع عن الكلام فجأة ولم يكمل الجملة .. وكان وراء ذلك ما وراءه ..

الكاستلا والكاستليانا :

انتهى المطاف بنا الى ميدان «كاستيليا » .. وسألته لماذا هذه الكلمة شائعة جداً في أسبانيا .. إنني دائماً أسمعها .. فقال إن «كاستله » معناها (قلعة) ويستعمل السوقة في مصر لفظة كستلة في معنى قبيح .. ولأول مرة أيضاً ركبت المترو تحت الأرض .. أي «مترو الأنفاق» وكان يشبه لحد ما المترو في لندن ١٩٣٠ ولا يشبه «مترو» مصر الجديدة .. حيث «بتكاكأ» «المصرجديون » كل صباح فيه يماثلون ... السردين في العلب محبة في التلاصق والتحاضن ، وهم إلى مقار أعمالهم متجهون . المصْرجدي ، بمعنى المصر جديدي ، وهي لفظة نحتها من مصر وجديدة .. وهذا النحت معمول به في العربية فيقال الدرعمي والحضرمي من نسبه الى دار العلوم ونسبه الى حضرموت .. (ولعلها تعجب القارئ) .. ثم خرجنا الى سطح الأرض ..

عباءة النور :

كانت الشوارع في حلة قشيبه مدندشة .. منثور عليها في نظام وتشبيكات جميلة

أضواء جعلت الليل نهاراً .. وكأن «مدريد» كلها ردهة فندق عظيم في ليلة رأس السنة .. ولا أبـالغ إن قلت إنني لم أر شارعـاً غـير مغطى بلمبات كهربية منظومة في « جارلاندات » أي عقود تغطيه كما تغطي الشوارع تكعيبات العنب في الحدائق وكأن «مدريد » «كستها » عباءة من النور .

الوداع يا مدريـــد

ركوب الأتوبوس يسعد النفوس :

طلبت من «عبد السلام» أن أركب «أتوبوس» .. وركبت رقم (٢٧) الذي يسير في شارع «الجنرالزمو» ولأول مرة تمتعت برؤية «مدريد» ، وفيها من العظمة لا تقل عما في «لندن» أو «باريس» .. غير أن لمبانيها أصالة وترابطاً فنياً .. اخترق الأتوبوس الميادين التي سبق أن سارت السيارة بنا فيها مع «عزة» .. ولما لم أكن في هذا الوقت منشغلاً «بعزة» أمكنني أن أتفرغ لرؤية التماثيل والمباني .. والنافورات .

النافورة .. نفور والفسقية فسوق .. والحقيقة شندوان :

ولا أنكر أنني بينما أنا غارق في ما أراه من فنون .. خبطتني كلمة نافورة .. والنافورة أسم قبيح ، فعاودني دائي القديم .. تأصيل الكلمات .. (نافورة إيه يا قلالات الذوق) هل هي من نفر فهو نافر ونفور ونافور ونافورة والعياذ بالله .. لذلك يتجنبها ذوو الذوق السليم ويقولون «فسقية» .. الله .. الله .. «ما أقبح من ستي إلا سيدي» أي من الفسق أو الفسوق وألف العياذ بالله .. والأصل في هذه الكلمة الفاسقة أنها أخذت من الاغريقية (پسكس) أي سمك وقلبت الپاء فاء ، وتحول اللفظ إلى «فسكس» ، بمعنى مأوى السمك وصارت «فسقية» ولا علاقة لها بالفسق ، طبعاً الا في عقول الناس «الأَبْحَة» أو «الأبيحين» .. ويسميها ذوو الذوق السليم «شندوان» وأصلها فارسي .. .. ولسوف أمتنع عن أن أسمي هاته الجميلات «نافورات» .. إذ ليس فيها من النفور نصيب ، فهن جاذبات ، معانقات ، حاضنات ، مقبلات ، مبتسمات ، ضاحكات .. راقصات ، يلقين الشعر ، ويغازلن المارة ، وينشرن الحب والجمال .. فيا أيها الناس حرام عليكم حكاية النافورة ذي «والفسقية .. وبهذه المناسبة اليكم فذلكة مؤذية» : ما تقدم مثال من القبح الذي يصيب اللغة من أهل اللغة ، الذين لا يفكرون الا في ضرب زيد عمروا ، وأكلت السمكة حتى ذيلها ، (بكسر أو ضم أو فتح لام الذيل) وفي الجحمرش ، والهعخع .. والهذبر والفاعلون ، والمفاعيل ، وخاصة المفعولات فيه .. وهم في هذا الأخير يتناولون ما لا يسمى .. (للهـن) عندهم مائة أسم منها الكلثوم

كما جاء في «الفيروزابادي» .. فأين قبح لفظ النافورة من جمال هانيك السلاسل اللجينية التي تنطلق راقصة تحت أضواء تتغاير كأنها موسيقى مرئية ، ليس لها من النفور نصيب ... أين هذا اللفظ من لفظ «شندوان» الفارسية والتركية التي تعني هذه الراقصة المائية الجميلة ..

إعداد الحقائب نوع من المتاعب :

طفت مع هذا الشاب الوسيم .. وتمتعت .. بجمال فريد ، رحمني موقتاً من طيف «عزة» وتمنيت لو أن العالمين تنبهوا لما في الدنيا من عطاءات جميلة .. ولقد كان من سوء حظي أنني ذهبت الى «ليبيا» بعد أن تأقلمت باسبانيا في «مدريد» وبعد أن نسيت متاعبنا في مصر ووقعت «ليبيا» المسكينة تحت مطرقة نقدي لما رأيته من تباين غير معقول .

وصلت الفندق في الساعة الثالثة وأخذت أرتب أمتعتي وساعدتني في ذلك «الفام دي شامبر» أو وصيفة شقتي .. واتضح أن أمتعتي زادت في الوزن ، فأصبح عندي ما يزيد على مائة كيلوجرام ولا أعلم كيف كان ذلك سوى «أن الحاجات لازم سمنت أو ولدت» ..

وحدة ووحشة ورهبة :

عندما انتهيت من إعداد الأمتعة استعداداً لمغادرة «مدريد» باكراً ، انفردت بنفسي وفي لحظة .. راجعتني الهواجس وأحسست بفراغ عظيم .. واشتملني طيف عزة ثانية بعد أن كان قد غادرني .. وبينما أنا غارق في التفكير فيها .. رن التليفون .. وكانت هي تكلمني من «طرابلس» .. وكانت محادثة عاطفية كلها رقة وآمال .. وأخبرتها أنني سأكون باكراً بأذن الله في مصر ، لأني حجزت في الـ «تي . دبليو. إيه» واجابت بأنها أيضاً ستكون يوم ٢٧ ديسمبر .. ولقد حجزت مكاناً في الطائرة ، وأعطتني رقم الطيران وميعاد وصولها بمطار القاهرة ، ووعدت أن أكون في انتظارها .. وأنهت المكالمة بكلمات الحب والأمل .. وتواعدنا على استئناف حياة سعادة وحب .. ولم نشك فيما خبأه القدر لنا . لم أطق أن أمكث في الفندق ، وكانت الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل «ليلة الكرسماس» عيد الميلاد .. فخرجت أروح عن نفسي في جولة أخيرة في «مدريد» أودعها وأودع .. ذكرياتي فيها . «مدريد» الجميلة نائمة .. كما تبدو للسائر في

شوارعها .. وهذه الشوارع الجميلة المتلألئة .. فارغة تماماً .. لم أر فيها سوى سيارتين ولكن ليس للخلق وجود في الشوارع .. والغريب أن واجهات المتاجر والمحلات كلها بلا استثناء مضاءة وفي أجمل زينة .. إلا أنها خالية من الناس ومغلقة .. ولكن «مدريد» فرحة راقصة في البيوت الخاصة .. ولا يوجد «بمدريد» محل عام واحد به إنسان.. الكل في بيوتهم يحتفلون بميلاد السيد المسيح ...

الاحتفالات الوطنية وظيفة اجتماعية

الليل في مدريد نهار جديد :

الشوارع مضاءة كالنهار .. والزينات في أكمل حالة .. كأنها جنة لم يدخلها البشر بعد .. خلت أيضاً ردهات وصالات الفنادق ، وآوى النزلاء إلى غرفهم ، كل الأمكنة في هدوء وسكون حتى المطعم .. ويبدو على ملامح الشغالين في الفندق علامات الأسى لحرمانهم من أن يكونوا مع أهاليهم في بيوتهم في هذه المناسبة ، مناسبة عيد الميلاد المجيد .

المدينة المهجورة رهيبة الصورة :

أين ذهب «المدريديون» .. أو «المداردة» إنهم عن بكرة أبيهم في بيوتهم ، يحيون أواصر المحبة بين أفراد أسرهم .. «مدريد» خاليه تماماً .. تماماً من الناس رغم أنها تتلألأ نوراً .. شعرت برهبة وخوف للفراغ البادي والوحشة .. والوحدة المرعبة في هذه الشوارع الواسعة والميادين الفارهة .. وأحسست كأن الناس هربوا منها خوفاً من كارثة على وشك الوقوع ، وشعرت بمرارة الوحدة والانفراد في هذا المكان الهائل ... وفضلت انفرادي في صحراء .. فرهبتها طبيعية أما هذه الوحشة فالعياذ بالله هي مخيفة يتوقع الإنسان فيها الشر .. لإحاطة الإنسان في حالة انفراده بتصنعات وتكنولوجيات البشرية المزيفة التي لا تماثل أضواء وأنوار وزينات الطبيعة صنع الاله العظيم ...

أمسيات رمضان فريدة في الزمان :

تذكرت في هذه الآونه .. أمسيات رمضان .. قبيل الغروب في القاهرة .. .. .. إذ تخلو القاهرة من الناس .. ويأوون الى بيوتهم ليتناولوا طعام الإفطار ، معاً صائمون أو غير صائمين .. وتسكن القاهرة بالسكون الذي يسبق العاصفة .. فلا يلبث أن يتقدم الليل ، حتى تستيقظ هذه المدينة العظيمة ، ويتدفق الخلق من بيوتهم ويحيون الليل بالسرور . والواقع أن الاحتفالات والمناسبات ، وظائف اجتماعية هامة لازمة لصحة المجتمع وضرورة حتمية لتحقيق المواطنة الحقة في الأمم .

الموسيقى كالماء والهواء :

ولقد لاحظت شيئاً غريباً طول إقامتي في «مدريد» . وهو أنني كلما دخلت مكاناً أياً كان ، مصعداً ، متجراً ، حماماً . غرفة نوم . مستحماً . مطبخاً . مقصفاً . باراً . سيارة ، قطاراً ، جالساً ، ماشياً ، جارياً ، مسترخياً ، نائماً ... تصل الى مسامعي موسيقى خفيفة تنساب برفق ودعة .. في أول الأمر لم أتصور أنها تنساب من كل فراغ في الفضاء .. بل كنت أظنها مذاعة محلياً .. ولكني تنبهت أخيراً .. أن هذه الموسيقى لا تنقطع أبداً كأنها الهواء الذي تستنشقه ، فهي في «مدريد» طبيعة الأشياء . وهذا طبعاً نتيجة التقدم التكنولوجي في الصوتيات ..

الموسيقى خلال التليفون نوع من الفنون :

تبين لي أن في أسبانيا نظاماً عجيباً .. وهو أن أي إنسان يشترك في «التليفون» يمكنه أن يضيف على اشتراك التليفون العادي اشتراكاً في برامج موسيقية أو الاذاعات الخاصة .. فيعطى جهاز كالراديو .. يوصل بسلك التليفون الأصلي الذي تنساب فيه عدة برامج مستمرة واحد موسيقى كلاسيكية .. والثاني موسيقى أسبانية .. والثالث موسيقى حالمة خفيفة ويكفي لانتخاب واحد منها أن يوجه مؤشر صغير نحو علامته .. والاشتراك في هذا لا يزيد عن ١٠٠ بستو فقط .. يا مصيبتنا في الشرق الأوسط «ده اللي عنده تليفون عقوبته صارمة .. بكلمات زائدة ، وعطل دائم .. والموسيقى عندنا صخب وضوضاء تصم الآذان ، وضجة السيارات وأبواقها ، وصراخ الباعة فوق ذلك كله .. يرهق الأعصاب ويعطل العمل والإنتاج ...

المذايع نوع من الفظايع :

ده حتى القرآن اللي أصلاً جمال أصوات كلماته تفوق كل جمال . بينحط في مذاييع خربة تجرح انسيابه .. (حرام عليكم) .. أين الأذان الجميل الذي كان يلعلع في الفضاء .. وخاصة في الفجر ؟ فقد حلاوته وعذوبته خلال هذه «المذابيع» الملعونة .

كذلك في المآتم .. يوضع الميكروفون أمام المقرئ ذي الصوت الرخيم العذب الجميل .. فينتشر صوته عبر الشوارع ، وينفذ في النوافذ ، ويسرح في الفضاء دون حلاوة بشرية .. مخلطاً بحشرجات وصفارات وخشانات .. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء واذهبوا الى أطباء الأذن والحنجرة . لعل بكم صمماً وضعفاً سمعياً فلا تفرقون بين النغم والضوضاء .

الحرية الاسبانية والدكتاتورية الفرنكويه :

وكلما فكرت ملياً في أسباب هذا التحضر .. وكانت إسبانيا من سنوات قليلة لا تزيد عنا . عجبت جداً حتى علمت أن الجنرال « فرانكو » وراء كل هذا .. فقد أرسى قواعد وأسس أخلاقية وعاش يعلم شعبه ولعل طول مدة حكمه التي تزيد على أربعين سنة .. مستمرة مستقرة وإبعاد بلاده وشعبه بقدر المستطاع عن زوابع ومشاكل العالم وعدم انحيازه .. ولكني رغم ذلك علمت أنه سلب حريات الناس ووضعهم في إطار من صنعه وطال استبداده فيهم .

ولم يمكني أن أصل الى رأي في هذا .. هل ما أراه وأعجب به يستحق ضياع الحرية .. وهل سيبقى هذا النظام وهذا التحضر المشبوه بعد وفاة .. هذا الجنرال .. وماذا سيقول التاريخ عنه .. هل هو في نظر التاريخ مصلح أم ظالم .. مستبد أم إنسان .. أو ماذا ؟ وهل ستمحو إصلاحاته في بناء أسبانيا الحديثة الاسم الذي ألحق به (دكتاتور) اسبانيا أم لا ...؟ هذا ما على شعب اسبانيا وحدهم الإجابة عليه قبل غيرهم ...

التسامح في مدريد رأي سديد :

فاتني أن أذكر حادثاً وقعت فيه وانقلبت فيه الى ريفي في تصرفي .. وكان هذا عندما خرجت من الكورت لنجليز وانتظرت سيارة أجرة طويلاً .. وعقدت العزم أن أستقل « أتوبوس » «زي خلق ربنا » انتظرت في الموقف ، ولما وصل « الأتوبوس » ، وجدت باب الوسط فيه مخرجان ، أحدهما لا ينزل منه أحد والآخر يشغله النازلون المغادرون « للأتوبوس » ، فتصورت أنه باب صعود الركاب .. والصحيح هو دخول « الأتوبـوس » من بابه في المؤخرة .. فصاح بي المحصل أو الجابي ، ففهمت الخطأ وابتسمت .. وغيرت مقصدي وصعدت من الباب الخلفي ولما صعدت بش رجل في وجهي وابتسم وفاه بكلمات ترحيب لم أفهمها .. كما ابتسم الركاب حتى يذهبوا عني خجلي من جهلي ، ولم أشعر في ابتساماتهم وبشاشاتهم سوى الحب والاحترام ، فترحمت على «دول وبلاد لا يمكن أن يمر مثل هذا الحادث فيها دون عقوبة الزج في السجون وقضيه لا يعلم الا الله عواقبها ... »

وعندما وصل الأتوبوس إلى العنوان الذي أعطيته للسائق « أوقفه وساعدني في النزول .. » «علشان كده اسبانيا سكانها ٣٠ مليون نسمة ولكن فيها في أي لحظة

٦٠ مليون شخص .. الزيادة ثلاثون مليون ، زوار ، ضيوف ، نسميهم نحن «سياح» والسائح لفظة قبيحة جداً ، ولكن الضيف أو الزائر فلها معان .. ترافق الضيافه والكرم وحسن الخلق .. ورأيي أن نلغي لفظة سياحة ونغيره الى لفظة ضيافة .. ونسمي مصلحة السياحة . مصلحة الضيافة . أو مصلحة «الزوار» ..

الفصل السابع عشر

المغادرة

السانكوبانزية في مواجهة الأميريكية

اطعم الفم تستحي العين :

الحمد الله ، أصبح جميع موظفي الفندق وشغاليه يبتسمون لي ، ويحيونني أحسن تحية دون كلفة .. كلما رأوني .. ويهرعون لمساعدتي وكذلك «الفام دي شامبر » أو ، « الكمريرة » أو وصيفة الغرفة ، بخلاف ما كان يحدث في الأسبوعين الأولين .. وذلك لتندري الدائم معهم ، ولبدئي بالتحية والابتسام كلما رأيت أحداً منهم .. وطبيعي سيل الأكراميات التي كنت أدفعها ، حتى لا أتهم بالبخل أو التقتير .. مما يفسد المظهر الذي كساني به المكتب .. و« شكري » و « السكرتارية » .. و « ماريانو » .. و « تريزا » .

السانكوبانزية سجية اسبانية :

وأردت إرسال برقية لمصر .. أخبرهم بميعاد وصولي .. وشراء بعض بطاقات البريد الملونة .. ولم أشأ أن أخابر «عزة » خوفاً من أن يستشف من ذلك شيء يفسد خطتنا .. وبينما أنا أمام المستعلم (نضد الاستعلامات) الذي يعمل فيه شاب لطيف وسيم بسام .. رأيته يناقش أميريكياً عملاقاً ، ومعه رجل اسباني ، بينه وبين « سانكوبانزا » الشخصية الأسطورية الاسبانية شبه كبير ، وتبين لي أنه سائق سيارة أجرة ..

ملخص القصة ، أن هذا الأميريكي استأجر تاكسي سيارة أجرة من الفندق للمطار ورجع به بعد أن انتظره التاكسي ثلاثة أرباع الساعة فطلب هذا «السانكو» من الرجل الطيب مايتين وسبعين بستو .. ورفض الأميريكي دفعها .. وأراد أن يتحقق من أن السائق (السانكوبانزا) «مش حرامي » وأنه لم يغشه .

كان السائق قصير القامة .. ببطن كروي ، وعجز مدلدل في سراويل كأنها خرج أو «غبيط » (والغبيط كيس مزدوج ، يوضع فوق الحمير بأرياف مصر ينقل فيه « الرتش » أو « التراب أو السماد ») . وكان مستدير الوجه ، كروي الرأس عيناه كرويتان وشعره فرجون أشعث (الفرجون بمعنى الفرشة) . ملابسه واسعة مهدلة على كتفيه ، وصدريته ضيقة عند وسطه .. كأنه مهرج في سرك .. وكان يقف فاغراً فاه باستغراب

وبلاهة .. والعملاق .. الأميريكي يطل عليه من عليائه خلال «نظارة» عوينات مقعرة العدسات ، تظهر عيناه ورائهما كأنهما عيني أفعى . ويخيل للرائي أنه يريد أن يضع أصبعه السبابة في عيني «السانكو» ويهز هذا الأصبع مرة طاعناً به جبهة السانكو ومرة صدره ومرة في اتجاه وجه الشاب الوسيم في المستعلم .. ووراء هذا الأميريكي العملاق ، حشد متنوع من الأميريكيين .. امرأة مكعبة الهيئة ، ضخمة قصيرة ، تخرج من جسدها ذراعان كأنهما أكياس مليئة بالأرز .. ورأسها مشوش في غير انتظام ، وكانت تنتقي بطاقات بريد مصورة ملونة ، وتصيح في وجه رجل أظنه زوجها .. نحيف صغير الجسم .. يمثل تماماً الشخصية الهزلية (السبع أفندي) .. ثم فتاة قصيرة القامة بعينين نجلاوين ، مع شاب ولعلهما عريسان .. وهي كذلك منكبة على لوحة البطاقات المعلقه ، تنتقي بعض البطاقات (كارت بوستال) . فرأت صورة «الموناليزا» وهي «الجيوكاندة» من الروائع الذي رسمها «ليوناردو دافنشي» فصاحت مصفقة (الحقوا يا ناس «الموناليزا» .. بصوا الموناليزا) فحدجها شاب في المستعلم بنظرة كأنه يقول «رحماكي وطي حسك» ثم فتاة أخرى كانت تنتقي هي الأخرى بطاقات .. وخطفت بطاقة وصاحت في مرافق لها شاب يظهر أنه اسباني .. وقالت (بص شوف) بصوت عال (فسقية الخصوبة التناسلية) ، وأخذت تتأمل الصورة .. وتمصمص في شفايفها .. وتهتز بوسطها .. وتتحسس الشاب الذي يرافقها .. فاحمر وجهه حتى صار قرمزياً أو «طماطمياً» ، وغض الشابان اللذان في المستعلم أنظارهما . في هذا الحشد مجموعة عديدة من العجائز الحزابنة أي الحيزبونات مع أطفال ، وتبين لي من ذلك أنهم في رحلة جماعية .. وبجوار هذا الحشد زنجي طويل القامة .. كهل .. ضخم الجثة ومع أن وجهه لا يتسم بأي صفة جمالية غريبة ، الا أنه سمح المحيا ، لا يسعك الا أن تحبه ، الابتسامة لا تفارق شفتيه . وقف في الخلف رجل ياباني ، يكاد لا يرى ولا يشعر به أحد من رقته وخفة حركته ، فكأنه نغمة نشاز في هذا الجمع الأميريكي ، وكانت نظراته تشف عن قلق لأنه كان يريد أن يستعلم عن برقية الى طوكيو يريد ابراقها .. ولكن هذا الأميريكي العملاق ، كلن يداوم طعن الفقماء بأصبعة السبابة ، ويصيح (إن هذا السانكو غشاش) .. وكان هذا «السانكو» لا يعرف الانجليزية ، وينظر ببلاهة لهذا الأميريكي ثم يلتفت إلى فتى المستعلم مستفسراً .

الذي صنع من الحبة قبة :

وكان الأميريكي يدق النضد بيده ، قائلاً إنه يعرف مقدار أجرة «التاكسي» .

وإنه سيبلغ مصلحة السياحة ، ويهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور . وبدأ الشاب بمنتهى الأدب يوضح له ... أن اليوم الأحد ، وفيه يزاد الأجر ٥٠٪ وأن هذا السانكو انتظر بالمطار ٤٥ دقيقة وهذه أجرها ٧٠ بستو ، والأجر من المطار للفندق ٩٥ بستو وهكذا يكون المطلوب صحيحاً . ولكن هيهات أن يقتنع هذا العملاق . وأثار ضجة وكاد يمسك بخناق «السانكو» .. فنفذ صبر الشاب وقال للأمير يكي (سيدي أتعرف قيمة المطلوب بالدولار .. إنه أقل مما تدفعه ثمناً لثلاثة (سندويتشات) شطائر في أميريكا . سيدي ألم تركب سيارات أجرة في أميريكا؟) ولكن الأميريكي أصر أن لا يدفع «وهاتو البوليس» وهنا تقدم الياباني وقد نفذ صبره ، لأنه مستعجل ، ويريد أن ينهي عمله ، وقال للأميريكي (... إذا قبلت يا سيدي أن أتدخل وأقنع السائق وتفضل أعطني ما تريد دفعه .. وذهب السانكو مع الياباني .. ولم يرجع ورجع الياباني وحده .. فسأله الأميريكي عما حدث .. واكتفى الياباني بقوله (قد أقنعته) .. فتعجب الأميريكي وقال هذا (سحر) وتمكن الياباني من إنهاء برقيته ... هذا والحشد «يصوصو ، ويشوشر ، ويقعقع ويشخلل .. (والبت بتاعة فسقية التناسل تكاد تعانق رفيقها الاسباني كدة عيني عينك) .

الواقع طبعاً أن الياباني فضّ المشكل بدفع الفرق من جيبه ولكن الأميريكي عمل أهبل ، أي استهبل ، وخدها حلوانه في سلوانه ولم يسائل الياباني في هذا .. ويظهر أنه ظن أن الياباني مغفل .

ياما في الحبس مظاليم :

وعندما انصرف الجميع .. التفت إلى فتى الاستعلامات وطيبت خاطره .. وقلت له «تفتكر الناس دي عملت فلوس ازاي ؟ أهو من كدة ..» وأخذت أتندر على السائق وقلت له إن السائق سرق بطولة هذه التمثيلية .. وذكرت له تخيلي أنه «سانكوبانزا» .. الذي كان في ظلام فكري ، وكان يظن أن الأميريكي يريد أن يدفع زيادة وانت تمنعه .. لأنه لا يعقل أن تكون الخناقة مع واحد أميريكاني غني على «نكله» .. وأن السائق ظن أن فتى المستعلم كان يتشاجر مع الأميريكي لمنعه من إعطاء إكرامية «للسانكو» وانصرف السانكو يلعن فتى المستعلم .

مغادرة خالية من المهاترة

زيادة في العفش خالية من القفش :

في الصباح .. بعد أن تناولت طعام الافطار . حضرت الوصيفة وأتمت إعدادي للرحيل .. وفي الميعاد ، حضر سائق سيارتي «بترو» وحمل حقائبي الى السيارة لأن جميع من في الفندق من خدم وشغالين كانوا نياماً أو في إجازة .. وبطبيعة الحال أجزلت العطاء للكل ووصلنا المطار .. وعندما وصلت أمتعتي إلى مكتب شركة الـ «تي .. دبليو .. ايه» .. وكان به شاب وسيم . خفيف الروح ووجهه مليء بالبشر .. أخذ التذاكر ونظر الى ميزان الأمتعة وصفر صفيراً خافتاً وقال «ثلاثين كيلو زيادة» ... فبلعت ريقي ، لأني كنت أعلم أن هذا معناه دفع ما يعادل خمسين ألف بستو أي خمسين جنيهاً .. فقلت له ضاحكاً «ميري كرستماس» يعني عيد ميلاد بهيج .. فقال (طيب خليهم بالنص يعني ١٥ كيلو) .. فقلت له (أنت بتحب الرهان والحظ ؟) فقال لا قلت (يا خسارة أنا كنت حراهنك على النص .. إن أنا كسبت أدفع ستة وان انت كسبت ادفع ٢٤) .. فضحك وقال (خليهم ستة وبلاش رهان) .. فقلت (الله يرضى عنك .. عندنا في الإسلام إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان والرهان ميسر وأزلام) . فضحك ... وقال .. (لكن أظن ما عندكوش مانع من ناحية الستات) .. فضحكت ولم أجب لئلا يحدث ما لا تحمد عقباه .. ثم قال (علشان خاطر لطفك خليهم ستة كيلو بس) دفعت ١٨٠٠ بستو ، ولو كنت في بلد تانية .. «كانوا دفعوني عشرة أمثال ذلك» .

ثم سألته عن البنك لتغيير النقد فأشار إلى شباك ذهبت إليه ... وكان فيه شاب لطيف آخر (ويظهر أنهم في اسبانيا يعنون جداً باختيار من يحسنون معاملة الناس في المراكز السياحية الحساسة كالمصارف والمطارات والفنادق والمطاعم) .. وسألته (عندي بستات عايز أحولهم) .. فقال (القانون بيقول حول ٣ آلاف بس) .. ولما أظهرت ما ما معي وكان أكثر من ذلك بكثير .. ابتسم وقرب فمه من أذني وقال (حطهم في جيبك وبلاش عبط .. وهات التلات تلاف بس .. أغيرهملك دولارات) .. وقال

(أنا ما شفتش حاجه .. مع السلامه) فقلت في سري .. (ما هذا ؟ .. لو حصل هذا في مصر .. كنت رحت في داهيه) .. فقررت التخلص مما عندي ولكن «اليوم كرسماس والدكاكين مقفلة » .. ورأيت متجراً صغيراً لم يغلق أبوابه ، فانطلقت اليه وأخذت أشتري توافه ما كنت اشتريتها فقط .. حتى أنفقت بالعافية جزءا كبيراً من المبالغ التي كنت أحملها .. وكنت في منتهى الرعب خوفاً من أن (يفتشوني ويقفشوني في الجمرك في أثناء خروجي من الطائرة ...) وصلت لباب الخروج فبشوا في وجهي ، وهيئ لي انهم يريدون أن يحشوا جيوبي «بفلوس من عندهم » وأخذ الكل يساعدني في نقل حقائب اليد المتعددة التي كنت حشوتها بالمشتريات الأخيرة .. وصلت صالة المغادرة الرحبة .. ووقفت أمام مكتب الـ (تي - دبليو - ايه) فاستقبلت أحسن استقبال ، وأعطيت بطاقة دخول الطائرة ، وأوضح لي المسئول الخطوات التي علي اتباعها .. وأعطاني رقم المقعد كما يحدث في السينما والمسارح .. وتقدمت الى مكان الأمن والتفتيش وبسرعة مررت بجهاز الكتروني .. .. ودخلت الطائرة .. وغادرت مطار «مدريد » .. دون أن يلمسني أحد وأتعرض لمهانة التحسيس .

الفصل الثامن عشر

الخلاص

بالأحضان يا بيتنا

بين الحلم والعلم والحال والخيال :

لا يمكن أن أصف الشعور الذي انتابني عندما دخلت البيت .. فكأنني استيقظت من حلم مزعج .. وانمحت من ذاكرتي كل الأحداث التي عاصرتها .. ومرت لحظات أوازن فيها وأستعدل مختلف تأثراتي .. خديجة .. فريدة .. علي ... كلابنا ... مكتبي .. ودرت في أنحاء المنزل كأني أتعرف على ما فيه .. وأحسست أنني ضائع بين ماض قريب ، أصبح حلماً مضى وتلاشى من ذاكرتي ، وبين حاضر أسترجع فيه حياتي العادية ..

مضت ساعات هنية حقاً ، بين العناقات والقبل ، وفتح اللفافات والحقائب ، وتوزيع ما فيها .. وكنت قد حشوتها بالكثير من الهدايا التي بذلت جهوداً جبارة في اختيارها ، حتى تناسب المهدى لهم .. ذوقاً ومنفعة .. وكانت الوليمة ... والطعام الطيب الذي أعدتاه خديجة وفريدة .. طعام بلادي .. طعام بيتي .. طعام زوجتي .. اندسست في سريري .. ولأول مرة من شهور أحاطني هدوء ودفء عاطفي .. وطمأنينة ، غسلت عني قلق الوجود في هذه الدنيا .. وكأنني طفل صغير يحتمي في صدر أمه بين ثدييها .. وكأنني ولدت اليوم .. دون ماضي .. وكلي أمل في المستقبل ..

من الماضي لحظة تقتحم اليقظة :

وفي الصباح .. عندما أفقت .. ظننت أنني لا زلت في فندق «أيروبلدنج» .. .. ومضت لحظات أسترجع فيها نفسي وواقعي ، وطافت بمخيلتي أحداث رحلتي .. بدت «عزة» في خيالي .. ولكن طيفها كان باهتاً .. ولم يستقر في ذهني .. بل طغت عليه صورتي زوجتي وابنتي .. وتسلل الى ضميري شعور بالذنب والخطيئة .. وتعجبت كيف أن رجلاً عركته السنون مثلي ، يرتكب هذه الحماقة ، ويعرض أغلى ما عنده في الحياة لخطر الزوال .. ولكن سحر «عزة» وجمالها وأنوثتها العارمة .. عاودت تقتحم ذاكرتي .. فاستعذت بالله وقفزت من الفراش أقوم بطقوس الصباح الحضارية .

النعمة في التعقل وفي الحكمة :

لم يخف ذلك عن زوجتي .. التي لم تفاتحني في شيء ، وشعرت كأنها أستشفت من نظراتي ووجهي وحركاتي ما يكنه صدري .. فقبلتني وحنت علي حنو الأم . . .. ونظرت الي نظرة فهمت منها .. أنها ليست حمقاء ، واللي فات مات أحنا ولاد النهار ده وبعد تناول طعام الإفطار ، خرجت معها الى نادي الجزيرة ، وتريضنا مشياً نتحادث في نوادر رحلتي .. ثم توجهنا الى الأستديو «دار الصفا» الذي كنت في شوق لزيارتها وعندما دخلتها ، دهشت جداً فقد عهدتها «خديجة» بالنظافه .. وملأت مزهرياتها بالورود .. واستبقتنا موسيقاي .. واحتوتنا الدار وجوّها ... وبعد أن عادت مشاعري الحقيقية التي كنت قد فقدتها بعد سفري .. جلست الى زوجتي .. متلاصقين .

ما فات مات .. وكل ما هو آت آت :

وتخيلت .. لو أن زوجتي كانت معي .. أو أن ما جرى في «مدريد» جرى في القاهرة وأنا بين عائلتي .. هل كنت أتصرف نحو «عزة» بنفس الطريقه .. ؟ وهل كنت وقعت في شرك أنوثتها وجمالها .. ؟ .

إن الوحدة التي كنت فيها .. والغربة والشعور بأني انتزعت من بيئة عشت حياتي كلها فيها ، الى بيئة تخالفها ، وكنت في أعماقي أحتقرها .. وإن المغريات الإنسانية التي تعرضت لها ما كانت تؤثر في لتدرعي .. بعائلتي وحماية زوجتي ..

لم يغرني المال ، ولا الجاه ، ولا السلطة ، ولا السيطرة بل كنت أمقتها جميعها لأني في داخليتي أشعر بارتفاعي عن مستواها جميعاً .. لشعوري بالتفوق في المعرفة والسعادة . ولكن عندما تعرضت لمؤامرة هدفها استغلال عواطفي ومشاعري الإنسانية وما في من ضعف انساني لا يخلو منه الا الأنبياء والقديسون ، وقعت في المحظور .. وحق لي أن أطلب المغفرة ، لمن أسأت اليهم بعد أن أعترف لهم بضعفي .. وأمتنع من أن أتعرض لمثل هذه المواقف مستقبلاً .. «لأني إنسان لسه برده ضعيف» .. هذا ما دار بخلدي .. وقررت أن أفرغ ما في صدري .

الإعتراف :

سردت على زوجتي كل ما حدث بأمانة .. ودون أن أخفي شيئاً .. ولربما يعجب البعض كيف يجرؤ زوج على أن يفضي الى زوجته بدخائل أمور تعتبر افتئات على

حقوقها ، ولكن زوجتي سيدة عاقلة فاضلة متمدينة متحضرة .. مثقفة تفهم الحياة وما فيها .. وكثيراً ما كانت لي عوناً في حل مشاكل تعرضت لها في حياتي الطويلة معها ..

فقالت مسكينة «عزة» .. هذا «الشكري» شرير ، والحمد الله أنك خلصت منه والواقع أن الحق علينا فأنت كنت غير راغب في السفر معه لولا ضغطنا عليك .. ثم ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت (حاتعمل إيه مع «عزة» ؟) قلت (سأصرفها بالحسنى وستكونين معي عندما نقابلها باكر في المطار) .. قالت (يا حسن قابلها أنت لوحدك وكأني معرفش حاجه وأنا واثقه أنك ستتصرف بحكمه .. يا حسن أنت راجل طيب وأنا بحبك موت) ..

خبر رديء من مصدر مسيء :

ذهبت الى المطار .. في الميعاد ، أنتظر وصول «عزة» وقابلت هناك عمتها وابنتيها اللاتي حضرن لاستقبالها .. البنتان في جمال ونضارة ، والسيدة عمتها سيدة كريمة أنيقة المظهر ، مثقفة في مظهر خيار الناس .. وصلت الطائرة ولم تكن «عزة» ضمن الركاب .. ولم يمكن أن نعرف سبب تخلفها .. رجعنا كل الى بيته .. ولم يمكنني تعليل تخلفها عن الحضور ..

مضت ثلاثة أيام ولم تصلنا أخبار عن «عزة» .. رن التليفون في اليوم الرابع ... وكانت المتكلمة «فردوس» أم ابن «شكري» وقالت «حسن بك» .. أنا «فردوس» سكرتيرة «شكري» القديمة .. البقية في حياتك في «عزة» .. وخيل لي أن في صوتها رنة تشفي .. وأنهت المكالمة .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

الاغتيال وسيلة الأنذال :

عبثاً حاولت الاتصال .. بفردوس .. أو بعمة «عزة» أو بأي ناحية يمكنني أتحصل منها على معلومات عن «عزة» .. وحدث بعد أسبوع أن حضر الدكتور «صلاح» ، الأستاذ الذي كان قد استضافني في كلية الهندسة «بطرابلس» . ولما استوضحته عما حدث .. فقال إن الحقيقة غير معروفة .. غير أنه قيل إن جماعة مجهولين سطو على شقتها ليلة عيد الميلاد وسرقوا أمتعتها التي كانت قد أعدتها للسفر .. ثم خرجت في صباح اليوم التالي ولم ترجع .. وعثر على جثتها غريقة في البحر .. وقيل إنها كانت في حالة خوف واضطراب عندما خرجت من المنزل .. والغالب إنها انتحرت .

بكيت عليها وعلى حظها العاثر .. وترحمت عليها .. والحقيقة أن ما حدث لها كان لاحتفاظها بما أخذته من مكتب «شكري» أولاً . وثانياً لأنها كانت قد استعدت للسفر الى القاهرة بدلاً من «مدريد» دون أن تحتاط وتخفي نواياها .. وهي تعلم أن «شكري» له شبكة من الجواسيس .. ولا بد أنها كانت تحت رقابة دقيقة ، كما أن «شكري» لا بد أنه اكتشف العبث في ملفاته المريبة و «شكري» ليس وحده في هذه القضية .. ولا بد أن منظمة قوية تشبه «المافيا» كانت وراءه .. ولا بد أنهم اغتالوا «عزة» حتى لا تتسرب أسرارهم وخصوصاً أن ما كان في حوزتها من وثائق يدين رجالاً في مراكز قوية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ..

أخذت أضرب أخماساً في أسداس .. وتساءلت ، هل انكشف أمري وعرفوا أنني كنت مع «عزة» في أثناء تفتيش المكتب في «مدريد» ؟ . وهل سيلاحقونني بالأذى ؟ . .. ولماذا اتصلت «فردوس» السكرتيرة القديمة بي تعلن موت عزة بطريقتها المقتضبة وأنا لا أعرفها ؟ .. أكان «شكري» وراء ذلك ؟ ..

رجوع المياه إلى مجاريها

أفضيت لزوجتي بمخاوفي .. وبتنا ليالي عديدة نقلب الأمر على وجوهه .. ونحن ، فريسة للهواجس .. وأخيراً رأينا ألا نفكر في هذا الموضوع بتاتاً ، ونعتبره كأنه لم يكن ونستأنف حياتنا بكل مقوماتها السعيدة التي تعودتها قبل سفري ، ونقطع كل علاقة بيننا وبين ما له أقل اتصال «بشكري» أو «بعزة» ولو أنني كنت في قلق عظيم على ابنتيها . وكنت أود أن أكون على اتصال بهما .. غير أنني فضلت أن «أبعد عن الشر واغنيله» .. كما يقولون بالعامية القاهرية ..

والحمد لله مضت سنوات الآن .. وانقطعت كل الصلات والعلاقات ولم يحدث حادث له علاقة من قريب أو بعيدبهذه الفترة من حياتي ..

ولا أنكر أنه كثيراً ما يقتحم طيف «عزة» خيالي .. وتعاودني ذكرياتها .. فكأنها حلم مضى .. أستعيده فلا ألبث أن أطلب لها رحمة من الرحمن الرحيم واستغفر لها .. ويحضرني كلما مرّ طيفها بخيالي قول الشاعر :

لولا الحياء .. لهاجني استعبار ولزرت قبرك .. والحبيب يزار

ياعيني عليك .. يا أنا !!!

الفهرس

الصفحة

من هنا تبدأ قراءة هذا الكتاب	٥
تعقيب	٧
المقـدمة : أُعامل الحياة ولا تعاملني	٩
الفصل الأول : دخل الشيطان بيتنا	٢٧
الفصل الثاني : من قاهرة المعز إلى رومة روملس....	٥١
الفصل الثالث : المال .. المال .. وسوء المآل	٨١
الفصل الرابع : ماربيـا	١٠١
الفصل الخامس : كفاح امرأة	١٢٩
الفصل السادس : بندورا أو مفتاح صندوق البلايا	١٤٥
الفصل السابع : التجوال في أدغال الأعمال........	١٥٧
الفصل الثامن : أصل الحكاية غدر وخيانة	١٨٥
الفصل التاسع : صبحية مباركة	١٩٧
الفصل العاشر : الباحثون عن الذهب............	٢٠٥
الفصل الحادي عشر : ثرثرة	٢١٥
الفصل الثاني عشر : السراويل	٢٢٥
الفصل الثالث عشر : جعمست في ليبيا...........	٢٣٥
الفصل الرابع عشر : عرض خبيث................	٢٥٣
الفصل الخامس عشر : ما وراء الستار	٢٦٧
الفصل السادس عشر : أحببتك يا مدريد	٢٨٣
الفصل السابع عشر : المغادرة	٢٩٥
الفصل الثامن عشر : الخلاص	٣٠١

رقم الايداع ١٨٢٣/٧٩

الترقيم الدولى ٨ ـ ٤١ ـ ٧٠٥٩ ISBN

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى هاتف : ٧٥٤٣١٤ برقيا : شروق القاهرة

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقيا : داشروق